عزيز نيسين

ذَنَبْ الكلب

قصص



ذنب الكلب

• عنوان الكتاب باللغة التركية

IT KUYRUGU

• المؤلف: عزيز نيسين

عزيز نيسين

ذنب الكلب

مجموعة قصص

ترجمة

دار المنارة

• ذنب الكلب

• عزيز نيسين

• ترجمة: دار المنارة

• الطبعة الأولى ١٩٩٨

• الناشر: دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر

سوريا - اللاذقية -ص.ب: ٨٢٢

• التوزيع: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣

هاتف ٢٢١٣٩٦٢ -فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

- ١ -

ذنب الكلب

أول ما لفت نظري في القرى التي تجولت فيها، أن للكلاب أجساماً ضخمة ولكنها بدون أذناب.

لقد عرفت أمراً واحداً عن الكلاب. إذا أراد أحدهم أن يصبح كلبه ضخماً وشرسا، فإنه يقطع أذنيه ويرش عليهما الملح والفلفل ويطعمهما للكلب نفسه. ولكني لم أعرف ما هي الغاية من قطع ذنب الكلب (قلت ذلك للأستاذ الذي كان يرافقني في زيارتي للقرى).

- أجابني الأستاذ (الذي نظن أنه يعرف كل شيء): قد تكون نوعية الكلاب هكذا، بدون أذناب.

ثم سألت العجوز الذي استضافنا في منزله الكائن في مدخل القرية حول هذا الموضوع:

- هل يمكن أن تكون هذه الكلاب من أنواع لا تملك أذناباً؟

ضحك العجوز وقال: سأقص عليك هذه الحادثة حتى لا تشغل رأسك في التفكير.

في أحد الأيام، أرسل مدير الناحية أمراً إلى الأهالي، يطلب منهم قتل ثلاثين خنزيراً في هذا العام. طبعاً، لقد أثار هذا الأمر دهشة الجميع الذين اجتمعوا وقالوا لي:

إنك أكثر دراية وخبرة، وأوسعنا معرفة وإطلاعاً، نرجوك الذهاب إلى مدير الناحية لاستطلاع الأمر ومعرفة ما يطلبه بدقة.

قابلت مدير الناحية، وبدأت حديثي معه:

– يا سيدي لقد أمضيت أربعة عشر عاماً في الجيش، خدمت في اليمن وطرابلس، وشنق قلعة والقفقاس وأماكن كثيرة أيضاً.

– لا تكثر الكلام، لقد أديت واجبك تجاه الوطن، فهل تنتظر شيئاً مقابل أداء هذا الواجب؟

– استغفر الله يا سيدي، لم أقصد هذا.. بعد ذلك تطوعت للمشاركة في حرب الاستقلال، جمعت الشباب من حولي، وصعدنا الجبل بعد أن تلقيت أمراً رسمياً من قيادة المجموعة.

– إنك بكثرة أحاديثك وطول لسانك تعطل أعمال الدولة، وتشغلني بكلام فارغ، قل ماذا تريد بسرعة.

– انتصرنا في الحرب، والنصر من عند الله، ثم عدنا إلى القرية مثخنين بجراح السيوف وشظايا القنابل والرصاص.

– هل تريد أن يُخصص لك معاش تقاعدي بسبب خدمتك للوطن؟ ألا ترى كم يعاني هذا الشعب الفقير؟

– هل تظن يا سيدي أني لا أرى أو أشعر بذلك! في الأسبوع الماضي حجز جابي الضرائب على الفدَّان الوحيد الذي أملكه، ومع ذلك أقول: الحمد لله فقد أعطتني الدولة ما بوسعها. لديَّ الوسام الأحمر، والثناءات الممهورة بالنجوم. في أحد أيام الشتاء حضر الأستاذ إلى قريتنا وسردت على مسامعه ما مرَّ معي من حوادث، وكان يستمع إليها بدقة وعناية ويسجلها على دفتر مذكراته. مرت الأيام وانتقل الأستاذ إلى مكان آخر. وذات يوم نزل أحد شباب القرية إلى المدينة للدراسة، وعندما رجع في عطلته الدراسية قدَّم لي صحيفة وقال:

– يا خالي الشاويش إن هذه الصحيفة تتحدث عنك.

– إذاً باع الأستاذ قصة حياتي للصحيفة. طبعاً لم آخذ فلساً واحداً، ولم

أطالب الأستاذ ولا إدارة الصحيفة ولا غيره بشيء، ولكن الدولة منحتني رتبة ملازم أول، وكانت تدعونا سنوياً للعاصمة للمشاركة في الاحتفالات، والآن أصبحت مسناً عاجزاً، ولم أعد أقوى على السير أو الوقوف طويلاً. وفي المناسبات كنت أرتدي بزّة الضابط واضعاً السيف على جانبي والأوسمة على صدري. أما الآن، مع هذه اللحية البيضاء وهذا اللباس فلم تعد مظاهر اللياقة واضحة ومناسبة، إضافة لذلك فإني لا أستطيع شراء سروال يليق بمقامي؟ فكيف لي ببزّة ضابط محترم. إنهم يريدون جبر خاطري، فلهم جزيل الشكر.

– مدير الناحية: هكذا إذن، ماذا تريد؟ هل تريد أن ينصبّوك باشا؟ لقد درست عدة سنوات وما زلت برتبة رقيب.

– يا سيدي لا يخدعنّك مظهري هذا. عندما كان تحت إمرتي خمسمائة خيّال وألف من المشاة، كنت أطارد الكفار وأضيق عليهم الخناق، الآن لم يبق من العمر إلا القليل، ولست أطالب بشيء.

– إذن ماذا تريد؟

– أنا مندوب من قبل الفلاحين، بخصوص أوامركم القاضية بأن نقتل ثلاثين خنزيراً في هذا العام، وسبب إزعاجي لكم، هو أنه لايوجد أحد في قريتنا يعرف الخنزير ولا من رأى وجهه، إلا أنا فقد رأيته في جبهة غالينيا، كان يرأسنا وقتها ملازم اسمه أدهم -وقد توفي رحمة الله عليه- ولو أن اثنين من أمثالك تعلقا بشاربه لاستطاع أن يرفعهما ويوازنهما.

وفي إحدى الليالي قمنا بجولة استكشافية. حينها لم أعرف كيف أصابتني تلك الرصاصة الطائشة، عندها سمع الملازم أنيني فسألني: هل جرحت أيها الرقيب؟ قلت له: لا يا سيدي، ولكنه عندما رآني تأخرت عن الفرقة الاستكشافية، حملني على ظهره وأخذني إلى المستوصف الألماني، وعندها رأيت الخنزير.

كان الألمان يربّون الخنازير، ويقدموها في المطاعم، أما أنا فلم أتناول لحم الخنزير حتى عندما كنت في المستشفى. اعذرني يا سيدي، وجّعت لك رأسك، المسنون يتكلمون كثيراً. المهم في قريتنا أنني الوحيد فيها من شاهد الخنزير.

عندئذ احتد المدير قائلاً: اسمعوا يا سادة، لا أريد أن أسمع المزيد، ما يهمني هو أن تقتلوا الخنازير فقط.

– ولكن يا سيدي، لا يوجد خنازير في قريتنا ولا في المنطقة كلها أيضاً، نحن لا نعلم عن الخنزير إلا اسمه، فإذا أزعجنا أحدهم، فإننا نشتمه بأن نقول له: أنت خنزير، وقد نقول له أنت خنزير ابن خنزير، نقول ذلك ونحن لا نعرف الخنزير.

– عندها أحضر مدير الناحية رزمة من الأوراق وقال: أنتم جهلة، انظروا ماذا يوجد في هذه الأوراق، هل تعرف القراءة؟

– لا.

– أنت ملازم ولا تعرف القراءة.

– وما الضير في ذلك يا سيدي.

– اسمع، المعلومات الموجودة في هذه الأوراق تقول أن الخنزير هو المخرب الأساسي لمحصول الذرة، والذرة هي المدخول الأساسي للوطن، ولذلك من أجل زيادة المحصول وزيادة المنفعة ينبغي قتل الخنازير، هل تفهم؟ يجب أن تموت الخنازير.

– فهمت يا سيدي، يجب أن تموت الخنازير، إذاً أحضروا لنا الخنازير ونحن نقتلها، ثم إننا لا نزرع الذرة، وأجدادنا لم يزرعوا الذرة، وأجداد أجدادنا لم يزرعوها أيضاً.

– ازرعوا الذرة يا سيد، بدلاً من الجلوس هكذا، ازرعوها، عندها تأتي

الخنازير ثم تقتلوها وبذلك ينفذ أمر الدولة.

- نحن نزرع يا سيدي، ولكن أراضينا غير صالحة للذرة، فالشتاء عندنا طويل والثلج يغطي الأرض من ستة إلى ثمانية أشهر.

قال غاضباً: إنكم تجدون لكل شيء أعذاراً، في أمريكا يزرعون الزهور في القطب. أنتم لا تتعلمون شيئاً.

عندئذ نفذ صبري وقلت:

- قولوا للذين أصدروا هذه الأوامر، أن يمنعوا سقوط الثلج هذا العام، فنزرع الذرة، ثم تأتي الخنازير فنقتلها.

- انتظر، أنت تسخر من موظفي الدولة، وهذه عقوبتها تبدأ من السنتين على الأقل.

- أستغفر الله يا سيدي، ومن نكون نحن حتى نسخر من شخصيتكم الكريمة، ولكن لا خنازير لدينا.

- انظر، قل لي، هل أنت أكثر معرفة بوجود الخنازير من المسؤولين الذين أصدروا هذه الأوامر.

- نحن جهال، من أين لنا أن نعلم، ولكن في القرية لا يوجد خنازير.

- إن الذين أصدروا هذه الأوامر أصدروها عن دراية، بعد أن درسوا الخرائط والكتب وبنتيجة ذلك توصلوا إلى معرفة وجود الخنازير في القرية. ولكنكم لا تعلمون بوجودها، افتحوا أعينكم.

- لقد فتحناها يا سيدي، ولكن في القرية لا يوجد خنازير.

- أنتم ناكرو المعروف وعديمو المعرفة، نحن نناضل من أجلكم، من أجل أن تصبحوا بشراً، لقد أشرف على هذا الأمر وزير الزراعة شخصياً. وأرسل إلى جميع المدن طالباً من كل محافظة عدداً معيناً من الخنازير، لذلك بلّغ القائمقام. والقائمقام بلغ مدير الناحية وأنا بدوري بلغتكم، ووزعت الحصة

بالتساوي على جميع القرى. وكان نصيبكم أن تقتلوا ثلاثين خنزيراً.

– يا سيدي المدير، إذا تكلمنا عن الجهل فنحن جهلة، وعن الغباء فنحن أغبياء، ولكن في قريتنا لا يوجد خنازير.

– إذاً وزير الزراعة والخبراء الذين درسوا في أوروبا سنواتٍ طوالاً، والمستشار والمحافظ والقائمقام وموظفو الزراعة جميعاً جهلاء. أنتم فقط تعرفون، هل رأيت مدى سوء الجهالة. هل رأيت إلى أين وصلت إهانتك؟ بدأت مني وانتقلت إلى القائمقام ومنه إلى المحافظ ومنه إلى... هل رأيت إلى أي حد وصلت الإهانة؟

– أستغفر الله يا سيدي.

– استغفر الله أو لا تستغفره، هذا ليس من شأني.

ثم وقف وجلس مكانه مرة ثانية وقال:

– الدولة لا تريد منكم الخنازير بلا مقابل، أنتم تحضرون أذناب الخنازير المقتولة، وأنا أعطيكم بها وصل، مصدَّق من مدير الزراعة. ماذا تريدون أكثر من ذلك. حقاً إن الجميل لا ينفع معكم، هناك مكافحة عامة ضد الخنازير في كل أنحاء البلد، هل تفهمون ذلك؟ الآن أخبرني بكم كيلو القمح.

– المصرف يأخذ الكيلو بثمانية قروش.

– إذاً ذنب الخنزير الواحد يعادل كيلو ونصف من القمح، لو كنت مكانكم لتركت العمل في الحقول واشتغلت بتجارة الأذناب. هيا انصرف لا أريد المزيد من الكلام، فالأمر هو أمر، إذا لم تقتلوا الخنازير، سأرسل الجندرمة إلى القرية، وهم يعلمونكم كيف يكون القتل.

– الله يعطيكم طول العمر يا سيدي. ثم انصرفت

ذهبت إلى القرية وأخبرت الأهالي بالتفصيل ما جرى معي عند مدير الناحية، فاقترح أحدهم أن نربي الخنازير ثم نقطع أذنابها، ولكن الأهالي

رفضوا هذه الفكرة إذ أنهم لا يسمحون بتربية الحيوانات الضارة في القرية.

ولكن شخصاً يؤدي خدمته الإلزامية، أخبرنا أنه يوجد الكثير من الخنازير في مكان خدمته.

فقال لي الأهالي: يا حضرة الشاويش، ما رأيك لو تذهب أنت إلى هناك وتأتينا بثلاثين ذنباً. فالمكان يبعد عن قريتنا مسافة يومين بالقطار.

لذلك قلت لهم: إن سعر الذنب الواحد ١٢,٥ قرشاً، فما رأيكم لو أحضر الكثير منها، حتى أسدد أجرة الطريق.

في النهاية قررنا ذلك، وسحبنا قرضاً من المصرف. وأخذنا كيسين وانطلقنا إلى ذلك المكان، هناك الكثير من الخنازير، ولكن هل أنا الذكي الوحيد في البلد؟ لا، فقد كان هناك الكثيرون من أمثالي ممن ذهبوا ليشتروا أذناب الخنازير.

– سعر الذنب الواحد خمسة وعشرون قرشاً.

– ونحن سنبيعه باثني عشر قرشاً ونصف فقط، أين أجرة الطريق إذاً، وأين أتعابنا.

بعد مساومة وجهد كبيرين أخذت مئتي ذنب بسعر خمسة عشر قرشاً للذنب الواحد، ووقفت أتكلم مع الناس في السوق.

– أيها الرجال ألم تشاهدوا ذنب الخنزير من قبل.

– لماذا. ما الذي جرى؟.

– هذا ليس ذنب خنزير بل ذنب كلب.

فالمحتال إذن باعني ذنب كلب بدلاً من ذنب خنزير، لقد وضع أذناب الكلاب في زيت الزيتون، ثم خدعني بها، والآن ماذا سنفعل؟

– لا تفعل شيئاً، خذ الأذناب واقطع قليلاً من أطرافها، وزيتها مرة أخرى، ثم خذها إلى مدير الزراعة، وهو لن يشعر بالخدعة.

الطريق طويل والهواء ساخن، ورائحة الأذناب بدأت تفوح في القطار.

عندما وصلت إلى القرية أسرع الأهالي إليَّ وقالوا: يا حضرة الشاويش لقد بدأت الآن مكافحة الغربان، مدير الناحية يطلب مئتي رأس غراب.

– ليس هناك أكثر من الغربان، عليكم باصطيادها، قد تبدأ مكافحة الجراد بعد خمسة عشر يوماً. ولكن ابتهلوا لله حتى لا يطلبوا منكم رؤوس الجراد أيضاً.

علم أهالي القرى المجاورة بوجود أذناب الخنازير، وأصبحت قريتنا مقصداً لهم فكانوا يأخذون الذنب بنصف قيمته.

المهم أخذنا الأذناب إلى مدير الناحية الذي قال: هل رأيتم؟ إذاً يوجد لديكم أذناب، ولكنها أذناب خشنة، أي نوع من الخنازير وجدتم؟

ومنذ ذلك اليوم لم يأتِ أحد لزيارتي، لأني أمسكت ذنب الخنزير بيدي، و لم يصافحني أحد، جمعت بعض وجوه القرية، وقلت لهم: الذنْب ليس ذنبي، لقد خدعوني، وأنا بدوري خدعت مدير الناحية، الأذناب التي أتيت بها هي أذناب كلاب وليست أذناب خنازير.

ومن ثم أخبرتهم القصة بالتفصيللقد سمع أحد الأذكياء القصة، فبدأ التجارة بأذناب الكلاب، حتى لم يبق في المنطقة كلب واحد له ذنب، لقد أصبح تاجراً كبيراً في الأذناب.

ذات مرة التقيته في المنطقة، سألته: –كيف حالك؟

قال: الحمد لله نعيش بفضل أذناب الكلاب.

– ٢ –

أدامكم ا لله

وصلنا عنـد الغروب إلى قريـة :جديـدةً، ووضعنـا الزحافـات في السـاحة حيث كان يعمل حوالي أربعين رجـلاً في إزاحـة الثلـج الـذي غمـر السـاحة برفوشهم.

كان التعب والإرهاق ظـاهراً علـى أجسـادهم النحيلـة الـتي لفحهـا الـبرد القارس، وعلى زاويـة مـن السـاحة تقـوم بقاليـة، ومقهـى، ثـم مضافـة مختـار القرية. اتجهنا إلى المقهى، وكـان المختـار في مقدمـة المسـتقبلين حيـث بادرنـا بالقول:

"لم نعلم بتشريفكم إلا منذ لحظات فاعذرونا على تأخرنا"

لم أفهم ما يقصده المختار في اعتذاره، وظل متابعاً كلامه قائلاً: لو علمت أنكم قادمون، لأوعزت إلى رجال القرية بإزالة الثلج عن التمثال أولاً، ولكننـا بدأنا العمل متأخرين.

شـرع القرويـون بـالحفر في الثلـج، حتـى ظهـر رأسـان لتمثـالين. نظـرت بدهشة واسـتغراب إلى العمـال والتمثـالين، وسـألت المختـار: مـاذا يجـري يـا مختار؟ أجابَني المختار: لقد وصـل الخـبر في سـاعة متـأخرة يـا سـيدي وإلا لمـا استمر العمل حتى هذه الساعة المتأخرة.

دخلنا المقهى وتناولنا قدحـاً مـن الشـاي السـاخن، ثـم توجهنـا إلى منـزل المختار. وبعد استراحة قصيرة قال المختار:

– أنتم لا تشبهون الموظفين الآخرين.

بدأنا الحديث معه وقصَّ علينا حكاية التمثال:

كانت شخصية هامة على وشك زيارتها للقرى في منطقتنا حسب برنامج منظم، وكان طريق قريتنا يشكل معبراً إجبارياً لهم لأنها قرية كبيرة، لذلك تقررت زيارة تلك الشخصية. بدأت الاستعدادات بهدم عدد من المنازل وسط القرية لتصبح مكانها ساحة واسعة، وطُلب من الأهالي صنع تمثال ووضعه على منصة في وسطها، لكن أهالي القرية لا يعرفون ما هو التمثال، فشرع الذين خدموا في الجندية والكهول، وأسرى الحرب، يشرحون للشباب والنساء عن التمثال ومعناه، وعبثاً يفهم الأهالي كلامهم! لقد فهم بعضهم التمثال وشكله ومصدره ولكنهم لا يعرفون من يصنعه.

وإزاء هذا الموقف المحرج، طُلب من الناس جمع الأموال اللازمة لشراء تمثال أو صنعه. ورغم أن عملية جمع النقود تكررت عدة مرات للغاية نفسها، فهي لم تكن كافية في جميع الأحوال. وفي النهاية انبرى أحد المسؤولين وأعلن: أن الحكومة لن تبخل على الأهالي، وستتحمل باقي النفقات، وأضاف مسؤول آخر: يجب عليكم أن تقدموا طلباً بصنع التمثال.

وهكذا نفَّذ أهالي القرية ما أعلنه المسؤولان، وتمت التوصية على تمثال لقريتهم.

ثم صدرت تعليمات أخرى بإقامة مصطبة ترابية مرتفعة وسط الساحة، وزراعة أزهار حولها، وإحاطتها بسور حديدي. وهكذا صنعوا قاعدتين من الحجارة، ووضعوا عليهما رأسين متقابلين من الجبصين.

بدأ تدريب الأهالي على طريقة استقبال تلك الشخصية، وتحديد مكان وقوف التلاميذ، وأعيان القرية، كما تم تدريبهم على أجوبة الأسئلة التي يتوقع أن يطرحها المسؤول القادم. استغرق هذا التعليم أسبوعاً كاملاً من قبل معلم القرية وهو يطرح عليهم الأسئلة ويتلقى الأجوبة.

ولسوء الحظ كان وقت الاستقبال في فترة الحصاد، حيث يحضر القرويون إلى المدرسة وهم منهكون من التعب، وما أن يجلسوا على المقاعد حتى يغلبهم النعاس والمعلم جاد في الشرح لهم. وكان المعلم ينهرهم بقوله: كم أنتم أغبياء جملتان لا تستطيعون حفظهما، حقاً: لا يُرتجى منكم الخير.

كما حذّرهم قائد الدرك بقوله: إياكم أن تقولوا غير ما لقّنكم وعلمكم إياه معلم المدرسة، ويجب أن تجيبوا عليه، ومن يثرثر زيادة سأقطع لسانه وأفقأ عينيه.

اجتمع أهالي القرية لإصلاح الطريق الذي ستسير عليه سيارة المسؤول، ردموا الحفر، ومهدوا الارتفاعات البارزة في الطريق، وبدأت سيارة خاصة للقرية تتدرب بالسير على الطريق جيئة وذهاباً.

كان منظر السيارة مثيراً للأطفال، فتراكضوا يتدافعون خلفها ويتحلقون حولها. وعندما حان وقت قدوم تلك الشخصية، أخبرونا بذلك عند المساء، وطلبوا من الأهالي عدم الذهاب إلى العمل في اليوم التالي، حيث سيقومون بتنفيذ تدريبات تحضيرية للاستقبال.

نفذ سكان القرية ما طُلب منهم، بدأوا بالاستعداد، كل في مكانه، وتُركت الجهة التي ستأتي منها سيارة المسؤول خالية من الناس، بينما تجمع الأهالي في الجهة المقابلة، وجرى ترتيبهم بحيث يقف الأطفال الحفاة، والذين يرتدون الثياب الرثة في المؤخرة. أما أستاذ المدرسة فقد وضعت له طاولة مقابل التمثالين.

وبينما بدأ كل رجل يأخذ مكانه، خرج أحدهم من وسط الجموع وصاح قائلاً: افتحوا أعينكم جيداً، بعد قليل ستأتي سيارة من هذه الجهة، وعليكم عندما تقف السيارة وكما علمناكم، أن تصفقوا وبشدة ومن كل قلوبكم، وعندما يترجل المسؤول من السيارة سيقول لكم: كيف حالكم؟

عندها تجيبون بصوت واحد: شكراً. وعندما يقترب منكم يجب أن يضحك بؤبؤ أعينكم بصدق وتلمع وجناتكم، وعندما يبدأ بالسير، تتعقبونه بأنظاركم فقط وأنتم في مكانكم.

ثم سألهم: هل فهمتم؟ أجاب الجميع بصوت واحد: نعم فهمنا!!

وبدأنا التدريبات: جاءت سيارة من نفس الجهة المحددة وتوقفت، بدأ التصفيق، صاح أحدهم: هذا التصفيق غير ناجح، صفقوا بحماس أكبر.

عادت السيارة للخلف ثم تقدمت وتوقفت، بدأ التصفيق مرة أخرى، قال منظم الاحتفال: إذا كان هذا ما ستفعلونه، ستسودُّ وجوهنا، عليكم تكرار التدريب. كررنا التدريب خمسة عشر مرة، ويبدو في النهاية أن العملية نجحت، وبعدها أتى دور كلمة "شكراً". استعد الجميع ليصرخوا بصوت واحد "شكراً". وعندما ترجل الذي يمثل دور الشخصية المهمة من السيارة قال: المكان ضيق أعيدوا الأهالي إلى الخلف، فهتف الجميع بصوت واحد "شكراً". عندئذ جُنَّ جنون منظم الاحتفال وبدأ بالصراخ، كما غضب "قائد الدرك"، لكن الأهالي لم يفهموا سبباً لهذا الغضب. -ألم يقولوا شكراً في الوقت المحدد وبصوت مرتفع. اقترب منظم تدريب الاحتفال من الجموع وأمسك أحد الرجال من ياقة قميصه وقال له بحقد وتأنيب: ما هذه القذارة، رائحتك كريهة أشبه برائحة جيف الحيوانات،. ثم قلب ياقة قميصه وأصابه الذهول من هول ما رأى: ما هذه الحشرات؟ هل هي قمل. تسمَّر القروي في مكانه، وهو ينظر إلى عيني الأستاذ، الذي لم يعلمه جواب هذا السؤال. ثم سأله مرة أخرى: ما هذا؟ وعندما وجد القروي أن لا مساعدة تُرتجى من الأستاذ قال في نفسه: بالتأكيد أن الأستاذ علمني ولكنني نسيت. فالشيء الذي بقي في ذاكرتي سأقوله: بفضلكم يا سيدي. أدامكم ا لله.

أمسكه رجال الدرك وقيدوه وقادوه إلى المخفر.

استمر الحفل، وألقيت كلمات ترحيبية تجريبية، أنشد التلاميذ، وانتهى التدريب عند هذا الحد.

ثم بدأت الجموع المنهكة بانتظار قدوم الشخصية المهمة (المسؤول الكبير) ومضت سنون ونحن ما زلنا بانتظار مجيء هذا المسؤول.

والآن لنعد إلى التمثالين، فقد أصبحا محطاً للعصافير التي تملؤها بالأوساخ. ومع مرور الزمن استخدموا بعض العمال من القرى المجاورة لتنظيفها وصيانتها، ووجهوا إنذاراً للمختار بسبب قذارة التمثالين.

عيَّن المختار ولداً صغيراً في الصيف مهمته طرد العصافير التي تحط على التمثالين. كما تعهد بتنظيفهما ودهنهما في أيام الأعياد، وفي الشتاء يغمر الثلج التمثالين. عندها أصدر رئيس الدرك أمراً للأهالي بتنظيف التمثالين ودهنهما، ورفع الثلج عنهما. ولأنكم أتيتم إلينا، فالقرويون كانوا يزيلون الثلج عن التمثالين. ولكنهم علموا متأخرين بحضوركم، وهكذا تأخروا في الكشف عنهما.

- ٣ -

قل له خمس غايمات*

المقهى شديد الازدحام، المواطن خضر يتخذ مكانه في إحدى زواياه.

- أنت تعرف لعبة الحظ المكونة من تسعة أرقام، وتعرف كيف تختارها أيضاً لتحقق الربح، وهذه الحياة كلعبة الحظ، نختار إحدى فرصها لنربح.

- أجابه شاب يجلس القرفصاء بجانبه: ماذا تقول يا خضر آغا؟

- أنا أقول حتى لو كان هناك تسع وتسعون فرصة للحظ، كلانا لا يمكنه أن يربح واحدة منها، حظنا معروف: تعيس ومنحوس.

- بدأ الشاب يسرد قصته:

منذ بضعة أيام نزلت مع إيَّاس الأعور إلى المدينة، وإيَّاس هذا كان يبيع العنب للخمارات ويقبض ثمنها قطعة نقدية واحدة من فئة الخمسين غايمي. وفي الطريق قلت له: ولك إيَّاس، أقرضني خمس غايمات وسأعيدها لك عندما نصل وأبيع الدجاجات.

يا آغا، ليس معي نقود، ولو كان معي لما بخلت عليك. لكني اعلم جيداً أنه يُخفي النقود في زناره.

وصلنا المدينة، ووضعنا الحمير في الخان، فقال إيَّاس:

- منذ أربعين سنة لم نر هذه البلدة ونتجول في أسواقها، وكيف لنا أن نزورها ولا نتناول وجبة من الفاصولياء الساخنة في المطعم، وماذا سيقول عنا

---

* غايمات: جمع غايمي، كلمة عامية تعبر عن وحدة النقد المستخدمة في بعض المناطق التركية.

أهل القرية عندما يسألوننا: هل أكلتم من طعام المدينة، وماذا يأكلون هناك؟
– منذ برهة قلت يا آغا أنك لا تملك النقود!
– ادفع أنت الآن، وسأحاسبك فيما بعد.
كان في جيبي ٤٨ قرشاً فقط، وبما أني اشتهيت الفاصولياء قلت:
– ولك إياس هل تكفي ٤٨ قرشاً؟
– طبعاً إنها تكفي وتزيد ويمكنك أن تطلب ما تريد من الأكل الفاخر وتشبع.

أحضرنا الخبز من الخرج الذي كان على ظهر الدابة ودخلنا المطعم، فاستقبلنا على الفور حاجب المطعم ورحب بنا أشد ترحيب وأجلسنا على الطاولة، وبحركة سريعة قام بتنظيفها وأحضر الخبز عليها، لكننا قلنا له: نحن لا نحب خبز المدينة، إنه يضرُّنا، فتحنا الصرّة وأخرجنا خبز الصاج. طبعاً لم يكن هذا السبب الحقيقي لرفضنا خبز المطعم، إنما قلة النقود هي السبب.

لكن حاجب المطعم قال: هذا لا يجوز، وممنوع إحضار الخبز من الخارج.

طبعاً إنك تعلم يا خضر أن إياس الأعور ملعون، فقد قال لصاحب المطعم/

– هل هذا مسرح، حتى يكون ممنوعاً إحضار أي شيء من الخارج؟

هل ترى كم هو ذكي إيَّاس الأعور. لكن صاحب المطعم نظر إلينا بازدراء واستهزاء.

عندها قال إيَّاس: طيِّب اترك الخبز هنا وأحضر لنا الفاصولياء.

أحضر صاحب المطعم الفاصولياء، أما أنا فكانت يدي تندسُّ في زناري، بينما الثانية تعدُّ النقود خوفاً من ضياعها، أو عدم كفايتها. كما كنت حريصاً عليها ومسروراً لسماع رنينها ليطمئن قلبي على سلامتها.

بدأنا بالتهام الطعام يا خضر آغا! لكن حبات الفاصولياء كانت تقف في

حلقي لا أستطيع بلعها، والعرق الغزير يتصبب من أنحاء جسمي، مــاذا أقـول عندما طلب إيَّاس الأعور صحناً آخر. وأنا في هذه الحال؟

– الله يخرب بيتك يا إيَّاس، هل ستبهدلنا في المدينة ونصبح أضحوكة في المطعم، والفضوليون من حولنا يحملقون بأعينهم وينتظرون العراك.

كان إيّاس مطمئناً لوجود خمسين غايمي معه، وكان يقهقه بـأعلى صوتـه، نظر إليَّ وقال: كن مطمئناً وهدئ روعك، اطلب صحناً آخر من الفاصولياء، وابقى هنا، وأنا سأبيع لك الدجاجات وأعود إليك.

– هل تعتقد أن هذا مقهى، حتى يتركوني جالساً فيه، لحين عودتك؟

– أجاب إيَّاس الأعور: كُلْ ما شئت، وباستطاعتك النوم حتى أعود!

عدْت أتصبب عرقاً، بينما إيَّاس يقهقه بأعلى صوتـه، لقـد التهـم صحنـين من الفاصولياء، ثم تناول عدة قطع من الحلوى، وأنا أنظر إليــه وأبلـع ريقـي، لقد أصيب بالتخمة مــن كـثرة مـا تنـاول مـن الطعـام، وبـدأ يتمطمـط علـى الكرسي، ويتجشأ من ٣-٤ مرات، ثم تناول نكاشة أسنان ليزيل قطع اللحم وينفثها من فمه لتستقر على وجهي وثيابي. بعدهــا مـدَّ يـده إلى زنـاره وبـدأ يصرخ ويعوي مثل الكلب، قلت له: ولك إيَّاس لماذا تعوي هكذا؟

– لا شيء، لا شيء غير، لقد ضاع الولد.

أخذ إياس يشد شعر رأسه ويضرب على ركبتيـه، ويولـول نادبـاً... لقـد ضاعت، لقد ضاعت. ولك يا إيـاس هـل تسـمَّمت، هـل أصـابك مغـص في بطنك من كثرة ما أكلت؟ ماذا أصابك؟

– لقد انلطشت يا آغا، انلطشت، وبدأ يبكي

– اعتقدت لحظتها أن الشيطان لطشه، و لم أكن أعلم أن الخمسين غـايمي هي التي انلطشت منه.

اجتمع الناس لشدة الصراخ، وأسـرع النـادل إليَّ وأمسـكني مـن يـافتي

وقال بصوت غاضب: هذه اللعبة العبها مع أبيك. الكثيرون من أمثالك يمرُّون من هنا ونعرف ألاعيبهم وحيلهم.

- قلت كم الحساب

- سبعة عشر قرشاً.

- كنت أخبئ في جيب قميصي غايماتين ونصف وبدون أن يلاحظني إيَّاس أخرجت النقود ودفعت الحساب.

بعد خروجنا من المطعم قلت له: الله يجازيك يا إيَّاس

- قال إيَّاس: ليتني أعطيتك النقود عندما طلبتها مني.

أخذنا الخرجين والدجاجات وتوجهنا إلى السوق. وفجأة دخل إيَّاس بين رجلين وتشبَّث برقبة أحدهما، ثم أمسك كل منهما بعنق الآخر

- قلت: لقد جُن جنون إيَّاس، هل أصيب بالكلَب؟

جاء الجنود واقتادونا جميعاً للمخفر.

- وجَّه قائد الدرك كلامه إلى إيَّاس الأعور: ماذا تريد من هذا الشخص لتعتدي عليه؟

- لقد رأيت الخمسين غايمي التي أملكها معه.

- وما أدراك: انها لك؟

- إنها واضحة خمسين غايمي أعطاني إياها صاحب الخمارة

لقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها إيَّاس الخمسين غايمي قطعة واحدة ويعتقد أنه لا يوجد في العالم كله قطعة سواها. لذلك أعتقد أنها له عندما رآها في يد الرجل وهجم عليه ليأخذها منه.

لقد ادَّعى هذا الشخص على إياس بسبب الضرب. وأرسل إلينا صديقاً له يعرض المصالحة ولكن مقابل خمس غايمات. كيف لنا أن نصالح ولا نملك مثل هذا المبلغ؟

– ولك إيَّاس، ألا تعتقد أنه لا يوجد سوى خمسين غايمة في العالم كله؟

– لا يا آغا، أعرف أنـه يوجـد الكثـير منهـا، ولكـني اعتقـدت أن ذلـك الرجل لا يعرف ذلك ولهذا السبب هجمت عليه.

أقفل السوق، ولكـن الدجاجـات ظلَّـت معنـا دون أن نبيعهـا، ذهبنـا إلى صـاحب أحـد المحـلات عسـاه يشـتري الدجاجـات. فقـال: اشـتري واحـدة بأربعين.

– هل يُعقل ذلك إن سعر الواحدة ٤٠ فهل يجوز ذلك؟

– لديك ست دجاجات سعر الواحدة أربعـين والمجمـوع يصبـح /٢٤٠/ احسبهم غايمتين. ولديكم ثلاث كيلوغرامات من الزيـت بـ ١٦٠ والمجمـوع ٤٨٠ احسبهم خمس غايمات. المهم أنه أعطانا خمس غايمات. فذهبنـا إلى محـل آخر فاشترينا زيت كاز وملح وحاجيات أخرى.

٣كغ بـ ١٥ تصبح ٤٥ احسبهم ٥٠

٢ م قماش بـ ١١٠ تصبح ٢٢٠ احسبهم غايمتين ونصف

٧ كغ زيت كاز بـ ٢٠ يصبح ١٤٠ احسبهم ١٥٠

اجمالي الحساب ٤ غايمات ونصف احسبهم خمسة

– ألا تهاودنا بالسعر قليلاً؟

– هل يمكن مهاودتك كل مرة، أساساً ماذا اشتريتم حتـى أهـاودكم، لم تشتروا إلا القليل اليسير، سأحضر لكم ٢٥ أعطني ٤٧٥

– وأنت ماذا تقول يا خضر، حقاً لو أن هناك ٩٩ فرصة حظ فلن نحظى بأي منها.

- ٤ -

الدجاجات المنفتحات

عندما انتهى ضابط الأركان من كلامه، اعترض الآغا الأقرع قائلاً:

الله أعطاكم وأنتم الرابحون، وهذا ليس بيد الإنسان بل تدبير من الله الذي أمر بالربح فربحت، وإذا عاكسك القدر، عندها لو أمسكت العصفور من فمه، فلن تسير الأمور على ما يرام. وليثبت كلامه، بدأ الآغا الأقرع يسرد قصته.

منذ زمن بعيد وفي إحدى القرى "قرى الآغا" نشأ ولد ذكي (حسب قول الآغا) وبعد إنهاء دراسته في المدرسة قال الأستاذ لوالد التلميذ: لا تضيع مستقبل هذا الولد إنه ذكي، أرسله إلى المدينة ليكمل دراسته.

فحمل والد التلميذ مشقة الجوع والحرمان وأرسل ابنه إلى المدينة للدراسة، حيث أتمّها الولد بنجاح، وقال أساتذته لوالده: أيها الحوذي لا تضيّع مستقبل هذا الولد أرسله إلى العاصمة للدراسة.

وتابع الآغا الأقرع كلامه:

لقد باع الحوذي كرمه ودوابه، والثور الصغير وأرسل ابنه أحمد إلى العاصمة لإكمال دراسته. وفي إحدى المرات سمعنا أن الحكومة أرسلت أحمد الحوذي إلى أمريكا للدراسة. كنا نفتخر عندما نذهب من القرية إلى المدينة والكثيرون في القرية لا يعرفون أين تقع المدينة، فكيف سيعرفون أين تقع أمريكا، حتى في المدينة، القلة منهم يعرفون، إنهم الذوات وكبار الموظفين.

أرسل أحمد إلى والده من أمريكا عدة رسائل، كان يقرؤها أهالي القرية، وقد حفظها الجميع عن ظهر قلوبهم لكثرة ما ترددت قراءاتها.

وفي أحد الأيام وصل خبر أن أحمد الحوذي سيعود للوطن، وهكذا عاد أحمد ووصل البلدة.

هذا أمسك طبلاً، والآخر مزماراً واندفع جميع سكان القرية إلى مشارفها لاستقبال أحمد الذي عاد بطلاً كبيراً.

عندما يضع الإنسان ربطة عنق يصبح شيئاً آخر.

لم نستطع أن نخاطبه، ناديناه: ولك يا أحمد الحوذي.يا سيد أحمد، ماذا فعلت هناك؟

– أخبرنا ماذا رأيت وماذا سمعت هناك.في أمريكا؟

– لقد درست الزراعة.

– أخبرنا ماذا يوجد، وما الأخبار هناك؟.

– ما الفائدة من ذلك، ماذا تريد من الذين هناك؟

اكتشفت أنه لا يفهم لهجتي ولذلك كان يسكتني.

وبدأ هو يسألنا: كم مرة تلد الأغنام عندكم في السنة؟

قلت له: يا بني يا أحمد، هذه غنمات لن تلد ٩ مرات في السنة. وإذا لم تكن عقيمة، تلد مرة في السنة.

السيد أحمد: يصرخ بهم: تفوه!. في أمريكا، الغنمة التي لا تلد خمس مرات في السنة، تعدم بالرصاص.

– ماذا؟ هل رأيت ذلك!!

– الأبقار كم كيلو غراما من الحليب تنتج البقرة في اليوم عندكم؟

– لا أعرف كم كيلو. ولكن عندما تلد البقرة. هل تعرف الوعاء الذي نحلب فيه. (بالطبع لن تعرف، إنك نسيته بالتأكيد) المهم أنها تحلب نصف هذا الوعاء تقريباً.

– يصرخ ثانية: تفوه!. في أمريكا، البقرة التي لا تحلب ٣٠٠ كيلو في

اليوم يُسلخ جلدها.

– العياذ با لله!.لقد جمدت في مكاني.

– كم مرة تبيض دجاجاتكم في اليوم؟

– يا سيد أحمد هل تسخر مني؟ كم بيضة تبيض الدجاجة في اليوم؟ طبعاً بيضة واحدة في اليوم، وفي الشتاء تتوقف عن البيض.

– السيد أحمد: تفوه!. في أمريكا، الدجاجة الـتي لا تبيـض خمـس مـرات يومياً ، تُشنق.

– يا سيد احمد: هل تبيض الديوك أيضاً هناك؟

– ماذا تقول؟ طبعاً هناك، الديك الذي لا يبيض فإنهم يخوزقونه

– صرخت: ماذا؟ قلت في نفسي (يا حرام، أحمد الحوذي لقـد جـن مـن كثرة الدراسة). يا حبيبي يا سيد أحمد هل ذلك معقول.

– طبعاً معقول.

– كيف يجوز ذلك. إن عقلي لا يستوعب الأمر. اشرح لي من فضلك.

بدأ أحمد يشرح قائلاً: في النهار تبيض الدجاجات مرة واحـدة وفي المسـاء تدخل إلى القن، ولكن القن الذي هناك أكبر من مجلس الحكومة هنـا وأفضـل منه.ولو أن المنازل هنا كانت هناك، لما قبلت الكلاب بدخولها. يحـل الظـلام، وتدخل الدجاجات إلى القن. فإنها تنام في وقت يكفي لتدخين سيكارة فقط، ثم تشعل الأنوار، وأي أنوار، عندما تنظر إليها فإنك تصاب بالعمى.

فعندما ترى الدجاجات النور فإنها تعتقد أن الصباح قد أتى. فتخرج مـن القن، ثم يطعمونها بعض الذرة، فعندما يرى الدجاج ذلـك فإنـه يبيـض. ثـم يخففوا شدة الإنارة تدريجياً ثم تطفأ الأنوار. فتعتقد الدجاجات أنه الليـل مـرة أخرى، فتدخل القن ثم تشعل الأنوار القويـة. وحتـى الصبـاح تتكـرر عمليـة الخداع هذه خمس مـرات يوميـاً ولذلـك تبيـض الدجاجـات خمـس مـرات في

اليوم.

- صرخ الناس حوله بدهشة: يا إلهي ما هذا.

تابع الآغا الأقرع كلامه: قلت لنفسي _ولك يا آغا الأقرع إن الزنادقة يعملون ذلك؟ فماذا عملت يا آغا) طبعاً لم أقص الحكاية على أحد.

في ذلك اليوم راقبت الدجاجات، فالتي ستبيض باضت. في المساء، ولما دخلت جميعها إلى القن، لففت سيكارة ودخنتها وبعدها أشعلت خمس لوكسات كنت اشتريتها من السوق، فأنير المكان كضوء النهار. وفتحت باب القن ولكن الدجاجات لم تخرج، فأخرجتهم عنوة وقدمت لهم كمشة ذرة. فترنحت الدجاجات كالسكارى، ولم ينقروا إلا القليل القليل. وانتظرت ولكن الدجاجات لم تبيض. بدأت أصيح كالديك وأضرب جبيني، أيضاً لا شيء. انتظرت حتى الصباح، في مساء اليوم الثاني كررت العمل نفسه مع الدجاجات ولكن لا شيء. كان الناس يستمعون لي باستغراب فسألوني: ثم ماذا عملت يا آغا الأقرع.

ماذا سأفعل، الدجاجات لم تنطل عليها الحيلة.

سابقاً: كانت الدجاجات تبيض كل يوم في الصباح. ومنذ ذلك الحين انقطع البيض. فاستنتجت أنه في أمريكا: الناس منفتحون والحيوانات أغبياء. ولكن في قريتنا الحيوانات منفتحة والناس أغبياء.

فلو وضعت الدجاجات في طابور الإعدام بالرصاص، أو أجلستهم على الخوازيق، فلن تنطلي عليهم الحيلة.

- ٥ -

الممـرّض

جلس ضابط الأركان في مقهـى القريـة، وقـد لبـس حـذاءً كبـيراً، وتحلّق الناس حوله وبدأ حديثه قائلاً:

- في إحدى السنوات، طال الشتاء أكثر من المعتاد، مما أثّر على القطيع حيث مات معظمه من البرد والجوع. وأصيبت الكروم بالتلف، بسبب هطول حبات البرَد، وفاضت الجداول وجرفت المزروعات في طريقها. فكرت حينها ماذا سأفعل حيال ذلك. وضعت يـدي على خـدي، وقلـت في نفسـي: لقـد وقعت الفأس على الرأس، لا تجعـل قلبـك رقيقـاً. لقـد هُزمنـا جميعـاً، بسـبب الملاريا، والممرضون الذين كانوا يوزعون الأدوية، مثالهم كأبي النـواس الـذي كان يحاول تخثير البحيرة ببضع ملاعق مـن اللـبن، وأنـا أيضـاً لم أجد طريقـة لكسب المال، سوى أن أصبح ممرضاً وفي قريتنـا إذا مـا جمعـت النـاس وقلـت لهم: ولك يا ناس أنـا صرت ممرضـاً، لـن يصدقـك أحـد. ذهبـت إلى البلـدة واشتريت ربطة عنـق وتوجهـت إلى أحـد المسـؤولين عـن الشـؤون الصحيـة. انحنيت أمامه وقلت: ياسيدي، علمني كيف أعطي الحُقَن.

أعطيته نقوداً، وعلمني كيفية الحقـن، وضعـت المحقنـة في حقيبـتي، وربطـة العنق في رقبتي، وذهبت إلى القرى. استأجرت مناديـاً في القـرى الـتي دخلتهـا لينـادي: مـن يحـترق ويرتجـف مـن الملاريـا، المصـاب بالرومـاتيزم، والمصـاب بالسحر، النساء العاقرات، الذين لا ينجبون أطفالاً، وجميـع المصـابين بـداء لا دواء له، لا تقولوا لم نسمع، لقد أتى ممـرض للقريـة. يـا إلهـي، أسـرع النـاس بسرعة من كل حدب وصوب حتى اجتمعوا و لم أستطيع أن أتبين بدايتهم من

نهايتهم.

قلت لهم: ياناس انتظروا، وادخلوا حسب الدور.

أتى آغا القرية أولاً، وأخذني إلى منزله، وكان الآغا في الستينات من عمره وكانت زوجته الرابعة في العشرينات من عمرها كانت مصابة بداء، لم يستطع شفاؤها منه.

سألت المرأة الشابة: أين وجعكِ يا أختي؟

ولكن المرأة التزمت الصمت بجانب زوجها. غضب الآغا مني وقال:

ألست طبيباً، لماذا تسألها، يجب أن تعرف دون سؤال!

قلت للآغا: (لكن يجب أن نكشف على المريضة ونعاينها أولاً)

- الرجاء يا سيدي أحضر لي كأساً من الماء من فضلك.

وفي فترة غياب الآغا سألت المريضة: يا أختي أين تشعرين بالألم؟

أجابتني: دخيلك يا دكتور، أنا أتألم هنا، وهنا، وهناك وخاصة هناك، آخ هناك.

وفي المكان الذي أشارت إليه عاينتها بشكل سريع وسألتها:

- في أي وقت تتألمين يا أختي؟

- في الليل، في الليل، الألم شديد في الليل،لا يغمض لي جفن حتى الصباح، أتقلب في الفراش وأشعر أني أكاد أحترق.

دخل الآغا وبيده كأس الماء. قلت له.

- يا سيدي الآغا، أختي تتألم هنا وهنا وهناك أليس كذلك؟

- يا إلهي! كيف عرفت ذلك أيها الممرض؟

- طبعاً. طبعاً أعرف، إنها أيضاً تتألم هنا وهنا.

- يا إلهي، روحي فداك أيها الممرض، كيف عرفت ذلك؟

- طبعاً طبعاً أعرف، إنها تتقلب في الفراش حتى الصباح كما تشعر أنها

تكاد تحترق، أليس كذلك؟

عندها صرخ الآغا العجوز مندهشاً.

- ماذا؟ لقد أصبتَ أيها الممرض، لقد أصبت.

أما أنا فكنت قد ملأت المحقنة بمياه النهر الشافية وبدأت أحقن المريضة هنا وهنا وهناك في مكان الألم تماماً. وقبضت خمس (غايمات).

- وهنا قطع ضابط الأركان قصته قائلاً: هل من الضروري أن تنتظر دائماً حتى يسرقنا أهل المدن؟ قال ذلك ثم تابع قصته:

- ولكن المحاقن لم تؤثر في الأضراس المسوسة.

وصلت إلى احدى القرى واستأجرت منادياً أيضاً لينادي: من لديه ضرساً مسوساً ومن يتألم بسبب أضراسه، فإني أخبركم: لقد أتى ممرض إلى القرية وهو يقلع الأضراس مجاناً.

طبعاً الذين سمعوا كلمة مجاناً بدأوا يتراكضون، ولأن القلع مجاني راحوا يقلعون حتى أضراسهم السليمة. كانوا يقولون أن أضراسهم الآن لا تؤلمهم ولكن مع مرور الزمن فإنها قد تتسوَّس وتسبب لهم الألم، وبما أن القلع مجاناً الآن، فلماذا يفوتون هذه الفرصة الذهبية.

وعندما كنت أقول لهم، حرام عليكم، هذا الضرس سليم

كانو يقولون - لا دخيلك، سوف يصاب بالتسوس في المستقبل، وعندها أين سنجدك؟

طبعاً كان هدفي من قلع الأضراس مجاناً، هو التعلم وزيادة الخبرة، عندها أستطيع أن أقبض النقود مقابل عملي.

في البداية كنت أطلي لثة المريض بكحول ملون، ثم أتشبث بالضرس وأشده حتى ينقلع، وعندما كان المريض يطلب مني ضرسه المقلوع كنت أقول له: أنا بحاجة للضرس، سأرسله إلى الوزارة.

– هل يعقل أن أعطيهم الضرس، وهو الدليل الوحيد أنني طبيب مزيف.

في إحدى المرات، كنت أقلع ضرساً سليماً لأحد الأهالي، فأنخلع فكه وبالكاد أعدت الفك لمكانه، وفي نفس الوقت كان القروي يقول:

– يا إلهي كم يدك رشيقة يا دكتور! إنها خفيفة لدرجة أننا لا نعرف إذا كان الضرس قد قُلع أو لا يزال في مكانه.

وهكذا كان ضابط الأركان ينتقل من قرية إلى أخرى، وفي إحدى المرات دعي إلى إحدى القرى، فأخذوه إلى بيت أغنى رجل فيها. وهذا الرجل مصاباً بداء غريب، حيث أن وزنه كان يزداد يومياً على مدى سنتين.حتى الحذاء الذي يشتريه يوم الجمعة يصبح ضيقاً يوم السبت.

فلم يعد بوسعه أخيراً الوقوف على قدميه. عرضوا حالته على عدة أطباء وأدخلوه عدة مستشفيات، ولكن حالته لم تتبدل. فكان يتناول الأدوية لكن دون جدوى، حيث كان وزنه يزداد باستمرار.

في النهاية عرضوه على ضابط الأركان، وبعد أن فحصه جيداً وعاينه قال له: –يا سيد: إذا أردتَ أن أقول لك الحقيقة، فأنت لن تعيش أكثر من ١٥ يوماً، ولا ينفعك شيء، وأن أي شيء تفعله لإنقاذ نفسك سيكون عديم الفائدة، حتى لو أتى وزير الصحة بنفسه وأصدر أمراً لكي تعيش سيكون بدون فائدة.

عندئذ بدأ الرجل السمين بالبكاء وانقطع عن الطعام والشراب، وفي اليوم الخامس عشر تمدد في فراشه ودَعا إمام الجامع ليقف فوق رأسه وودع أبناءه وأغمض عينيه منتظراً عزرائيل، ولكن عزرائيل لم يأتِ في ذلك اليوم ولا في اليوم الثاني ولا الثالث، فقال الرجل في نفسه (أظن أن عزرائيل مشغول ولذلك فقد أجّل قدومه إلى يوم آخر) وعندما لم يأتِ عزرائيل، ذهب الرجل إلى الممرض متكئاً على عصاه، ولكنه أضحى كالشبح لم يبق منه سوى العظم

والجلد، عندها قال له ضابط الأركان: انظر إلى حالتك، منذ سنين والأطباء لم يجدوا لك دواءً شافياً، وأنا خلال خمسة عشر يوماً جعلتك كالخيط الرفيع، فعلاً لقد كانت خطة رائعة، ولكن إذا سمنت ثانية، لن يكون لك دواء أبداً.

قال له أحد القرويين المجتمعين حول ضابط الأركان في المقهى:

– يا سيد، لقد أعطيتني فكرة جميلة، ما رأيك لو أخذت معي محقنة وأخرُجُ إلى القرى.

أجابه الضابط: – يا ولدي، لقد تأخرت كثيراً، فأنا لم أعطِ هذه الفكرة لك لقد أعطيتها للحكومة. سابقاً كان الأطباء يعطون الأسبرين ضد داء الافرنجي وضد الملاريا، ولكن تغص القرى اليوم بحاملي المحاقن، ومن يدفع لهم فإنهم يحقنوه بماء النهر الشافية، كل شيء جميل في أوانه.

- ٦ -

سروال المعلمة الزهري

كان الشاب القروي يقرأ الجريدة بصمت، ويشرح ما قرأه، لمن حوله في المقهى وذلك حسب فهمه. لم نستطيع الخروج لثلاثة أيام بسبب العاصفة الثلجية القوية، كنا نقضي أوقاتنا بالتحدث مع القرويين في المقهى، كان من يقرأ الجريدة غريب الهيئة، سألت العجوز الجالس بجانبي: من هو ذلك الشاب؟

قال لي: إنه يدعى "ويلي الزنديق"، وهذا اللقب اكتسبه بعد أن أنهى خدمته العسكرية، في السابق كان ولداً جيداً، ولا أعرف كيف تغير هكذا. لسانه مخادع يجعلك تصدق كل كلمة يقولها.

بدأت أتحدث مع ويلي الزنديق: -لماذا لا تقرأ الجريدة مباشرة للناس، دون شرحها لهم؟

ولكن جوابه أدهشني: - يوجد نوعان من الجرائد، أحدهما مخصص للأسياد الذين يضعون ربطة عنق مثلكم، والنوع الآخر لأمثالنا، أي للناس الذين ينتعلون الشاروخ، لأن من يصدر الجرائد للناس ذوي الشاروخ. هم أسياد مثلكم، يضعون ربطة عنق، فكأنهم يسخرون منا.

- لم أفهمك يا ويلي الزنديق.

لم ينزعج من هذا اللقب

قال لي: - يعني، مثل هؤلاء الصحفيين كمثل الرجل الغني الذي يريد أن يعرف أحوال الفقراء بدافع الفضول، ويزور أحياءهم مرة واحدة فقط يجب أن نقرأ النوع الأول من الجرائد ولكننا لا نفهمها، وكأنها مكتوبة بلغة أجنبية

ثم بدأ يقرأ: - ٣١(أ.أ).. مثلاً ما هذه؟.. ٣٠(أ-ش).. أيضاً ما هذه؟ انظر إلى هذه الجملة: نصفها كلمات أجنبية كيف سأفهمها؟

قال العجوز الذي كان يستمع: حتى الذين يكتبون هذه الكلمات لا يفهمونها، لذلك لا تهتم يا زنديق. قال الزنديق ويلي: أنا تعلمت القراءة في الجيش، ولما كنت طفلاً لم تكن هذه المدرسة موجودة. وعندما أتيت من الجيش، قلت سنبني مدرسة وأجبرتهم على ذلك، وهكذا عملنا جميعاً وبنينا هذه المدرسة. وأرسلنا كتاباً إلى الوالي نقول فيه: أننا بنينا المدرسة، فأرسل لنا استاذاً. انتظرنا ٣ سنوات ولم يحضر أي استاذ، استأجرنا أستاذاً وحشرنا الطلاب في المدرسة، ولكن المختار انزعج، لأن هذا العمل من اختصاصه، وكان من الواجب عليه أن يقوم هو بهذا العمل، ولذلك غار مني عندما قمت بذلك، وبالنتيجة أخبر الشرطة عني ظناً منه أنني طامع بالمخترة، وهكذا داهم الدرك المدرسة وطردوا الطلاب واعتقلوني مع الأستاذ وثلاثة آخرين.

أخذونا إلى البلدة، وبقينا شهراً في السجن بدون أي تحقيق أو سؤال.

وخلال هذه الفترة، حققوا في القرية، وأخيراً أتى دورنا في التحقيق.

- هل تريدون أن تُقيموا دولة داخل الدولة؟

لم يفهم أصدقاؤنا شيئاً من الأسئلة، أما أنا والاستاذ فكنا نفهم تقريباً

أجبناه -وهل ذلك معقول، حاشى.

-إذاً لماذا تقوموا بأعمال هي أكبر منكم؟

والتفت المحقق إلى أحد أصدقائنا وقال:

-افتتاح المدرسة وتسييرها، من اختصاص مَن؟

لم يستطع صديقنا الإجابة من شدة ارتباكه

- التفت المحقق إلى الآخر: أجب أنت، من المختص ببناء المدارس؟ عندئذ رمقنا صديقنا بطرف عينه منتظراً مساعدة منا، ولكنه اكتشف أن لا مساعدة

مرجوة منا، فصرخ قائلاً: إنها وظيفة الشعب.

أعتقد أنهم سيقولون له: عفارم. كما في الجيش

ولكن المحقق اغتاظ ووجَّه السؤال إلى الآخر:

- وظيفة من؟

- أنت قُل. وظيفة من؟

- وظيفة القرويين.

- أنا أقول لك: وظيفة من؟ قل لي وظيفة من؟

- وظيفة الأهالي.

حيال هذه الشدة في الأسئلة، ارتبك صديقنا، ولأنه لن تخطر بباله إلا هذه الكلمات: القرويين، الناس، الأهالي، الشعب قال في النهاية:

- إنها ليست وظيفة أحد.

- ماذا؟ ليست وظيفة أحد

- طبعاً، إذ لو كان هناك أحد مسؤول عن ذلك، لبنيت المدرسة منذ زمن طويل.حتى اليوم لا يوجد في القرية مدرسة.

- لا.. حقاً إنك فهيم.

والتفت نحوي: -أنت أخبرني يا رئيسهم، وظيفة من؟

وفي الحقيقة أنا أيضاً كنت مرتبكاً، ولكني فهمت حينها أن ذلك ليس من وظيفتنا، فهمت ذلك من تقاسيم وجه المحقق. فأجبته:

- إنها ليست وظيفتنا.

.بما أن الأمر هكذا، إذاً ما شأنك بالمدرسة؟

أجبته: -انها حماقة يا سيدي.

قال لي: - إن بناء المدارس هي من واجبات الدولة.

اعتقدنا أنه يريد الإيقاع بنا، ولذلك قلنا جميعاً:

– حاشى.. حاشى ما هذا الكلام؟ استغفر الله، هل يعقل أن نترك الدولة تقوم بهذا العمل ونحن موجودون

قاطعنا المحقق: انظر إلى هؤلاء، انظر. أنا أقول أنها واجبات الدولة.

صرخنا بصوت واحد-لا نقبل.

عندها أخذونا وألقوا بنا في السجن ثانية. بعدها علمنا أن الحكومة تضع برنامجاً خاصاً للتدريس في المدارس، وتمنع مخالفة هذا البرنامج منعاً باتاً. وبعد فترة قصيرة أطلقوا سراح الجميع وبقيت وحدي وجرى ماجرى على رأسي.

وبعد خروجي من السجن لم أتدخل في أي أمر لا يخصني.

بعد عام أتى المهندسون إلى القرية، وقرروا هدم المدرسة.

سألناهم: لماذا يجب هدم المدرسة؟

-لأنها خطرة وقد تنهار فوق الطلاب، إنها مبنية دون مخطط وبدون أصول.

نُفِّذَ الأمر وهدمنا المدرسة. وعند ذلك اعتبرتني القرية عدواً لها. وأخذ المختار يحرض الأهالي وبدأوا يلاحقونني واتهموني بأن كل ما حصل كان بسببي وأرادوا.قتلي.

بقيت مختبئاً في البلدة لمدة ستة أشهر وبعدها رجعت إلى القرية.

قبل ثلاث سنوات، وافقت الدولة على بناء مدرسة في قريتنا وقتها كانت سنوات قحط وجفاف، والأهالي لا يملكون المال. وجميع سكان القرية يعلمون أن الحكومة هي التي تبني المدارس، فمن واجبها إذاً، بناء مدرسة في قريتنا. ولكن لم نستطع أن نشرح ذلك للمسؤولين.

إلا أن المسؤولين قالوا: لا يجوز ذلك، صحيح أن بناء المدارس في المدن من اختصاص الدولة، أما في القرى فإن بناءها من اختصاص القرويين وهناك قانون ينص على ذلك.

فقلت لهم: -إذاً أعطونا الأموال اللازمة.

أجابوا: -لا نستطيع إعطاءكم الأموال.

المهم أنهم أعطونا مخططاً فقط، وتمّ بناء المدرسة حسب هذا المخطط. وفي السنة التالية أرسلوا لنا فتاة عمرها ١٨ عاماً على أساس أنها معلمة. طبعاً نحن لم نشاهد فتاة كهذه في قريتنا، فنساؤنا يرتدين الشراويل الطويلة، أما هي فترتدي تنورة قصيرة إلى ما فوق الركبة وعندما كانت تخرج، كان الشباب يتوجهون بالدعاء، حتى تهب الرياح وتطير تنورة المعلمة، ولكن مجيء هذه المعلمة كان من حسن حظنا. ففي السابق لم نستطع أن نجمع ٢٥ طالباً. ولكن عندما جاءت فقد تسابق الفتيان إلى المدرسة، حتى لم تعد تتسع للطلاب، والفتيان الذين نبتت شواربهم حديثاً تركوا أعمالهم وذهبوا إلى المدرسة، والكثيرون منهم صغّروا أعمرهم حتى يتمكنوا من دخول المدرسة. وصاروا يغارون من بعضهم من أجل المعلمة، إلا أن المعلمة لم تكن تعلم بشيء من هذا.

في أحد الأيام كان الفتيان يتحدثون، قال أحدهم: في البارحة رأيت سروال المعلمة، وهذا الكلام كان بمثابة طعنة بالنسبة إلى شاب كان يحب المعلمة، والذي أجاب بحدة: اخرس يا قليل الأدب، بوجودي، من أنت حتى ترى سروال المعلمة.

فأجابه: -والله لقد رأيته، وحجمه بحجم كفي هذا. ولونه زهري أيضاً.

شاب آخر قال: أوه.. أنت رأيت سروال واحد فقط ولكن أنا رأيت السروال الأبيض والأخضر والأحمر أيضاً.

ولكن العاشق الغيور ثارت حفيظته واحمرت عيناه وقال: أين رأيت السراويل يا قليل الأدب؟

أجاب الشاب الآخر، سأشرح لكم ولكن بشرط ألا تخبروا أحداً. في يوم

عطلة المدرسة، كانت المعلمة تغسل ملابسها وتنشرها في الحديقة، وعندما تهب، فإن القمصان والسراويل تنتفخ بفعل الهواء الذي يتغلغل داخلها، عندها استلقي مقابلها ثم أمر من تحتها فقال العاشق الغيور: من اليوم فصاعداً، من يقول أنـي رأيت سروال المعلمة سأقتله. أما الذي بدأ هذا الحديث فقد قال: وهل تعتقد أنك رأيت شيئاً يذكر، أنا رأيت السروال بصورة حية، أي أن المعلمة كانت ترتديه.

– ماذا!! كانت ترتديه؟

– طبعاً، أترون تلك الطريق، المؤدية من المدرسة إلى البيت. أستلقي مساء كل يوم بجانب تلك الطريق وفي البارحة هبت ريح وطارت التنورة ودخلت في رأس المعلمة، ورأيت ما رأيت!

عندها لم يستطع العاشق الغيور التحمل فأشهر سكيناً وقتل ذلك الشاب. تابع ويلي الزنديق كلامه:

والآن لا يزال الشاب القاتل في السجن والمحكمة تطالب بإعدامه ونحن ننتظر الاستئناف لعلّه سيعطي نتيجةً.

سألته: ماذا حل بالمعلمة؟

– هناك أربع طلاب اتفقوا وخطفوها واتجهوا بها نحو الجبل، وهي لم تستطع التحمل أكثر من ذلك فهربت من القرية.

خرجنا من المقهى في ساعة متأخرة، وبقيت أفكر بما قاله ويلي الزنديق حتى الصباح تقريباً.

ولما استسلمت للنوم حلمت بِ سروال المعلمة الزهري.

- ٧ -

- شهادة الميلاد -

ذهبنا مساءأحد الأيام إلى مقهى الفرية، كان المقهى مزدحماً، ولما دخلنا نهض الجميع عن مقاعدهم ورحبوا بنا جميعاً "أهلاً وسهلاً" ثم سلموا علينا فرداً فرداً، استمر الترحيب أكثر من عشر دقائق.

وتابع العجوز الذي يجلس في الزاوية، حديثه الذي قطعناه بدخولنا:

- وأخيراً تزوج مولود ورزق بطفل، ولكن هذا الطفل توفي قبل أن يكمل الأربعين يوماً، ثم رُزق بطفل آخر، ولكن القدر عاجله أيضاً.

قال مولود لزوجته: إذا توفي الطفل القادم، فإني سأطلقك.

يا لهذا القدر، جميع أولاده الذين رزق بهم ماتوا ولم يسلم أحداً منهم

- تزوج مولود من أربع نساء، ولكن الأطفال كانوا يولدون أمواتاً، وبعضهم الآخر يموت بالاجهاض، والبعض الآخر يموت قبل أن يكمل شهره الأول.

قال له موظف النفوس في البلدة إن أولادك يموتون لأنك لا تسجلهم في النفوس فور ولادتهم، ولذلك عليك هذه المرة تسجيل الطفل فور ولادته، ولكن هذه الطريقة لم تنفع فقد مات الولد أيضاً.

أصبح مولود على حافة الجنون، وصار أشبه ما يكون بثور ضخم مسن.

- هل يعقل أن أبقى في هذه الدنيا الفانية بدون أطفال، لقد امتلأ الرف بشهادات الميلاد.

أخيراً قرَّر مولود اللجوء إلى الشيخ لاستشارته، فأشار عليه بما يلي:

عليك أن تجد سبع فتيات يافعات، وتطلب منهن أن يغزلن لك خيطاً من

القطن عند الفجر.

نفذ مولود ما قاله الشيخ، وبعد أن حصل على الخيط لفه حول بطن زوجة مولود وقال له: - الطفل الذي سيأتي يجب أن تنذره لله، ويجب أن تسميه "صاطلمش"[١] (أي منذور)

وتابع العجوز حديثه:

- وبسرعة حصل مولود على طفل آخر من زوجته، ولكن الطفل لم يمت هذه المرة وبما أن مولود ملَّ من كثرة شهادات الميلاد لم يخرج واحدة لـ "صاطلمش" وقال: هناك الكثير من شهادات الميلاد فوق الرف، وعندما يكبر الطفل فإنه يختار ما يعجبه منها.

كان مولود كثير الأشغال: الأرض- الفلاحة- الأبقار، وهذه الأعمال تحتاج إلى رجال من أجل تسييرها إلا أن "صاطلمش" لا يزال صغيراً وعمره لا يتجاوز السنتين وإذا استأجر له خادمة، سيكون أجرها مرتفعاً.

أخذ مولود يفكر ويفكر حتى قرر أخيراً أن يزوّج "صاطلمش" فعثر له على امرأة في الثلاثينات، ماتزال تحتفظ بقوتها وعزمها، وامرأة كهذه ستنصرف إلى العمل فور مجيئها إلى بيت عريسها. ولكن والد العروس أصر أن يكون النكاح رسمياً عند الحكومة، لأنه إذا لم يكن رسمياً فإن ابنته تحرم من الميراث.

-رضي مولود بالنكاح الرسمي ولكن "صاطلمش" صغير، فذهبوا واستشاروا محامياً، قال المحامي: هذا أمر بسيط، سنزيد عمر "صاطلمش" ثم قدموا طلباً للحكومة.

ومن غرائب الصدف، أن الدرك حضروا إلى القرية لسؤال مولود عن

---

[١] صاطلمش تعني منذور أو مباع باللغة التركية

أبنائه وذلك من أجل الخدمة العسكرية.

قال الدركي: ولك مولود آغا، أخرج الأولاد، لديك خمسة أولاد، وجميعهم متخلفين عن الفحص الطبي الأول، وأربعة أولاد فارين من الخدمة، ومن يتستر عليهم تكون عقوبته أكبر من عقوبة الهارب.

- أجاب مولود: لو كان لدي هذا العدد من الأولاد، لفتحت لهم مكاناً للفحول، ثم أشار إلى "صاطلمش" هذا كل ما لدي من أولاد.

- أعطني شهادة ميلاده

مد يده إلى الرف وأتى بورقة لا على التعيين.

قال الدركي: - مولود آغا، هذا فار من العسكرية.

قال مولود: - وهل يستطيع هذا الطفل أن يحمل بارودة، أو يذهب إلى الحرب وهل يستطيع أن يجلي أو يغسل الثياب، أو هل يصلح أن يكون مربي أطفال.

وأخيراً ذهب مولود أيضاً وشاور المحامي.

ولكن المحامي هذه المرة قال: يجب أن ننقص عمر "صاطلمش" وقدموا طلباً آخر

طلبت المحكمة ٣ شهود، وكان فصل الحصاد، فقد وجد مولود ثلاثة شهود حيث تكفل مولود بطعامهم وشرابهم وأجرة الطريق إلى البلدة، إضافة لذلك، أعطى مولود كلاً منهم خمس غايمات، وأحضر الشهود إلى المحكمة.

مثُل الشاهد الأول أمام القاضي. وبعد التحقق من شخصيته سأله القاضي: كم يبلغ عمر "صاطلمش"؟

أجاب الشاهد: سيدي القاضي، جاء محصل الضرائب وقال لي: عليك ٨٠ غايمي للحكومة، وهناك ١٨٠ قديمة، ادفع ما عليك.

بالطبع نحن لم نستطع الدفع، فحجزوا على الخراف، في ذاك الوقت تماماً.

وُلِدَ "صاطلمش".

القاضي: طيب متى تم الحجز؟

- حدث ذلك عندما كبَّل الدرك "مميش ابن الحاج" وأخذوه، لأنه لم يدفع أجرة الطريق.

- طيب، هل تعرف تاريخ ذلك؟

- وهل معقول ألا أعرف؟ كان ذلك عندما طعن أحمد جاره الياس الأعور لأنه قطع الماء عن الأرض.

- طيب، قل لي زمن وقوع هذه الحادثة.

- وقتها كانت سنة جفاف، خرجنا لدعاء الرحمة. وفي تلك السنة وُلِدَ "صاطلمش".

-طيب فهمنا، أليس هناك تاريخ محدد، سنة أو شهر معين؟

- نعم في تلك السنة قطع والدي المرحوم -الله يحمل أموات الحاضرين- قطع حملاً من الحطب من الجبل فقبض عليه حراس الغابة.

المهم، فهم القاضي ما سيفهمه وصغّر عُمُر "صاطلمش" .

كان الحاضرون في المقهى يستمعون بتشوق لهذه القصة فتساءلوا:

وهل زوجوا "صاطلمش"؟

- يجب أن يزيدوا عمره من أجل أن يزوجوه، وهكذا أخذ مولود نفس الشهود توفيراً للمال، وجعل القضيتين في يوم واحد، ودخل نفس الشهود ولكن هذه المرة بعد الظهر من أجل أن يزيدوا عمر "صاطلمش".

سأل القاضي الشاهد الأول عن عمر صاطلمش، ولكن المحامي كان قد علّم الشهود ماذا يتكلمون.

وبدأ الشاهد يتلو ما حفظه.

- سيدي القاضي، قبل ٤٥ سنة تماماً وفي الخامس من نيسان وفي يوم

الجمعة، وفي الساعة الثالثة وثمان دقائق تماماً بعد منتصف الليل، كنت ماراً من أمام بيت مولود، سمعت صرخة "صاطلمش" الأولى.

قال القاضي: أنا لا أعرف تاريخ ميلاد ابني بهذه الدقة، فكيف تستطيع أن تعرف أنت بهذا التحديد الدقيق

أنا أعرف يا سيدي.

- ألست من شهد في الصباح من أجل تصغير عمر "صاطلمش".

- نعم أنا، ولكن تلك دعوى مستقلة عن هذه.

نظر القاضي إلى تاريخ ميلاد الشاهد وقال:

- يا من لا تخشى ا لله، ولا تستحي من العبد، أنت عمرك ٢٤ سنة فكيف تعرف ما حصل قبل ٤٥ سنة؟.

- سيدي القاضي، أنا أشهد من أجل ا لله، أنا لا أقول أني رأيت بعيني، جدي أخبر خالتي، وزوجها تكلم في المقهى ومن كان في المقهى أخبرني بذلك.

نادى القاضي على الشاهد الثاني.

وبدأ الشاهد يتلو ما حفظه، بطلاقة:

- سيدي القاضي، تماماً تماماً قبل ٤٥ سنة، كان الخامس من نيسان في يوم الجمعة، وبالضبط بعد منتصف الليل كانت الساعة..

نادى القاضي على الشاهد الثالث،

وقال هذا الأخير أيضاً:

- سيدي القاضي، تماماً قبل ٤٥ سنة، كان الخامس من نيسان...

وهنا طردهم القاضي جميعاً من المحكمة.

سأل المستمعون في المقهى: ألم يزوجوا "صاطلمش"؟

- وهل يعقل ألا نزوجه، كتبنا كتابه عند الشيخ، ومقابل ذلك أعطى

مولود لوالد العروس زوجاً من البقر

تعلمون أن كلام شاهدين يشنق رجلاً، وهكذا استمع الإمام للشاهدين وقال: ذنبه في عنق الشاهدين.

إذاً مولود زوّج "صاطلمش" بإمرأة قوية كالبغلة، تركض إلى الأرض وتركض إلى الطاحون، وتأتي بالحطب من الجبل، وفي نفس الوقت ترعى "صاطلمش"، تغسله وتضعه على حضنها وتنام.

- ٨ -

- رجل مهم يأتي إلى البلدة -

ذهبنا إلى البلدة، لكن ماالفرق بين البلدة والقرية؟، البلدة تحتوي الأبنية الحكومية والموظفين وقصر العدل، ولا فرق آخر. والبلدة أيضاً محرومة من الكهرباء والماء والبيوت الصالحة للسكن، ورغم كل ذلك الحرمان، هناك بناء حديث يؤمه الناس طلباً للثقافة أو الموسيقى أو غيرها.

ذهبتُ ثلاث مرات متتالية إلى ذلك المبنى فأجده مغلقاً، ويقف على بابه حارس يتولى حراسته، وحقيقة الأمر أن الرجل الواقف لم يكن حارساً إنما وُضع في ذلك المكان لأنه يمت بصلة قربى لأحد كبار الموظفين في البلدة. فهو يعمل في حقله خلال الصيف.

وأخيراً في أحد الأيام، التقيت (زوير آغا) الذي لم يكن حارساً فحسب، بل كان أيضاً المدير والموظف، بالإضافة إلى كونه حارساً، لكنه لم يُسعد برؤيتنا كثيراً، لأننا عطّلناه من عمله، اتجهنا إلى الجناح المخصص للمكتبة، كان الغبار يغطي كل شيء، لاحظت أن الزائر الذي أتى قبلي إلى المكتبة قد خطّ على الغبار العبارة التالية: (السطل هو غالاتاسراي والأسد هو فنار بخشا)[٢]، وهناك ثلاثة خزانات مليئة بالكتب في الصالة،

قلت لـ زوير آغا:

- ما هي الكتب الموجودة

- إنني لا أعرف القراءة والكتابة، ولذلك لا أعرف الكتب الموجودة.

---

[٢] غالاتاسراي، فنار بخشا، ناديان تركيان اكرة القدم يتنافسان على الصدارة.

لفت نظري وجود اكليل من الزهور في زاوية الصالة، ولكنها زهور اصطناعية، فقد كانت مصنوعة من قماش مشمّع.

لم أستطع الاطلاع على الكتب الموجودة، لأن زِوير آغا أضاع المفاتيح، إلا أن بلّور إحدى الخزانات كان مكسوراً، فأدخلت يدي فوقع فيها كتاب عيواظ، لم أستطع الجلوس لأن الغبار سيملأ ثيابي. وبعد خروجي من المبنى بدأت حكة مزعجة تغزو جسدي، وكانت الحكة مركزة بشكل أساسي في الساقين، نظرت لأتحرى السبب، فكانت البراغيث تقفز بين ساقي من مكان لآخر.

كانت هناك ساقية تجري بجوار البلدة، وهذه الساقية تجف في الصيف تقريباً حتى يصبح ماؤها بثخانة اصبع فقط، ترد إليها المواشي وتشرب من أعلاها أما في أسفل الساقية فقد كانت النساء تغسل الملابس وإلى الأسفل من ذلك، كان الماء يستعمل للشرب. قديماً، كنا نقطع الساقية برفقة رجل عجوز من أهالي القرية وكل منا يركب حماراً. وكان العجوز يحمل حفيده.

نزل العجوزعن الحمار، ليسقي حماره أولاً، ثم خلع حذاءه وغمره بمياه الساقية. ثم قدم حذاءه المليء بالماء إلى حفيده ليشرب، وبعدها شرب هو من الحذاء وقال: أوخ، لكَ الشكر يارب.

ثم توضأ وصلى.

المهم عندما خرجت من المبنى ذهبت إلى البيت واغتسلت بماء تلك الساقية. وبعد ذلك توجهت إلى المقهى، حيث كان القرويون غارقين في أحاديث هامة.

- شِفتْ وْلَك؟ ألم أقل لك أن ذاك الرجل لا خيرَ منه أبداً.

- العمى..! شو كلب..، إن خطيّة كل ما يحدث في رقبتكم، ولك يا آغاوات، ألم أقل لكم لا تنتخبوه رئيساً للبلدية؟

اقتربت من الخال مِميش:

– ماذا يحدث يا مِميش آغا؟

– لا تسأل يا سيد، ذلك الحقير الذي صار رئيساً للبلدية، يميت الأحياء ويُحي الموتى في سجلاته، فهناك شخص ميت منذ ثلاث سنوات، أبرز سجل للحكومة على أنه حي، وهو يقبض معاشه حتى الآن.

بقي رئيس البلدية محور الحديث حتى ساعة متأخرة.

في هذا الوقت اقتربت من مِميش آغا.

– يا صديقي رأيت اكليلاً يغطيه الغبار في المركز الثقافي ما هي قصته.

بدأ مِميش آغا بالشرح:

– سابقا،ً لم يكن له وجود ولكنهم اخترعوه فيما بعد. نحن نعلم من آبائنا وأجدادنا أن هناك عيدين فقط. عيد الفطر وعيد الأضحى، ولكنهم اليوم يقيمون في الشهر الواحد عدة أعياد، انظر إلى تلك الساحة أمام التمثال؟ في هذه الساحة يجتمع تلاميذ المدارس، والنَوَر الذين يعزفون الكمان. والجندرما أيضاً، ويصرخ القائمقام بأعلى صوته، بعدها يضعون الاكليل في عنق التمثال، وكما تعرف لا تنبت الزهور ولا الأعشاب في هذه القرية. وهكذا فإن الاكليل يأتي من المدينة، لأن الأعياد كثيرة والأموال لا تكفي لإحضار الزهور بكميات كبيرة.

فاقترحنا شراء إكليل دائم، أحضرناه من استانبول، ومنذ ذلك الحين ونحن نستخدم هذا الاكليل، وعندما يأتي المساء نعيده مرة أخرى. آه يا سيد، ليتنا استطعنا إفهامهم حتى لا تبقى هذه البلدة متخلفة، فقبل عشر سنوات أتى رجل مهم إلى محطة القطار، فقلنا لرئيس البلدية والقائمقام: -ولك يا آغوات، اذهبوا لاستقباله واستدعوه حتى يرى هذه البلدة، واذبحوا له خروفاً وأقيموا له وليمة وأطنبوا في مدحه... شرحنا لهم ذلك ولكن لم نستطع

اقناعهم، حضر الرجل المهم وذهب وبقيت البلدة كما هي.

وكانت أي بلدة يدخلها هذا الرجل تزدهر وكأن الخضر قد دخلها.

قبل ثلاث سنوات تقريباً، أبرق رجل مهم إلى البلدة بأنه سيزورها ماذا سنفعل إذاً؟ سنستقبله بالتأكيد، لكن رئيس البلدية وكما رأى في أنقرة اقترح أن نفرش الطريق بالسجاد، وهكذا جمعنا ما في البلدة من بُسط وسجاد وفرشنا الطريق.

وقال القائمقام: اقطعوا جميع السرو في المقابر، اتضح بعد ذلك أن وجود السرو عيب فوجوده في الاستقبال عادة قديمة.

أرسلنا فوراً سيارة إلى مديرية الزراعة في المحافظة لإحضار أشجار الأكاسيا، وزرعنا هذه الأشجار على جانبي الطريق.

هذه العادة نفسها كانت متبعة في أنقرة.

حمل ابن النوَري كمانه والطبل والزمر، وخرجنا جميعاً مع القائمقام، ورئيس البلدية إلى الطريق، بينما ظلت العيون معلقة بالطريق حتى منتصف الليل ولم يأتِ أحد. استلقينا حتى الصباح في الخندق المحاذي للطريق. أما الجندرما فكانوا ينتظرون على الهاتف. وعند آذان الفجر أخبرنا الجندرما أن الرجل المهم قد مرّ في البلدة ولم يتوقف، وبدأنا بسبّه بدءاً من حماته.

هل ترى يابني، لقد أضعنا فرصاً كثيرة.

لو أتى رجل مهم إلى هذه البلدة، لرأيت كيف ستزدهر.

لم يأت الرجل المهم، لابأس بذلك. ولكن المقبرة أصبحت "عارية" ويبست جميع أشجار الأكاسيا .

- ٩ -

- المقياس -

عندما أنهى آغا الأقرع كلامه، مر من أمام المقهى شيء لم أرَ مثله في حياتي، فهناك حماران يسيران الواحد تلو الآخر، وبينهما خشبتان طويلتان مربوطتان على جانبيهما، وبين هاتين الخشبتين قطعة قماش مصنوعة من شعر الماعز، وفوق القطعة، ينام شاب، كان ذلك أشبه ما يكون بنقالة لحمل المرضى، أما في الخلف فكان خيط من الدم يلاحق الحمارين.

علق ضابط أركان الحرب:

- لقد طعنوا واحداً آخر.

سأل آغا الأقرع: -ماذا فعل ذلك الشاب؟

رد الضابط: لا أعرف.

ثم رفع كتفيه وتابع: ماذا سيكون؟ يبدو أن وقت اللعب بالسكاكين قد بدأ. لعله شجار بسبب الميراث أو الأرض أو الماء.

ثم قال ضابط الأركان لنفسه: الموت حق والميراث حلال.

هنا تدخل الخال زنغي الذي لم يشارك في الحديث حتى هذه اللحظة:

- لا أحد منكم يعرف شيئاً.

وبدأ يتكلم عن قصة الشاب الجريح:

- تعرفون أحمد التخان.. هذا الشاب الجريح أخذ منه كيلة قمح بالدين، ثم ذهب إليه يوم الأحد ليؤدي دينه.

قال علي: - لك معي عشرين مجيدية وقد أحضرتها لك.

أحمد: ماذا تقول؟ إن دينك ليس عشرين مجيدية.

فردّ علي: كم يبلغ ديني إذاً؟

- ألا تعلم كم يبلغ؟

- أنا أسألك يا أحمد.

- دينك يبلغ أربع غايمات.

واشتد الجدال بينهما، أحدهما يقول أربع غايمات والآخر يقول عشرين مجيدية[3].

المهم، أنهما لم يتوصلا لاتفاق، وسحب أحمد سكينه وأغمدها بين كتفي علي، وها هما يتوجهان إلى البلدة لتقديم الشكوى إلى الشرطة.

- الحقُّ مع من؟

- لا أعلم، ولكن أحمد التخان مدعوم جداً.

- كما يقولون، هل يقع الذنب على القاتل أم على المقتول.

تابع الخال زنغي كلامه:

- والآن، تستمر المحاكمات سنوات طويلة، فإذا كنت خالي الأشغال انتقل إلى المحكمة واقضِ وقتك فيها.

القضاة القدامى كانوا يبتّون بالحكم فوراً، في أحد الأيام ذهبت امرأتان إلى القاضي، قالت إحداهما:

يا عمي القاضي أنا أدّعي على هذه المرأة، أعطيتها خمس أوقيات[4] من القطن، واتفقنا أن تغزله وتعطيني إياه، ولكن الغزل كان خشناً، قالت المرأة

---

[3] سابقاً كان يقال للعشرين قرش مجيدية، ولليرة يقال غايمي، ولا تزال تستخدم في بعض القرى، والشخصان اللذان كانا يتشاجران كانا يقولان الشيء ذاته، لأن العشرين مجيدية تساوي أربع ليرات.

[4] الأوقا: وحدة وزن قديمة تعادل ١٢٨٣غ

ذلك وشمّرت عن ساقيها وتابعت، هل ترى ساقي الخيط كان بثخنها. ولذلك أدعي عليها.

التفت القاضي إلى المرأة الأخرى:

- وأنتِ ماذا تقولين؟

قالت المرأة:

- هل تستمع إلى كلام هذه السافلة أصلاً أنا التي أدعي عليها.

قالت ذلك وكشفت عن رأسها وانتزعت شعرة من شعرها، وقالت:

- لقد كان الغزل ناعماً مثل هذه الشعرة.

سأل القاضي المرأتين:

- هل لديكم شاهد؟

- لا

هنا قطع الخال زنغي حديثه ورمق جميع من كان في المقهى بنظره ثم سأل:

- لو كنتم مكان القاضي فماذا تفعلون؟

وتابع حديثه عندما لم يتلقَّ جواباً من أحد:

شمّر القاضي عن زنديه وقال:

- انظروا، مقياسك أنت خشن كثيراً، ومقياسك أنت ناعم جداً، ثم مدّ لها ذراعه وقال خذا هذه واغزلا بثخنها بعد هذه المرة.

فانطلق الجميع بالضحك في المقهى حتى الإغماء

- ١٠ -

- أزمة الديّوس -

في الصباح دخل رجل أنيق في الأربعينات من عمره إلى فندق "غوزال يورت" الذي يرتاده السفرانبوليون[٥]، ويقع هذا الفندق في سيركجي[٦]، وسأل كاتب الفندق الجالس أمام كوة في إحدى غرف الفندق:

- هل حضر أحد الضيوف من سفرانبولو وسأل عني؟

فتح كاتب الفندق دفتره وبدأ يقرأ الأسماء:

- يوسف سويدان، مصطفى غويان...

صاح الرجل فرحاً:

- مصطفى غويان؟!..

قال الكاتب:

- نعم، إنه "بزز مصطفى غويان"، واسم والده رِضا.

- إنه هو، إنه بالذات، مصطفانا، بأي غرفة؟

- في الغرفة رقم أربعة.

صعد الرجل فرحاً إلى الدرج، كان مصطفى غويان ينشف وجهه في غرفته، بينما دخل الرجل وضمّه إلى صدره:

- أهلاً يا مصطفى، أهلاً يا أخي، تأتي إلى هنا ولا تخبرنا؟ هل ذلك معقول؟

---

[٥] السفرانبوليين: نسبة إلى بلدة سفرانبولو

[٦] سيركجي: اسم حي في استانبول

سحب مصطفى غويان المنشفة عن وجهه ونظر إلى الرجل الذي عانقه:

- وا لله يا أخي، لم يكن لدي الوقت الكافي لأخبركم، لقد أتيت بشكل مباغت.

- كيفك؟ كيف حالك؟ انشاالله مليح.

- الحمد والشكر لله... ولكنني لم أعرف حضرتكم. ملامحك ليست غريبة، هل رأيتك في مكان ما؟ إنني لا أتذكرك.

- ألم تعرفني؟ أهكذا يا مصطفى؟ ألست بَزَز مصطفى غويان ابن رضا أفندي؟

- نعم، هو بذاته، ولكن....

- تذكر الأيام القديمة، تذكّر.

- أيُعقل أن تكون في السرية ٨١ من كتيبة المدفعية من اللواء الرابع أيُعقل أن نعرف بعضنا من أيام الجيش، لأن السفرانبوليين كانو مجتمعين هناك.

- فكّر قليلاً، فكّر.

- عرفتُ، لما كنتَ صغيراً، ألم تكن ساكناً في المنزل الذي يقع خلف حمّام الشيخ جنحي، ألست أنت.

- فكِّر، فكِّر مرة أخرى.

- تمام، الآن وجدتها، ألستَ بهليل ابن الحاج اسماعيل من عائلة قرق آياق زادة.

- الحمد لله أنك عرفتني أخيراً.

- بهليل؟! أنتَ إذاً ؟!

تعانق مصطفى غويان وبهلول مرة أخرى.

- منذ كم سنة لم نلتقِ يا مصطفى؟!

فكر مصطفى قليلاً وقال:

- تقريباً ٢٣ سنة.

ثم بدأ بهلول يتكلم:

- هل تذكر.. كان لدينا منزل خلف حمام الشيخ جنجي وكنا نقطف السفرجل من بستانه.

- كيف تستطيع أن تذكر ذلك.

- ألا تذكر عندما ضربنا المخللاتي محمد أفندي رحمه الله.

- من الجيد أنك تتذكر يا بهلول.

- ماذا سأقول إذاً عن السرية ٨١ من كتيبة المدفعية من اللواء الرابع آه... يا لتلك الأيام يا مصطفى.

- اقد مضت كالحلم، سأقول لك أمراً. من المعلوم أنه هنا في استانبول، يكثر الكلاب والنصابون، هل تعلم -أنك عندما عانقتني اعتقدت أنك ستسرقني، وشككت بك، ولو لم تحدثني عن الجيش وعن المخللاتي محمد أفندي لما صدقتك أبداً

ثم أخذا يضحكان، وسأل بهلول:

- شو فيه، شو مافيه ماذا تعمل؟

- في هذا الوقت لا يوجد شيء كثير، أتيت إلى استانبول لأشتري بضاعة بـ ٤٠-٥٠ ألف ليرة

- أمان من الجيد أنك التقيتني، هنا ينصبون على الناس تعال معي لآخذك إلى التجار الذين أعرفهم.

خرج الصديقان القديمان من الفندق، ودخلا في البداية إلى محل ياسف في طهطاقلعة، قال بهلول لِـ ياسف:

- هذا ابن بلدي، تصرف معه حسب الأصول.

أجاب ياسف: بما أنه ابن بلدك، فلن ننظر إليه كزبون عادي، سنخفض

٢٠٪ من السعر.

قال بهلول: - قليل جداً، اجعلها ٣٠٪.

كان مصطفى غويان مسروراً بذلك وأخذ أربعين نوعاً من الخردوات، ماكينات حلاقة، ومقصات أخذها كلها بالدزينة. ثم أتى دور الحساب، فأمسك اليهودي ياسف قلمه وبدأ يحسب:

- أربعون علبة أزرار بـ ١٠ ليرات تصبح ٤٠٠.

صرخ مصطفى غويان: -ماذا؟ هل أضعت عقلك؟، أنا أبيعها بالمفرق أرخص من ذلك.

- وأين هي هذه البضاعة؟ أجلبها لأشتريها أنا منك.

- من قبل أخذت الواحدة بـ غايمين.

- لو أتيت السنة الماضية لأعطيتك العلبة بليرة واحدة، لقد مضت تلك الأيام، إذا أتيت غداً ستجد أن الأسعار قد ارتفعت، إذ لا يوجد عملة صعبة وبالتالي لا يوجد بضاعة.

ومن هناك دخلوا إلى محل قرطاسية صاحبها يهودي أيضاً. وأخذوا من هناك بضاعة بعشرة آلاف ليرة، ومن ثم دخلوا إلى محل أقمشة بيع بالجملة، وفي جميع هذه الأماكن كانوا يتعرفون على بهلول.

قال مصطفى: -حلال عليك يا بهلول، أينما ذهبت فـَ كلِمتكَ مسموعة، لو لم ألتقي بك لكانوا خوزقوني، هل لديك وظيفة كبيرة؟

أجاب بهلول: -أنا مُفتش على هؤلاء التجار.

-ولو ؟! أنت مفتش؟

عندما أتى المساء كانوا قد اشتروا بضاعة بـ ٥٢ ألف ليرة أصابهم الارهاق من المجادلات والانتقال من محل لآخر.

قال بهلول: -لنذهب إلى (بي أغلو)[٧] يا مصطفى فأنت اليوم ضيفي.

دخلوا المطعم أكلوا وشربوا، ثم ذهبوا إلى الكازينو ودفعوا ١٠٠ ليرة، وكان بهلول كلما قال: أنت ضيفي ومدّ يده إلى جزدانه كان مصطفى يقول: أنا ربحت كل ذلك بفضلك أنت يا بهلول، دعني أدفع، فأنا لن أخسر شيئاً فأنا سأضيف هذا الحساب إلى السعر الأصلي للبضاعة.

وبعد منتصف الليل ذهبوا إلى بار فخم وأخذوا امرأتين من هناك واتجهوا إلى فندق يقع على المضيق، وأما حساب تلك الليلة فقد فاق الخمسة آلاف ليرة.

وفي اليوم الثاني عند الظهر تقريباً، قال بهلول:

-يا مصطفى، أنا سأخرج للتفتيش وفي المساء أعود للفندق.

واتجه بهلول مباشرة إلى محل ياسف الذي ابتاعوا منه بالأمس، فقال له ياسف ضاحكاً:

-لقد ربحنا جيداً البارحة يا سليمان، إنها جاهزة، عشرين في المئة، فيكون نصيبك ١٦٠٠ ليرة.

-جيد جداً، أتركك بخير.

كان الاسم الثاني لبهلول سليمان، وهكذا دار بهلول على جميع المحلات التي زارها برفقة مصطفى غويان وقبض حصته من الخازوق الذي خوزق به مصطفى غويان، ثم ذهب إلى فندق "قنفز بلاس" الذي ينزل فيه الأزميريون (نسبة لأزمير).

انتظر مصطفى غويان في ذلك اليوم وانتظر في اليوم التالي و لم يأتِ بهلول وهو لا يعرف عنوانه.

---

[٧] بي أغلو: اسم منطقة في استانبول

عندما عاد إلى سفرانبولو، لم ينقطع عن امتـداح صديق طفولته وبالطبع فإن مصطفى غويان أضاف نفقات الطريق ونفقات الليالي التي قضاها إلى سعر البضاعة.

خرج البحار سليمان رابحاً من العملية، ولم يتضرر مصطفى غويان بل على العكس لقد ربح أيضاً، كما أن تجار الجملة ربحوا. الخاسر الوحيد من هذه العملية، هم أهالي القرية الذين يشترون البضاعة من مصطفى غويان.

وعندما كانوا يأتون إلى الدكان ويزعمون أن سعر البضاعة ارتفع ثلاثة أضعاف عما كان عليه في الشهر الفائت، كانوا يصيحون مدهوشين:

-يا إلهي!..

وكان مصطفى غويان عندما يسمعهم يقولون ذلك، يكرر لهم الكلمات التي سمعها من اليهودي:

-ماذا تقولون؟ لا يوجد بضاعة في السوق، لأنه لايوجد عملة صعبة لدى الدولة.

ولأن القرويين لم يفهموا العلاقة بين ارتفاع الأسعار وأزمة العملة الصعبة، كانوا يحنون رؤوسهم ويمدون أيديهم إلى جيوبهم.

- ١١ -

- كيف صرتُ حاجّاً -

منذ عدة سنوات وأنا أنوي، ولكن من المؤكد أن قسمتي في هذه السنة.

في السنة الماضية، طلعت قصة العرس وتزوجت للمرة الثالثة، إذا سُئلتُ لماذا تزوجت عائشة؟ وقد صار لك أحفاد من المرأة الأولى، أقول لأنه انتهى مفعولها، وخديجة أشغلّها بالأرض، أما عايشة فأبوها وجدتها ميتان، فبقيت المسكينة وحيدة، ولديها رزق كثير وفدادين للفِلاحة، ولديها أيضاً مواشي كثيرة. وبالنسبة للجمال فهي جميلة، ماذا سأفعل؟ سأتزوجها، لأني إذا تركت هذه الوردة الجورية سيأتي الدببة الغرباء ويأكلونها.

قلت لنفسي: خذها ولك مصطفى، منها ثواب ومنها لا يذهب رزقها هدراً. ولهذا السبب لم أذهب في السنة الماضية.

هذه السنة أعطونا قرضاً من المصرف، أثابهم الله. هناك ديمقراطية في البلد، أطلقت لحيتي وعندما أمسدها فإنها تملأ كلتا يدي. على الأقل يصبح اسمنا الحاج مصطفى ويعلو اعتبارنا قليلاً، ولكني لم أقتنع أن أذهب وحدي في هذا الطريق الطويل، لذلك ذهبت إلى بكر:

- ولك بكر، سَنموت.

قال بكر: أطال الله عمرنا كلنا أموات.

- كما تعلم، الحج فريضة، قم لنذهب إلى الحجاز.

- جميل، كلامك معقول يا مصطفى، لكن بأي طريقة سنسافر إلى الحجاز؟

- لا تفكر هكذا، المهم قرر أنت، مال الدنيا يبقى في الدنيا، سنبيع

المواشي، ونبيع ما لدينا ونذهب.

اقتنع بكر، فباع الثيران والمواشي، وأحمد ذو العين الزجاجية بـاع الأرض، واستدان بالفائدة من الإمام رضا أفندي.

سمعنا من الذين ذهبوا قبلنا أن الأموال الورقيـة لا تصلـح هنـاك، فـأخذت الغايمات من بكر وأحمـد وذهبـت إلى الصـراف يونـس وحولتهـم إلى ذهـب، وقبل أن نسافر ببضعة أيام تركنا العَرق وغيره من المشروبات.

حملنا الخِرج على ظهرنا وذهبنا إلى استانبول، ونزلنا فندقاً في "سيركجي"، كانت الجموع محتشدة كأنه يوم القيامة إذ لا يوجد مكان من كثرة الحجاج، وبالكاد فتحنا بساطاً صغيراً على عتبة الباب، ثم بدأنا بمعاملات جواز السفر، صورونا صوراً صغيرة، السفن كثيرة لكنهم جميعاً غشاشون ويخوزقون. المهـم يا أفندينا، وضعنا الجوازات في عبّنا، بدون طول حديث، أخذنا ابريق نحاسي، ومشربية ووعاء للوضوء، المشربية والإبريـق ضروريـان جـداً. وفي استانبول، يوجد الكثيرون الذين يخبئون الذهب داخل الإبريق، وهكذا طلب منهم أحمـد أن يخبئوا له ١٠ ليرات ذهب وبكر خبـأ ٢٠ لـيرة ذهـب، وأنـا أخفيـت ٥٠ ولكن بدون أن يراني أحد.

ركبنا في بابور رجب، وكان في داخله غرف صغيرة في الأسـفل والمقدمـة والمؤخرة والزوايا الأربع، رغم ذلـك كـان هـذا أفضـل بـابور موجـود، كـان صاحب هذا البابور حاجاً، أسرعت ودخلت عنوة إلى إحـدى هـذه الغـرف. لكن أحمد كان ضخماً وسميناً، فلم نستطيع إدخاله إلا بالتدفيش والتطحيش.

وبدون أية بهدلة أجرينا معاملات الجمارك ودعينـا إلى ا لله أن نصـل دون حوادث أو بلاء.

تحركت السفينة وبنتيجة الخضّ، تقيأنا وأُصبنا بإنهاك شديد. وظـل أحمـد أثناء السفر محجوزاً في الغرفة. وخلال سيرنا هبت عاصفة قوية اقتلعت أبواب

غرف السفينة، حتى الأخشاب طارت في الهواء.

في منتصف البحر كانت تسير أمامنا سفن أخرى، حيث اعتقد ركابها أن بابور الحاج رجب هو سفينة نوح.

قال القبطان:

- هذه ليست سفينة نوح، ولم يستطع إقناعهم رغم إيمانه وتدينه.

فقالوا له:

- إذا لم تكن هذه سفينة نوح، فمن يكون هؤلاء؟

شرحنا لهم همّنا، فتركونا حينها.

في اليوم العشرين وصلنا إلى مرفأ جدة، أثناء نزولنا من البابور أحاط بنا السماسرة الذين يلاحقون معاملات الحج. يريدون ليرتي ذهب كرسم للدخول، وإذا لم ندفع لن ندخل، طبعاً دفعنا.

صرخ أحمد: إنني أحترق، كانت حرارة الجو ٥٦ درجة.

شعرت بالنار تخرج من عيوني ونحن نبحث عن ماء ولكن لا يوجد.

كان أحدهم يحمل مشربية وطاسة ويوزع الماء، اعتقدنا أن الشراب مجاناً، شربنا ولكن الرجل تشبث بأعناقنا ليأخذ نقوداً. ما شربناه لم يكن ماءً بل كان وحلاً. وهو أقذر من الماء الذي تستحم به الجواميس في القرى، ومقابل كل طاسة وحل أخذ ليرة ذهبية. لم يتركونا نذهب أبعد من جدة.

يجب علينا أن نذهب إلى الشرطة لنحصل على الموافقة، وانتظرنا عشرة أيام من أجل ذلك. وأخيراً جاءنا أحد الأشخاص وأخبرنا مشكوراً: أننا إذا لم ندفع ليرة ذهبية كرشوة فإنهم لن يعطونا الموافقة، فهمنا ذلك ودفعنا الليرات.

في جدة أناس من مختلف الملل والنحل يزيد عددهم عن ٧٢ ملة، من مصر والهند والسودان، يا أفندينا ومن فاس وتونس والصين، البلد مليء بالغبار والدخان، والماء قليل، بهدلة تماماً.

ولشدة ارتفاع درجة الحرارة التصق جلدي بعظمي، ولساني بطرف حلقي، وأصيب أحمد بالزحار، و لم يستطيع أن يُضبّط.
- شوف يا أحمد، أفِق على نفسك، لا تستطع أن تكون حاجاً، بهذه القذارة التي تحتكَ.
أصيب بكر بالملاريا، لدى خروجنا من جدة، وعلى ظهور الجمال، والبعض خرجوا سيراً على الأقدام عراةً.
وخلال سيرنا كانت السماء تهطل حرارة بدلاً من المطر.
قال أحمد: أنا سأموت، اذهبوا أنتم، مع السلامة، ولكن بكر حمل أحمد على ظهره.
المهم يا سيدي وصلنا مكة والحمد لله، وعلى باب المسجد الشريف أعطاكم أحمد عمره.
طفنا حول الكعبة، ورأينا الحجر الأسود الذي أعطاه جبريل لسيدنا ابراهيم بعد الطوفان، وأقمنا الصلاة فوق بعضنا، ثم صعدنا إلى التلال:وكان علينا الطواف بين تلة الصفا والمروة سبع مرات. نصف الحجاج انهاروا في هذه المسابقة.
لما ترك سيدنا ابراهيم سيدتنا هاجر وابنها اسماعيل وهرب، بدأت تتنقل بين التلتين من أجل أن تجد الماء، وجدت ماءً أم لم تجد، لا أعرف ولكننا نحن لم نجد الماء.
كنا ٣٠٠ ألف حاج نركض بين هذه التلال، وفي يوم واحد استشهد ٤٠٠ حاجٍ، نفذت نقود بكر فطلب مني نقوداً بالفائدة، وأعطاني فائدة مرتفعة جداً. ولكن هنا غربة، ولا نعرف ما يحصل معنا!
- يا بكر لو كنا في القرية لأعطيتك، ولكن الآن لا يوجد.
بدأ بكر يئن:

- من أجل ا لله، أما من مسلم يعطيني كأساً من الماء.

ولكن لا حياة لمن تنادي، تمزق قلبي عليه وقلت: هل هؤلاء سيصبحون حجاجاً؟!

قلت: يا رب اغفر له ذنوبه، ألم يكن لي معه ٨٣ قرشاً من جانبي ا لله يسامحه، حلال عليه، ولكني سأطلبها من زوجته، وأترك الباقي على ضميرها، إذا أعطتني تكون أعطتني.

كان داخلي يحترق، شربت من أحد الحجاج كأساً من الوحل، حيث كنا قد أنهينا الحج، قلت سآخذ للعائلة والأولاد من تراب الكعبة، وماء زمزم وبعض العِطور، وسآخذ لنفسي قليلاً من العنبر، واشتريت مسبحة لكل من رئيس البلدية والقائمقام، واشتريت لعايشة مِسك وقماش من الحرير، قضينا تلك الليلة بين التلال ونحن في حالة إغماء تقريباً، وحولنا الأماكن مليئة بالشهداء وكأنه ميدان حرب. في اليوم التالي وصلنا إلى مكان يقع بين صخرتين ضخمتين حارتين كالنار، يدعى ذلك المكان عرفات.

لم أكن أعلم فيما إذا اقتربت درجة الحرارة من ٨٠ أو ٩٠ أو ١٠٠ درجة.

وكان ينهار من ينهار ويموت من يموت، كما تعرفون، سيدنا ابراهيم كان سيذبح سيدنا اسماعيل هنا، والرب بعث له كبشاً ليكون قرباناً بدلاً منه، بعد عرفات أصبحت حاجاً تماماً. والشكر لله أننا عدنا للبلد بليرتين ذهبيتين، صرفتهما في استنبول، ولكن كيف صرفتهما؟ لا تسألوني!

- ١٢ -

- المعروف لا ينفع -

هناك رجل ركب التاكسي في الحربيات، جلس جانب السائق وقال له: خذني إلى أقسراي، كان السائق يتكلم كثيراً، حيث ظل يتحدث طول الطريق دون توقف.

- انظر إلى هذه الطريق يا أخي... الله يرضى على هذا الرجل، الناس تنفست قليلاً! هذه طريق، هل تعرف ما معنى الطريق؟، الطريق هي المجرى التنفسي للمدينة، فإذا انسدت الطرق، سينقطع نَفَس المدن. كيف كان هذا المكان سابقاً؟ كانت المسافة كيلومترين أو أقل، وكنا نبقى نصف ساعة حتى نجتازها، وعندما كانت تنسد الطرق من الازدحام، كنا نحن السائقين نتبادل الأحاديث، انظر الآن، خلال دقيقة واحدة قطعنا كل هذه المسافة.

لا ينفع المعروف مع شعبنا، أفواه الناس ليست كيساً حتى تغلقه، فهُم لم يتركوا شيئاً يُقال، إلا وقالوه حول ذلك الرجل.

- لأنه فتح الطرق، ماذا يقولون؟ يقولون إنه يأكل (يختلس) فليأكل يا أخي، صحة على قلبه، ولكن لا يجب أن ينكر ذلك، فهل فهمت؟ يعني يجب أن يعمل شغل ويقدم خدمات...

قام الرجل بالعمل.. فهمت؟ وبقدر ما يعمل يأكل وبقدر ما يأكل يعمل، وبرأيي أن مثل هذا الرجل هو صاحب الناموس.

يجب أن تنظر إليه هل يقوم بعمله أم لا وما دام يقوم بعمله فدعه يأكل..

من جهتي أقول حلالٌ عليه، كما هو حلالٌ عليَّ حليب أمي، فهل فهمت ذلك؟ يا أخي هذا الرجل يُعمِّر، صحيح يأكل لكنه يُعمِّر، انظر مقدار ما

عمل، ما يأكله الانسان يُنسى، ولكن ما يعمله يبقى ولا ينسى.

قال لي أحد الركاب ذات مرة: كان هناك والٍ في محافظة بُورصا وقد أُغلق مجلس الشعب بأمر من السلطان عبد الحميد، هذه السيئة أصبحت في ذاكرة النسيان ولكن عملية توسيع طرق بورصا الضيقة ظل الناس يذكرونها بكل فخر واعتزاز.

يجب أن نأخذ درساً من الماضي، لقد بلعَ ما فيه الكفاية ولكن انظر ماذا عمل. كل شيء ظاهر. في النهاية سيترحّم الجميع على أجداده

انظر إلى هذه الطرق مثلاً، فتح الرجل الطرق ووسّع الساحات ويقولون أنه بلع، ما معنى أنه بلع، إنه إنسان يأكل ولكنه ألا يحق له البلع؟

من كان قبله ألم تصبه التخمة من الأكل؟ ماذا فعل؟

كان مثل مؤخرة الأرنب، لا تتلوث ولا تفوح رائحتها.

قال يا سيدي، شو؟ كان لديه ناموس، ماذا يفيد ناموسه؟ مثله وبدونه سيَّان، إذا لم يكن ذو فائدة للشعب، فماذا ينفعني ناموسه؟

يا أخي الانسان سوف يأكل، وبدون أن يأكل لن تمشي الأمور، وكما يقال: من يقطف العسل يلحس أصابعه، هذه المقولة جميلة وما شاءا لله ذلك الرجل لديه اصبع عندما يغمرها فإنها تخرج بـ نصف كيلو عسل، لماذا؟ لأنه يعمل أشغال كبيرة، لما يعمل شغل كبير سوف يأكل كثيراً ليشبع دعه يأكل، دعه يأكل، إذا كنت تستطيع أنت، اعمل مثله وكُلْ، أليس كذلك يا أخي، با لله عليك؟

قال لديه ناموس... أنا ماذا أستفيد من ذلك، ناموسه بينه وبين ا لله، أنا لا علاقة لي بذلك.

لا هو يأكل ولا يترك أحداً يأكل، أنا أكره أمثال هؤلاء كثيراً.

يا أخي هل هناك أحد لا يأكل، قل من هو الذي لم يأكل، هذا فم، طبعاً

سيأكل، هذا بلعوم، طبعاً سيبلع، كُلْ ولكن اعمل.

هذا، ذاك، لا أعرف، أنا من جهة مع من يأكل، ولكنه يعمل، أنا روحي فداء لمثل هذا الشخص...

إذا عمل الشخص عملاً كبيراً سيكون أكله كبيراً، لا تخف من واحد يأكل، يجب أن تخاف من الذي يقول أنا لا آكل ولا يقوم بالعمل أبداً. فهم يظهرون أنهم أصحاب ناموس، يختبئون وراء خدعة: لا أحد يأكل ولكن هل يعقل أن نُخدع نحن بذلك، يريدون أن يأكلوا هم فقط أما غيرهم فلا، هل يجوز ذلك؟ ربي إني أسألك نفسي؟ هل يجوز أن نقول ذلك ونهرب، سوف نأكل ونُطعم غيرنا حتى تسير أمور الشعب، كل واحد يجب أن يعرف حدوده وكل حسب موقعه ورتبته ودرجته، يجب أن يأكل من أجل أن يستمر النظام، فهمت؟ الناس لا يفهمون ذلك ولا يريدون أن يفهموا أننا بدون أن نأكل ونطعم الآخرين، لن تسير الأمور. المولى عزّ وجل أعطى الانسان يدان وفم، لماذا يا ترى؟ طبعاً من أجل أن يمدَّ يده ويأكل، وإلا لكان المولى سبحانه وتعالى وضع بدلاً من اليدين يداً واحدة وبدلاً من الفم فمين؟ عندها لن نستطيع الأكل بيد واحدة لكل شيء حساب. لك يدان وفم من أجل أن تأكل جيداً، أليس كذلك يا أخي؟

قال أكَل قال! طبعاً سوف يأكل، للرجل فم، ولكن شعبنا لا ينفع معه المعروف يقولون أنه أكل كثيراً، جيد! ولكنه عمل شغلاً كثيراً أيضاً وهذا لا يراه أحد ...

هل سننزل هنا، تمام يا أخي؟...

والله يا أخي ليس معي فراطة...

أنا أتيت إلى الشغل الآن، لن أستطيع أن أعيد لك الباقي، لا تؤاخذنا سيبقى لك حق معي ولكن ماذا أعمل؟ سامحني بالباقي.

هذا فم يا أخي سوف يأكل، فليـأكل ولكـن دعـه يعمـل، تعـال واشـرح لشعبنا، ولكن شعبنا لا ينفع معه المعـروف، أتركـك بخير يـا أخـي وسـامحني بالبقية.

- ١٣ -

- الدعاية -

لقد أثبت في حياته أنه ابن القرن العشرين، بدأها بالدعاية وانتهت بالدعاية عرف الناس أنه أتى هذا العالم من خلال الإعلان الذي كان في الجرائد:

" ولادة سعيدة "

(السيد كوثرتْشبَن والسيد درّوتْشبَن رزقا بطفل، أطلقوا عليه اسم "غونشِر"، نتمنى للمولود الجديد طول العمر.)

السيد درّو لم يكتفِ بهذه الدعاية من أجل ابنه، بل كان يريد أن يعرف جميع الناس، أن طفلاً أتى إلى هذه الدنيا واسمه "غونشر". فنشر دعاية أخرى بهذا الخصوص. وكانت الدعاية هي:

"شكراً"

(بواسطة جريدتكم نود أن نشكر السيد دكتور النسائية... الذي تدخل في الوقت المناسب وأنقذ زوجتي من موت مؤكد نتيجة الولادة الصعبة لابننا "غونشِر").

بلغ غونشِر الخامسة من عمره، وفي أحد الأيام ضاع بينما كان يلعب أمام المنزل، وبينما كانت أمه والجيران يبحثون عنه، ركض أبوه إلى إدارة الجرائد، وأعطاهم صورة صغيرة بالإضافة إلى هذا الإعلان:

"ضائع... يجري البحث عنه"

(الطفل صاحب هذه الصورة ضائع، من يراه أو يسمع عنه، يرجى أن يبلغ باسم الانسانية إلى هذا العنوان...)

لما أعطى درّو أفندي هذا الاعلان وعاد إلى منزله، كان "غونشِر" قد وُجد منذ فترة ولما رأى غونشر صورته في الجرائد، في اليوم التالي فرح كثيراً، وبعد فترة سنحت لـ درّو فرصة من أجل دعاية حول غونشر، وأعطى هذا الاعلان للجرائد:

"حفلة الطهور"

(في مساء السبت المصادف في ٢ أيلول سنقيم حفلة طهور لابننا "غونشر" يرجى من جميع الأقرباء والأصدقاء أن يتفضلوا إلى هذا العنوان...)

وبحجة أن يشكروا المطهر، نشروا إعلانَ شُكرٍ آخر، وهكذا ذُكرَ اسم "غونشر" مرة ثانية في الجرائد.

بعد أن دخل غونشر إلى المدرسة، كان والده درّو أفندي منزعجاً لأنه لم يجد فرصة لنشر إعلان آخر، وأصبح ابنه في عمرٍ يمكنه من نشر دعايته بيده، ولأن درّو لم يستطع الصبر أكثر من ذلك، ذهبَ إلى إدارة الجرائد وأعطاهم هذا الإعلان، ولكن بلسان ابنه هذه المرة:

"مفقود"

(أضعت البطاقة التي أخذتها من المدرسة، وأنا أصنع بطاقة جديدة، ولذلك أصرح بأن البطاقة القديمة التي ضاعت أصبحت عديمة المفعول)

– غونشر تْشَبَن –

ولكي يثبت "غونشر" أنه ابن حُرَّة، كأي ولد خيّر آخر، فقد ورث عن

ابيه كل ميزاته، وبدأ يستفيد من طرق الدعاية السهلة، فكان ينشر كل شهر إعلانين أو ثلاثة إعلانات بأنه أضاع هويته أو شهادته، ولكن الحقيقة، لم يكن قد أضاع شيئاً. وفي إحدى المرات أعطى هذا الإعلان:

"سيُكرم من يجد هذا الشيء"

(في يوم الثلاثاء الماضي، وبين "تقسيم" و "حربيات" أضعت محفظتي التي يوجد فيها ٤٠٠٠ ليرة تقريباً وسندات أسهم بقيمة ٥٠٠٠ ليرة، وأشياء أخرى تخصني شخصياً فقط، من يأتيني بهذه الأوراق التي تخصني، سأكرمه بالإضافة إلى إعطائه المال وسندات الأسهم الموجودة)

- غونشر تْشَبَن -

وكل شهرين أو ثلاثة أشهر كان يعطي إعلانات عن الأشياء التي يعتبرها ضائعة، ويقول فيها سنكافئ من يجد هذه الأشياء، أما درّو أفندي فكان يقول: يجب أن تستخدم جميع الوسائل حتى لا ينساك المجتمع، يجب أن لا تنسيهم نفسك.

وبدأ اسم غونشر يلتصق في أذهان الناس، ومع أن قارئي الجرائد لم يكونوا يعرفون من هو غونشر وماذا يعمل، إلا أن هذا الاسم أصبح مألوفاً لديهم.

وصار الناس عندما يُذكر اسم غونشر، يقولون هذا الاسم ليس غريباً.

كان لدى درّو أفندي العزم على أن يكمل العمل الذي بدأه حتى النهاية.

وهكذا تديّن وتزيّن وسافر غونشر إلى باريس، ولكن بعد أربعين يوماً وعندما نفذت نقود غونشر عاد إلى البلد، وأصبح بين يديه حجة كافية لكتابة الإعلان التالي، من واقع نزهة الأربعين يوماً.

"نجاح أحد شبابنا"

(أحد شبابنا الأعزاء، غونشر تشبن، قام بأبحاث في عدة بلدان أوربية وعقد عدة ندوات، نهنئ هذا الشاب على وصوله بالسلامة، وعاد بأبحاثه الناجحة.)

وتسارع الناس إلى قراءة الإعلان في الصحف اليومية، الذي كان على شكل بطاقة مطوية من إحدى زواياها:

"خطبة غونشر تشبن وسوغي كان"

كان غونشر تشبن يفسخ خطوباته ويخطب من جديد من أجل الإعلان فقط. أخيراً علمنا من الجرائد أنه اضطر للزواج من إحدى خطيباته:

"تزوج غونشر تشبن من زكية تشنغي رقلي"

مثل هذا الزواج يجب أن يستفيد منه بكل معنى الكلمةوكُتِبَ ما يلي في الزاوية الاجتماعية:

(البارحة كُتِبَ كتاب زكية تشنغي رقلي، ابنة العائلة المعروفة على أحد شبابنا الأعزاء غونشر تشبن، بحضور نخبة من المدعوين، أحر التهاني للعروسين)

وبعد عشرة أيام وجد غونشر فرصة أخرى لنشر إعلان عرسه.

وبذلك كان بامكاننا أن نتابع قصة حياة غونشر من خلال الجرائد. فقد علمنا من زاوية القراء وزاوية الأخبار، أنه رزق بثلاثة أبناء وبنت، وأن أحدهم سقط في الماء المغلي وانسلق ومات، وأن زوجته أجرت عمليتين خطيرتين، إحداهما كانت عملية باسور، أما هو ضعف بصره فبدأ باستخدام النظارات، كما أجرى عملية جراحية لاستئصال الناميات في أنفه، وعملية مسامير لقدميه عند طبيب راق، كل ذلك علمناه من إعلانات الشكر والمكافآت والزواج والولادة والموت، و لم نعرف ذلك فحسب بل عرفنا أيضاً

أن زوجة غونشر الأولى تركت له ميراثاً ضخماً بعد أن ماتت ميتة مشبوهة، وزوجته الثانية هربت إلى صديقها بعد أن سرقت قسماً من أثاث البيت، وزوجته الثالثة ماتت بحادث سيارة، كما علمنا أيضاً أن لدى غونشر مؤسسة دون أن نعرف ما هي هذه المؤسسة وذلك من خلال إعلان كان ينشره في كل مناسبات الأعياد:

"مؤسسة غونشر تهنئ زبائنها الكرام بمناسبة قدوم العيد الجديد"

اعتاد غونشر أن يفقد أغراضه الخاصة مثل هويته، وعلب معينة وأشياء أخرى، ولم نعلم ذلك فحسب من الجرائد بل عرفنا ماذا يعمل كل فرد من عائلته، وعرفنا أقرباءه القريبين منه والبعيدين. عرفنا كل شيء ابتداء من ذلك وحتى أتفه أمر في حياته من خلال الاعلانات.

"الفقيد الراحل"

(من وجوه بلدنا الأعزاء، صهر...، صاحب.... ، أبو.... ،... "كتبنا بشكل مختصر حتى لا نطيل".... الخ...

غونشر تشبن انتقل إلى رحمته تعالى، الجنازة يوم... في الساعة العاشرة في منزله الكائن في... وبعد أن تقام الصلاة في جامع .... يوارى جثمانه الثرى في مقبرة العائلة في مكان ... رحمه الله.

أثار هذا الخبر الحزن في قلوب جميع القراء، ولكثرة ما كان اسمه مألوفاً، شعروا بأنهم فقدوا أحد أقاربهم، ولكن من كان ذلك الرجل؟ لا أحد منهم يعرف. بدأ النقاش حول مهنة غونشر وتطور الأمر إلى حد الشجار، بعضهم يقول: لقد كان كاتباً كبيراً، والبعض الآخر يقول: إنه نائب في مجلس الشعب لثماني دورات متتالية وبسبب ذلك فاسمه محفور في ذاكرتنا، والبعض الآخر

يقول: كان من أطبائنا المشهورين.

وبالرغم من أنهم يعرفون مهنته الحقيقية إلا أنهم كانوا متفقين على أنه من الرجال المهمين في البلد، ومن الصعب أن يشغل مكانه رجل آخر.

رجل مهم بهذا القدر، يجب أن تُحضَر جنازته، وهكذا ترك العاملون أعمالهم إضافة إلى أولئك الذين لا يعرفونه وذهبوا جميعاً إلى الجنازة.

منذ سنوات عدة لم تُشاهد جنازة ضخمة وعظيمة كهذه الجنازة، ومن بين المشيعين، ضابط متقاعد قال عنه:، لقد كان رحمه الله، القائد المسؤول عني، والطبيب القدير الذي أحمل إليه في قلبي كل الحب.

وقال مقدم متقاعد يقف بجانبه: بقيتُ بإمرة المرحوم ثلاث سنوات.

ووسط هذا الزحام، قال الأفندي ذو القبعة واللحية المحنجرة:

لقد كان من أقطاب الدين العظماء، إن أقل ما يمكن أن نفعله تجاه هذا الرجل، هو نشر ثقافته وفكره بين جميع أفراد الشعب.

ثم قال أحد الموجودين: من الواضح أن اسمه "غونشر" يعني فنان، فهو رسام ألماني مشهور.

لما رأت الشرطة هذا الازدحام أمام منزل المتوفى، أدركت أهمية الأمر وتحسباً لجميع الاحتمالات أرسلت مفرزة مع الجنازة.

ثم انضم المارة والفضوليون إلى القافلة التي تسير وراء الجنازة، وتكوَّن سيل من البشر، وتوقفت الحركة والسير في المدينة لفترة طويلة، وعندما رأى القباطنة وسائقي السيارات والترامات هذه الحالة، علموا أن رجلاً مهماً وكبيراً قد توفي، وبدأوا يطلقون الزمامير. وهكذا دُفن "غونشر تشبن" باحتفال مهيب لم يشهده أحد قبله.

بدأ أحد الخطباء بالكلام عن "غونشر" في مجال العلم والعلوم، لم يُفهم ما قاله تماماً ولكن فُهم أنه يتحدث عن اكتشافاته المهمة.

وألقى أحد الشبان كلمة باسم الشباب، وتحدث أحدهم باسم الرياضيين، وألقت إحدى النسوة كلمة باسم نساء العالم ثم بَكت. وقال أحد العمال:

- لو عاش المرحوم سنة أخرى، لأخذ العمال جميع حقوقهم.

حضر الجنازة أيضاً مسؤولون في جميع المجالات والمهن.

كما حضرت هيئات من ممثلي الأحزاب السياسية، تحسباً لأي كلام أو معاتبة في النهاية أما المصارف والأحزاب السياسية والدوائر الحكومية ومؤسسات أخرى فقد أرسلت أكثرمن مائتي إكليل من الزهر، حدث كل ذلك رغم أن الميت غير معروف من أحد ولا من هو!

ولكن دعاية "غونشر تشبن" بقيت حتى بعد وفاته البارحة عندما نُشر الإعلان التالي:

"مولد"

(في الذكرى الأربعين لوفاة "غونشر تشبن" التي تصادف يوم الخميس ٨ شباط سيُقرأ مولد نبوي عن روح المذكور..... الخ.. في جامع.... الشريف.

وإلى متى ستستمر دعاية "غونشر" لا نعلم حتى الآن.

- ١٤ -

- البارومتر الحساس -

لي صديق مخلص بكل معنى الكلمة.

في أحد الأيام، كنت في الإدارة، أحك رأسي وأفكر ماذا سأكتب، أثناء ذلك دخل أحدهم. قبلني من جبهتي وقال:

- يا معلم، أنت بطل.

تقبلتُ كلمة بطل ومعلم بدون اكتراث، طبعاً لم أدفع له شيئاً مقابل هذا التضخيم، فلم يكن يهمني ما قاله.

أما هو فتابع كلامه:

- كاتب مثلك، يجري الدم في قلمه!

استمعت إليه، ولكني لم أعتقد أنني في يوم من الأيام سأبكي دماً بسبب هذا القلم.

كان يصرخ بحماس:

- اضرب بهم، فما من أحد يقف بوجههم إلا قلمك أنت. اكتب بعنف أكثر، وكن أشد قوة

وكانت تلك بداية صداقتنا. وبما أننا بشر، جاءتني نفحة من الانسانية. وبالقوة التي استمديتها من صديقي أمسكت القلم وكتبت!!.

وفي اليوم التالي أخذوني للتحقيق، أتذكَّر ذلك وكأنه حدث هذا اليوم. بينما أنا عائد من التحقيق رأيت صديقي الذي شجعني. فهو لم يكن قد شاهدني، كان يتحدث مع صديقين له حول موضوعي:

- وهل يُكتَبْ إلى هذه الدرجة؟!.. عند هذا الحد تسمى خيانة! إن هؤلاء

الناس ليسوا كفاراً...

مضى وقتٌ طويل. وفي أحد الأيام أتـى صديقـي، عـانقني وقبلـني بحمـاس أكثر من المرة الماضية:

- ما هذا! النكتة التي كَتَبَتَها بالأمس شيء عظيم، أعطاك ا لله القوة. أنتـم ستنقذون البلد، أكتب قدر استطاعتك، اكتب ولا تخف!.

طالما أن نكاتي ستنقذ البلد، فلتُكسَر يدي إذا توقفت عن الكتابة.

بدأت بالكتابة، ولكن، رأيت نفسي هـذه المـرة بـين شـرطيين قـاداني إلى التحقيق. وبعد خروجي من التحقيق قيل لي: إن صديقك تكلم بحقك وقال:

- وهل إصلاح البلد يقع على عاتِقِه؟، ماذا يعتقد نفسه حتى يكتب مثـل هذه الأعمال؟، يجب أن يعرف كل واحد حدوده، ولا يتجاوزها. والواجـب أن يُساق للتحقيق والتعذيب.

طبعاً خلّصت نفسي من التحقيق هذه المرة أيضاً، من يحترق بالحليب يأخذ احتياطه. ولذلك بـدأت أكتـب عـن الهـواء والمـاء وكـل مـالا ليـس لـه صلـة بالمواضيع السابقة. ولكن صديقي العزيز لم يقصّر في نقدي. ومن وراء ظهري كان يتكلم ويقول:

- لقد رأيت الكثير من أمثـال هـؤلاء. لديـه بضـع كلمـات قالهـا وانتهـى الأمر.

هؤلاء الناس يلمعون ثم ينطفئون بسرعة، ولأنه سيق إلى التحقيـق مرتـين، بدأ يكتب أموراً ليست بذات أهمية. عندما سمعت أن صديقي ينتقدنـي بهـذا الشكل قلت: له الحق في كلامه، فكلامه، كله صحيـح. وبينمـا كنـت أفكـر بذلك، أتى صديقي وقال:

- هؤلاء الأشخاص لم يفهموا هذه المزحات البسيطة، قاوم يا أخي فنحـن وراءك!

- أشكرك جزيل الشكر، طالما لنا ظهر قوي، سنقاوم

في اليوم التالي ساقوني إلى التحقيق. وعندما أُخلي سبيلي رأيت صديقي العزيز، فتحت ذراعي وركضت صوبه، كنت سأعانقه ولكنه تخلى عن طريقي. ونتيجة سرعتي الكبيرة بقيت مندفعاً إلى باب الدكان وعانقته. وفقدنا بهذا الشكل صديقاً.

ولكن مهما حدث، سأكتب بطريقة أقل حدَّة في المرة القادمة. وعملت ذلك فعلاً.

- ماذا سيحدث؟ من المعلوم أنه سيصبح هكذا. لقد اشتروه أيضاً.

في الحقيقة لم أرغب بتخييب هذا الصديق، قلت يا الل،ه وأمسكت القلم مرة أخرى وقبضوا علي مرة أخرى، ونشروا أخبار التحقيق في الجريدة.

بقيت فترة و لم أجد عملاً، بدأت أتجول في الشوارع، وجدت عملاً كيفما اتفق. قررت أن أحسّن أوضاعي، ولكن صديقي الأول ظهر مرة ثانية وقال لي:

- كم أنت عظيم! كم أنت نشيط! واحد مثلك مناضل عظيم... أنت يا عزيزي تخلق شيئاً من العدم.

وعندما استعد للخروج قال:

- يا عزيزي، وضعي تعيس في هذه الأيام، هل تعطيني ١٠٠ ليرة؟

ولكن ليس بامكاني أن أعطيه أكثر مما يلزمه، لذلك أعطيته طلبه فقط.

- لا تخف، لا تنسحب، هذه الدعوة دعوة الشعب.

طبعاً أنا نفذت ما قاله.

ووضعوني في السجن، زارني أحد أصدقائي في السجن وقال أنه رأى صديقي في الطريق وكان يتحدث عني:

- نحن قلنا له ولكن لم نستطع إقناعه، ولكل شيء أوانه. إذا أراد أحدنا

الكتابة فليكتب ولكن يجب مراعاة الأصول، انظر ماذا فعلوا به، أمسكوه من أذنه ورموه في السجن.

برأيي أن الصديق الحقيقي هو الذي يقول كلامه علناً.

خرجت من السجن، وبعد استراحة قليلة من التعب، ركزت أوضاعي مرة أخرى.

قلت للقلم: امشِ يا مبارك. وإذا مشى المبارَك فإنه يمشي...منها يمشي ومنها يُمشّي.

وصديقي ذكرني في هذا الوقت مشكوراً وزارني:

- جيد يا عزيزي!.. هذه الأعمال لا يستطيع أحد غيرك أن يفعلها.

اكتب يا أخي، اكتب، اكتب يا أمي يا أبي، اكتب، فإنه من خلال كتاباتك يعبِّر الشعب عن آلامه ويرتاح.

ثم رفع يديه عالياً وبدأ يصرِّخ، برافو:

- أيضاً يا سيدي، أيضاً...

قال أثناء خروجه:

- وضع تعيس، وأنا في ضائقة...

مددت يدي إلى جيبي وقلت:

- لا تؤاخذني يا صديقي، لدي ٢٠٠ ليرة، سنتقاسمها أنا وأنت ولكن بدا أنه انزعج:

- ساعدني يا روحي. إن الله يعطيك وأنت تربح. أنا بحاجة للمزيد من المال.

- هل تكفيك ١٥٠؟

- لا، أعطني الكل.

- أعطيك، ولكن اترك معي ١٠ ليرات.

- أعطني يا روحي، أعطني.
- وا لله ليس معي غيرها، اترك معي خمس ليرات على الأقل.
- وهل يجوز يا روحي، أنا أقول لك إنني بحاجة.
- جيد، خذ ولكن اترك معي ليرتين ونصف حتى أتعشّى في المساء.
- أنت تربح كل هذا.
- صحيح، صحيح ولكن الآن لا يوجد. بما أنه يـلزمك، خـذ إذاً. ولكـن اترك لي على الأقل حتى أشتري دخان....

وعندما خرج صديقي، خجلت من هذا الطمـع الـذي أبديتُـه لـه، لمـاذا لا أستطيع مساعدته أكثر من ذلك؟

وبينما كنت أفكر دخل صديقي غاضباً:
- النقود ناقصة ١٨٢,٥ قرش.

عندها احمّر وجهي:
- وا لله، لست أنا من أخذهم.

إنه صاحب حق، ولذلك قال لي بعصبية:
- أكمل لي المبلغ إذاً.

استدنت من أحدهم وأكملت له...

وبينما كان يخرج لم ينسَ صديقي نصائحه:
- اجعل قلمك كالخنجر، وأدخله في عيونهم.

ولكنهم أغلقوا الجريدة لأن القلم أصبح مدبباً أكثر من اللازم، ووضعونـي في السجن.

وبينما أنا في السجن، كان صديقي يرسل لي النصائح:
- أوخ، ذلك جيد! لماذا يُضخّم الأمر إلى هذا الحد، ولـك يـا زلمي أنـت كاتب بسيط، انظر إلى من هم حولك أولاً... ماذا يجري لك؟ في هذه الأيـام

لا أحد يتكلم قبل أن يبلع ريقه ثلاث مرات، حتى البلعوم مؤلف من تسع حلقات. الكلمة التي ستقولها دفعة واحدة، قُلها على أربع أو خمس دفعات، لا السيخ يحترق ولا الكباب... دعه يعاني عسى أن يعود إلى رشده.

كان الحق مع صديقي، يجب أن أعاني.

بعد خروجي من السجن، لم تكن لدي الطاقة حتى أعاني بعد ذلك.

ذهبت إلى صديقي مباشرة.

- يا أخي، أتيتَ في وقت غير مناسب أبداً.

نظر إلى ساعته:

- لدي موعدٍ مع أحدهم، وكنت خارجاً على الفور..

وخرجنا سويةً من البيت، سألني:

- أين وُجهَتكَ؟

- لا أعرف... إلى آيّة جهةٍ كانت!

غضب صديقي:

- كم أنت رجل بلا قرار؟ قرر إلى أية جهة ستذهب فوراً.

- وا لله لا أعرف، ولكن إذا ذهبت من هذه الجهة، فلا شيء يمنع.

وأشرت إلى الشارع الذي يقع على اليسار.

- فليكن، سنفترق إذاً هنا، لن أعطّلك كثيراً، سأذهب من هنا وأشار إلى الجهة المعاكسة

تسكعت فترة لابأسٍ بها، ثم ذهبت عدة مرات إلى صديقي ولكن المسكين كان مشغولاً جداً، وفي مرات كثيرة لم يكن موجوداً، وحتى لو كان موجوداً فلم يكن لديه الوقت الكافي ليتحدث معي.

في أحد الأيام كنت سأطلب منه بعض النقود بالدين، ولكني لم أستطع أن أتخذ قراراً بذلك، حتى لا يظن أني أريد أن أسترد النقود التي أعطيتها له من

قبل، بلعت ريقي عدة مرات، وعندما كنت سأقول له: (أنت لست غريباً عني، منذ يومين لم أضع في فمي لقمة خبز)، قام من مكانه وملأ كأس نبيذ من البوفيه.

- أراهن على أنك لم تذق مثل هذا النبيذ في حياتك.

قال ذلك ومدّ لي كأس النبيذ.

لما شربت الكأس على بطن فارغ، شعرت بأن عيناي خرجتا من مكانهما، بينما صديقي يتحدث عن أمور لا أعرفها:

- لو تعلم كم أنا في ضائقة، سابقاً، لم يكن لِيَنقصني أي نوع من أنواع الخمر من هذه البوفيه، البارحة مساء "طبّقتُ" امرأة، وستأتي في مساء هذا اليوم، ولكني لا أملك النقود، و لم أستطع أن أُحضر "مازا" جيدة من أجل الشرب، فإذا كان لديك نقود...

- وا لله لا أملك عشر ليرات.

- أنت دائماً هكذا، من الأربعين سنة عندما طلبت منك نقوداً لمرة واحدة، قلتَ آنذاك ليس معي نقود، وهكذا أنت اليوم!.

يا ترى، ماذا كان يجب علي أن أفعل، إذا لم يستطع الانسان أن يساعد صديقه في وقت الضيق...

لما قال صديقي:

- أوجِدْ لي من مكان ما.

خطر بِبالي حل: قفزت من مكاني وقلت وجدتُه.... لم أبع ساعتي بعد! دون أن أفكر بقيمتها، سواء كانت رخيصة أم ثمينة، بعتها.

النقود كانت قليلة جداً، ولكن ربّما تفي بغرض صديقي.

قابلني صديقي على الباب:

- أوخ، أوخ، أوخ، اجلب لنا من هناك "جامبون" و"غرافيير" و"بفتاك"

و"محشي حار" وزجاجتي نبيذ.

جلبت ما طلبه مني بسرعة، ولكن لم تبق لي قوة للوقوف على رجليّ من شدة الجوع.

أخذ صديقي -عن الباب- الأغراض التي أوصاني عليها، وبعدها حسَبَ أسعارها واحدة واحدة، وبعد أن علم بِكم بعتُ ساعتي، قال:

- يجب أن يكون الباقي خمس ليرات، أين هي؟

أعطيته الباقي.

- جاءت المرأة، وهي في الداخل، مع أصدقاء آخرين أيضاً، وإذا دخلت أنت الآن، ففي هذه الحالة...

- صحيح، فإن حالتي...

- من جهة، هيئتك وشكلك، ومن جهة أخرى، أنت تعلم أحوال هذا الزمن...

قلت له:

- نعم، نعم. وغادرت.

تسكعت هنا وهناك لفترة من الزمن، ثم استطعت أن أبدأ حياتي من جديد ولما ظهر أول عدد من جريدتي تلطّف عليّ صديقي العزيز وسألني عن حالتي.

- لقد أثبتَّ هذه المرة بأنك أهل لهذه المهنة، بهذه الطاقة التي لديك والتي لا تعرف النفاذ، وبقلمك هذا، وبالنار التي عندك.... وبالذي عندك، فإنك......

وبعد محاضرة طويلة، مدّ حذاءه صوب أنفي.

- هل ترى حذائي؟ هل يُمكن انتعاله؟

سألته:

- هل يضايقك الحذاء؟

- ألا ترى؟ وهل بقي صالحاً كي أنتعله؟

وحتى لا يرى حذائي، سحبت قدميّ إلى تحت الكرسي.

- يلزمك حذاء، وأنت.

- أرجوك أنت تمهلني يومين أو ثلاثة، لأني لم أبدأ بالعمل إلا منذ...

- اذهب وجِدْ لي من مكان ما، كيف سأمشي به هكذا؟

عندما أعطيته الخمس وثلاثين ليرة، التي دبّرتها من أحد معارفي، قال لي:

- لماذا أنت دائماً بخيل وطمّاع؟

ستأخذ نقودك معك إلى القبر.

استدنت من صديق آخر وأكملت المبلغ إلى ستين ليرة، وعندما همّ صديقي بالخروج، رَبتَ على كتفي، وكلمني وكأنه يهمس لي سراً:

أنت تكتب بحيث تنزل كل كلمة على أدمغتهم كالصاعقة.

ولكن الصاعقة نزلت على رؤوسهم وعلى رأسي أيضاً، وصار الذي صار وأصبح الذين يرون الكاتب "الشبح" المشهور، يهربون من بعيد.

أما صديقي فهو يقول الآن:

- لقد قلنا له في الماضي، ولكن لم نستطع إفهامه، لقد عمل مابرأسه وتشبث بأفكاره، ثم سقط على أنفه، ياليت لو أن الكتابة التي يكتبها ذات معنىً، فجميع كتاباته، ليست لها قيمة فنية أو أدبية وكلها شتائم، ومع كل هذا، يدعي أن هذا صديقه وذاك زميله، وفي النهاية يُبلي هذا وذاك معه، من لا يريد الخير لنفسه هل يعقل أن يطلب الخير لشعبه.

حتى أنه قال أيضاً: أن الحرية والديموقراطية لا تطبقان في البلد بسبب كتابتي، وعندما يبدأ رؤساؤنا بإعطائنا الحرية، أظهر أنا "كالشيء الذي يظهر من السروال المشقوق" (هذا حسب تعبيره) وبسبب ذلك يمتنعون عن إعطاء

الحرية وتطبيق الديموقراطية.

كما يقول أيضاً: أن كل تلك القوانين غير ديموقراطية وُضعت بسببي ومن أجل اسكاتي فقط، ولكن الشعب كله تضرر بسببي، وكل ذلك حدث من أجلي أيضاً أما أنا فلا أستطيع أن أقول شيئاً مقابل النقد البنّاء، فالكاتب الذي يريد أن يقدم عملاً ذا قيمة، فعليه أن يستمع إلى النقد مهما كان مرّاً وجارحاً.

وذات يوم أرسل لي هذا الكلام:

- أحوال الدنيا معروفة هذه الأيام، إنهم يبحثون عن البقرة تحتَ الثور، أرجوك أن لا تأتي إليَّ، وإذا صدف وتقابلنا في الطريق، فلنتظاهر بأننا لا نعرف بعضنا.

عرفت من الكلام المنقول إليَّ بأن صديقي بدون عمل، قلت: أرجوك، دعه يراجع مديرية الأرصاد، بإمكانه أن يقوم بعمل البارومتر الحساس جداً.

كم من أناس طيبون في هذه الدنيا ! فإنه نتيجة لدقة الوضع السياسي، فإنهم يحرمون أنفسهم من رؤية أقرب أصدقائهم، ومن تذوّق الكلام معهم.

إيه: إذا لم يكن للإنسان أصدقاء طيبون! أمثال هؤلاء!! عندها وا لله لن نستطيع العيش في هذه الحياة!

- ١٥ -

- لو لم تكن -

رذالة مؤلفة من ثلاثة فصول

- الفصل الأول -

(غرفة القائمقام، والقائمقـام على طاولته، ومقابله يقف رجل جبلي قروي ويداه في خصره.)

- سيدي القائمقام، إنهم لم يرسلوا الماء إلى بستاني، وأنا دفعت منذ فترة ٥٠٠ غايمي حتى يرسلوا الماء.

- مادفعته كان من أجل العام الماضي. هل دفعت من أجل هذه السنة؟. لقد ارتفعت أسعار المعيشة هذا العام. إذا أردت أن يحولوا الماء إلى بستانك فعليك أن تدفع ١٠٠٠ ليرة.

- أمان سيدي!

- أمان، هذا لم يكن موجوداً من ظمان...

(يخرج القروي ويدخل قروي آخر بعد فترة)

- كيف، هل توصلتم إلى قرار.

- وصلنا يا سيدي، سوف أدفع ١٠٠٠ غايمي.

- ماذا! ١٠٠٠ ليرة؟. محمد أغا دفع قبل قليل ١٢٠٠ ليرة، وأقل من ١٥٠٠ فهو غير معقول.

- أمان يا سيدي!

- أمان، هذا لم يكن موجوداً من ظمان...

- الفصل الثاني -

(غرفة الوالي. القرويان في حضرة الوالي)

- السيد القائمقام، يطلب منا رشوة من أجل أن يرسل مياه الله المجانية إلى بستاننا. إنهم يوقعون بنا ثم يساوموننا على السعر.

كنا ندفع ٥٠٠ ليرة... وهذه السنة طلب ١٠٠٠، ١٥٠٠ ليرة، ونحن الآن ثقتنا بك كبيرة.

(وهكذا تقرر أن يُنصب كمين للقائمقام أثناء أخذ الرشوة).

- الفصل الثالث -

(غرفة القائمقام، والقروي يعطيه الأموال التي أُخِذَت أرقامها من قبل ثم يخرج، وهناك صورة ذات إطار لرجل كبير مهم معلقة على الجدار. عندما يخرج القروي، يُسمع من الخارج وقع خطوات سريعة محدثة ضجيجاً. شعر القائمقام بكمين نصبَ له وهكذا رمى النقود خلف الصورة.)

- أخرج النقود.

- أي نقود.

- النقود التي أخذتها من القروي قبل قليل...

(بدأ القائمقام والوالي بالنقاش. فتشوا القائمقام وطاولته ولكن لم يجدوا النقود. والقائمقام الذي يشكو من القرويين، يركع أمام الصورة المؤطرة على الجدار وبدأ يتكلم):

- أيها الرجل الكبير! أيها المخلّص العظيم! أيها الانسان الكبير، لو لم تكن أنت فماذا كانت ستصبح حالتي؟ أنت أنقذتني من البهدلة، تشكر وتَسلم! أنت حافظ ناموسنا، أنت أنقذتنا أيها الرجل الكبير.

ثم تُسدل الستارة.

- ١٦ -

- كيف انتحرتُ -

بالرغم من أن نشر أخبار الانتحار في الجرائد شيء ممنوع[٨]، وبما أن الخبر خاص بانتحاري أنا، فأتوقع أن تفرح الأوساط الرسمية والجدية جداً، لانتحار إنسان غير جدّي.

في أحد الأيام كنت مصاباً بمرض الانتحار، حيث كان الانتحار يخطر ببالي دائماً.

انتحار الأول كان هكذا.

قلت لنفسي أيها العاشق اختر نوعاً من أنواع الموت، بالمسدس، بالسكين؟ الموت واحد... وحتى يكون الموت مميزاً قررت أن انتحر بالسم كالملوك القدماء.

أخذت سماً مدهشاً. حبست نفسي في الغرفة، ثم كتبت رسالة طويلة رومانسية قلت في نهايتها: "الوداع أيتها الدنيا الفانية، الوداع أيها الزمن الملعون، الوداع أيها الصدر الأعظم..."

بعد أن قلت هكذا، شربت كأس السم دفعة واحدة، ثم تمددتُ على الأرض. وانتظرت، الآن سيجف دمي وبعد قليل ستشل يَديَّ ورجليَّ، ولكن لم يحدث شيء لي، شربت كأساً آخر من السم، ومرة أخرى لم يحدث شيء، وأخيراً علمت أن المواد المغشوشة في هذا البلد ليست الحليب والزيت والجبن

---

[٨] في الوقت الذي كتبت فيه هذه القصة، كان نشر أخبار الانتحار في الجرائد يعتبر محرضاً للناس على الانتحار ولذلك مُنِع نشرها

فقط، بل السم مغشوش أيضاً. وهكذا فإن الانسان هنا لا يستطيع الانتحار حتى، كما يريد.

ومن جهتي فإني إذا وضعتُ شيئاً في رأسي فسأعمله بالتأكيد، وفي هذه المرة قررت أن أطلق رصاصة على رأسي.

وهكذا وضعتُ فوهة المسدس على رأسي وإصبعي على الزناد.

- طَقْ.

حاولت مرة ثانية أيضاً: - طَقْ.

مرة أخرى وأيضاً: - طَقْ.

ولكن ظهر أن هذا النوع من المسدسات أتى من أمريكا على هيئة مساعدات، وبدون قطع تبديل.

وبعد أن عرفت عدم امكانية الانتحار بالرصاص، فكرت بالموت بالغاز لأن الموت بهذه الطريقة مضمون تماماً.

من المعلوم وحسب ما أعرف فإن التسمم بالغاز يؤدي إلى موتٍ شاعري. فتحت صنبور الغاز إلى آخر حد، وكنت قد أغلقت جميع الثقوب في الغرفة، وتمددت على الكنَبَة، وأخذت وضعية بحيث يجدوا جثتي وهي في منتهى الجدية ثم بدأت أنتظر عزرائيل.

أتى الظهر ثم المساء ولكني لم أمُت.

في المساء دخل صديقي إلى الغرفة:

صرختُ: - لا تدخل.

- ما الأمر؟

- أنا أموت.

- أنت لا تموت، أنت مجنون.

شرحت لصديقي عن المشروع، ولكنه ضحك:

- حقاً، إنك غبي جداً، فهذا الصنبور لا يخرج منه غاز بل هواء.
وبعدها سألني:
- هل تريد أن تنتحر حقاً؟
- طبعاً.
- أرغب في مساعدتك.

وبعد ذلك طلب مني أن أذهب إلى محل السكاكين وأشتري سكيناً من نوع بورصا، ونصحني بأن أغمد السكين في بطني وأُخرج أمعائي بيدي كالأبطال اليابانيين. شكرتُ صديقي لمساعدته، وذهبت مباشرة واشتريت سكين بورصا متينة، في الحقيقة إنه أمر غير جميل أن يمسك الانسان سكيناً ويمزق أمعاءه، لأن الأطباء الذين سيفحصون جثتي في المشفى، لن يجدوأي نوع من أنواع الغذاء في أمعائي وهذا بالطبع أمر محرج بالنسبة لي، ولكن فليكن ما يكون، وضعتُ السكين في جيبي وبينما أنا عائد إلى البيت مسروراً، هجمَ علي شرطيان، وبدأت أعرّفهما عن نفسي:

- يا سادة، توقفوا، استمعوا لي للحظة، أنا أدفع الضريبة بشكل منتظم، ولا أتكلم أي شيء بحق حكومتنا، رجلٌ شريف مثلي..

ولكنهما قطعا حديثي من منتصفه، عندما وجدا السكين في جيبي وصاحا:
- ما هذه؟

إذاً، أنا تورطت مع دورية من دوريات قسم مكافحة الجرائم، قلت لنفسي:

- يا ربي، نتيجة القرارات الصائبة في هذا البلد، فإننا لا نستطيع أن نعيش، ولا نستطيع أن نموت أيضاً؟، هل سنبقى نتعذب دائماً هكذا؟

ولكن صاحب الإرادة والعزم يجب أن يكون مثلي، فإذا قلتُ أنني سأموت، فهذا يعني أنني سأموت حتماً.

أخذت من الدكـان حبـلاً ثخينـاً، ولـوح صـابون، صوبَنْـتُ الحبـل جيـداً وربطتهُ في الحلقة الموجودة في السقف وأدخلت عنقي في عقدة المشنقة الزلاقة كمن يدخل إلى مصلحة الضرائب وأوقعت الكرسي من تحـت قدمـيَّ ولكـني سقطت أرضاً قبل أن أتأرجح مرة واحدة.

الحبال أيضاً كانت تالفة، وإيجـاد حبـال سـليمة أمـر غـير ممكـن، قـال لي صاحب المحل:

- وهل يُعقل أن تكون البضاعة سليمة ويبيعونها. لقد فهمت تماماً، أنه لا يوجد إمكانية للموت، وقلت: لأعيش إذاً على الأقل. وكما تعلمون، فالحيـاة تبدأ من المعدة أولاً وهكذا أكلت بسْطِرما بالبيض وبعـض المعلّبـات والمحاشـي الكاذبـة، وبالإضافـة لذلـك أكلـت المعكرونـة وبعـد ذلـك ذهبـت إلى محـل حلويات وأكلت ٥، ٦ قطع من المعمول.

ودخل إلى المحل بائع جرائد وبدأ يصرخ:

- ١٦ صفحة، إذا لم تقرأها غلّف بها.

لم يكن من عادتي قراءة الصحف المؤيدة للحزب الحاكم، قلـت: لأقرأهـا وبينما أقـرأ العنـاوين وجـدت نفسـي نائمـاً، شـعرت بـألم في بطـني، كطعنـة السكين، ولكن كيف.... ألمٌ لا يوصف... لم أستطع التحمل أكثر من ذلـك فبدأت أصرخ وأولوِل، وبالكاد أخذوني في سيارة الاسعاف إلى المشفى مغمياً عليّ.

لما فتحت عيني، وجدت الطبيب فوق رأسي يسألني:

- أنت مصاب بالتسمم، لا يخفى شيء على الطبيب، هل انتحرت؟

- أين تلك الأيام السعيدة يا دكتور؟ أين هي؟

- أنا أقول أنك مصاب بالتسمم، ماذا أكلت؟

- بسطِرما.

صرخ الطبيب.

- ماذا؟ هل أكلت بسطرما؟ أنت مجنون؟ وهل تؤكل البسطرما؟، ألم تقرأ الجرائد؟ إنها مليئة بأخبار المتسممين من البسطرما.. ولكن هذا لا يشبه تسمم البسطرما، ماذا أكلت غير ذلك.

- ذهبت إلى المطعم.

- أنت مخبول.

- في المطعم، أكلت معلبات.

- هكذا إذاً؟ وماذا أكلت بعد؟

معكرونة ومعمول....

- طبعاً سوف تتسمم. معلبات، معكرونة، معمول!.. وماذا أيضاً؟

- وا الله لم آكل شيئاً آخر، بينما كنت أقرأ الجريد المؤيدة للحكومة...

صرخ الطبيب:

- ماذا؟ توجه بالدعاء إلى ا الله لأنك لم تمت، لقد مرّت هذه المشكلة ببساطة هذه المرة.

عندما خرجت من المشفى كنت أفكر: طيب، نحن ماذا سنفعل، لا يتركوننا نموت ولا يتركوننا نعيش... ولكن بإمكاننا أن نزحف بكل سهولة إلى القبر.

- ١٧ -

- ماما فيه * -

المدير الجديد، لو لم يكن دقيقاً في الإملاء والقواعد، لكان إنساناً رائعاً. فعندما يرى خطأً إملائياً في الأوراق التي سيوقعها، فإنه يُجن جنونه.

كانوا في تلك الأيام، يعملون من الحبة قبة حتى يعوضوا النقص في الخزينة. وكانت الأخطاء الإملائية في الخزينة كافية لطرد أي موظف.

وبسبب خطأ إملائي ناتج عن الآلة الكاتبة، طُرد موظفان من عملهما كما طُردَ الكاتب لأنه لم يترك في الورقة ٢ سم كهامش ضروري للثقوب وذلك من أجل وضع الورقة في الإضبارة.

أصبح الموظفون يحملون في جيوبهم كتب القواعد وقواميس الجَيب، وعندما تأتي الأوراق للتوقيع، كان يظهر الخوف والارتباك على وجوههم.

قال الرئيس:

- يا عزيزي، يا "سيامي" بك، في آخر الدوام، اصعد أنتَ للتوقيع!

أخذ سيامي بك دفتر التواقيع وبدأ يتفحصه ليرى إن كانت فيه أخطاء إملائية، وعندما وصل إلى موضع ما من الكتابة، أصبح لونه كلونِ الرماد، وبدأ يتأتئ:

- أنا .... يا أفندي ... اعفوني هذا المساء.

ولكن الرئيس المرعوب من بهدلة المدير أصرّ:

---

* ماما فيه: كلمة أصلها في اللغة العربية "مهما فيه" وهي تستخدم في اللغة التركية ومعناها: "معَ ذلك" أو "لما يكون الوضع هكذا"

- يا سيدي بك، أنتم ستذهبون اليوم.
قال سيامي بك:
- يا أفندي، تجربتي ثابتة في هذه الحياة.
وبدأيقص حكايته:

نعم، بسبب هذه الكلمة المنحوسة تحطّم مستقبلي كله... في إحدى الأوراق التي ستذهب إلى المدير من أجل التوقيع، توجد هذه الكلمة، وبالتأكيد سوف يجري شيء ما لرأسي بسببها.... لما كنت في الابتدائية، كان يدرّسنا شيخ ذو " صَرِقْ "[٩] يدعى سزائي أفندي وفي امتحان الشهادة... لا تزال القصة في ذاكرتي وكأنها حدثت اليوم.

سزائي أفندي كان يتكلم وأنا أكتب على اللوح الأسود:

" كم تفضّل القدماء عندما قالوا: من جرّب المجرَّب، ماما فيه... "

وفجأة صرخ سزائي أفندي صرخة، أسقطت الطبشورة من يدي من شدة خوفي. ومن المعلوم يا أفندي أن ذاك الزمن كان زمن اللغة التركية القديمة، وكل يوم كانت تظهر قاعدة إملائية جديدة.

مرة ظهرت قاعدة الحروف المقطّعة، وبعدها مباشرة ظهرت قاعدة الحروف الموصولة... ومن أجل أن تقرأ الكتابة بسهولة، كان كل واحد يتبع منهجاً ويمشي عليه

وحضرتي، لكي أثبت للشيخ صحة معلوماتي، كتبت كلمة "ماما فيه" حسب أحدث قاعدة إملائية، ولكن سزائي أفندي قال لي: أنا سأحسّن معلوماتك الإملائية، ووضع لي علامة الصفر، ورسبت في الصف طبعاً.

في السنة التالية، كما تعلمون جرى تحديث اللغة ... حتى لا أوجع لكم

---

[٩] الصرِقْ: طربوش طويل وعليه لغة، كان يستخدمه رجال الدين في زمن العثمانيين

رؤوسكم كان لدينا مُعلم، (إذا توفي، رحمه الله، وإذا كان لا يزال حياً فلتطنّ أذنه حتى يعرف أننا نتحدث عنه)...

وهذا المعلم أيضاً كان يسألني هو الآخر عن جملة فيها كلمة "ماما فيه"، كتبتها بهذا الشكل "ماما فيه"، ولكن كاظم بك قال لي: إنها لا تكتب هكذا، أخذ الطبشورة من يدي وكتبها بهذا الشكل "مَمَا فيه" ، وبقيت في تلك السنة حتى الدورة الإكمالية، وعلقت بهذه الكلمة الوسخة في الإعدادية أيضاً.

لا تضحكوا يا أسياد، أنتم تسخرون مني، فلْتعمى عيناي إذا كنت أكذب لما كتبتها بهذا الشكل "ما-ما فيه" قال لي أستاذ اللغة التركية: (إنها كلمة واحدة، لا تُكتب في مقطعين بل تُكتب موصولة) وكتبتها بهذا الشكل "مامافيه"

وقلت لها إنها مكتوبة هكذا: في قاموس الإملاء...

قال لي: (لقد غيّرتها وزارة التربية والتعليم حديثاً) إنها أيام قديمة، في الأول الثانوي أو الثاني الثانوي لم أعد أذكر أستاذ اللغة طلب مني القيام لشرح الدرس، ولكن هل تأتي هذه الكلمة المشؤومة مرة أخرى؟!

وحسب التغييرات الأخيرة كتبتها كلمة واحدة موصولة، هنا جُنّ جنون أستاذ اللغة وبدأ يصرخ:

- أين الشحطة؟ أين الشحطة؟

إذاً كان يتوجب علي أن أضع شحطة بين "ما" و "ما فيه".

حاولت أن أشرح له معلوماتي القديمة ولكنه غضب تماماً وقال:

" حسب قرار مؤسسة اللغة يجب أن توضع شحطة".

دخلت امتحانات الثانوية.

لا تضحكو، لا تضحكوا، فليكن نصيبي هو عدم الخروج سالماً من هنا،

إذا لم أكن أقول الصدق.

أيضاً ظهرت لي تلك الكلمة الوسخة، وقبل أن أبدأ بكتابتها قلت:

" يا سيدي، قديماً كانت تكتب الكلمة هكذا "ماما فيه" وبعد ذلك صدر من وكالة المعارف مرسوم إملائي جديد فأصبحت "مَما فيه"، ولما غيرتها وزارة التربية والتعليم صارت تكتب كما في السابق، ومؤسسة اللغات نشرت قواعد الإملاء، فكتبت بشكل موصول، وحسب آخر قاموس إملاء قُسمت الكلمة إلى كلمتين، ووضعت شحطة بينهما "

ولكن استاذ اللغة سخر مني وقال:

- إنه لا يعرف لغته الأم حتى الآن، وبالرغم من ذلك يريد أن يتعلم آداب اللغة التركية.

وسألني أيضاً:

- قل لي، "ماما فيه" كم كلمة؟

- كلمة واحدة.

- كلمة واحدة؟!

- كلمتين يا سيدي.

- كلمتين؟

- ٣ كلمات يا سيدي.

- وأخيراً... طبعاً ٣ كلمات، فهي تُكتب هكذا "ماما- فيه" ارسب في صفك، عسى أن يعود عقلك إلى رأسك.

وحضرتي -حاشى حضرتي- وبسبب هذه الكلمة "الجناية"، لم آخذ شهادة الثانوية.

ولذلك يا سيدي... وإلا والله لا يوجد شيء آخر ولذلك اعفوني من ذلك، إني أشعر في داخلي بأن شيئاً ما سيحدث.

فـإذا سمحتـم -مقـامكم السـامي- وإذا كنتـم تـرون ذلـك مناسـباً، فهـل نستطيع أن نجد كلمة أخرى، بدلاً من كلمة "ماما فيه" ؟

وقبل أن يُتم سيامي بك كلامه، أرسل المدير خبراً:

" لم تبقَ إلا شعبتكم أنتم، السيد المدير ينتظر مـن أجـل التوقيـع وبسـرعة، وضع سيامي بـك دفـتر التوقيـع تحـت إبطـه ومضـى، وفجـأة تذكـر أن عينـه اليسرى كانت ترتجف في صباح ذلك اليوم، دخل غرفـة المديـر ولونـه كلـون الرماد، وبعد حوالي دقيقتين أو ثلاثة، كان يُسمع في الخارج صـوت الرجلـين بشكل مختلط

" مـَ... ما... يا سيد... حضرتي، "فيـه"... معنـى "مـا"... دولتكـم... "ماما"، وَ.. وَ... في.. أساساً "فيه"... مُهْ فيه... انقلِعْ!"

في الداخل كان النقاش الأساسي هكذا بين المدير وسيامي بك.

أشار المدير إلى مكان فوق الورقة بإصبعه وسأل:

- ماهي هذه؟ ماهيَ؟

وتابع المدير - إنها هذه!

- تلك، يعني هذه... أليست هذه الكلمة؟ هذه يا سيدي "ماما فيه"...

- وما معناها؟

- "ماما فيه" يا سيدي؟ يعني... تعني. "ماما فيه" يعني معناها "ماما فيه".

- ما معناها باللغة التركية؟

وقع سيامي بك في ورطة عويصة "تفوه، تباً لهذه الكلمـة". فهـذه الكلمـة المهمة لهذه الدرجة في حياته والتي يسمعها ١٠ - ١٥ مرة ويستخدمها ٣-٤ مرات في اليوم، هاهو لا يعرف معناها.

وفي تلك اللحظة صرخ السيد المدير:

- انقلِعْ.....

ولما حكى سيامي بك ما جرى لأصدقائه، تظاهروا أمامه بأنهم حزنوا من أجله، ولكنهم تهامسوا من خلف ظهره:

- يا هو، كل هذه السنوات والرجل موظف، وحتى الآن لا يعرف معنى كلمة "ماما فيه"*.

- وا لله، لو كنت مكان المدير... ولكنه رجل طيب...

- انسان لا يعرف معنة كلمة "ماما فيه"؟ عيب!

في ذلك المساء فكر جميع الموظفين بمعنة كلمة "ماما فيه" حتى المدير طار منه النوم لهذا السبب، كان يحدث نفسه:

"ما" معناها "إلى، مع ذلك"، مثلاً "ما عائلة" معناها "مع عائلة"... وفي هذه الحالة "ماما فيه" يكون معناها: معَ "مَفيه"....

طيب حلو ولكن ما معنى "مَفيه"، ما جرى، جرى على رأس سيامي بك، والذي كان خائفاً منه أصابه.

وبما أن أجرته كانت أجرة موظف صغير، فإنهم وجدوه غير كفء لوظيفته، وطردوه منها.

---

* ماما فيه: كلمة أصلها في اللغة العربية "مهما فيه" وهي تستخدم في اللغة التركية ومعناها: "معَ ذلك" أو "لما يكون الوضع هكذا"

- ١٨ -

- بلعت سر الدولة -

أوصوني في البيت على صابون وجبنة وبعض الأغراض الأخرى، اشتريت الصابون من سوق مصر، والجبن من سوق السمك واشتريت كيلو عنب من السوق، وذهبت إلى البيت.

عندما حل المساء سألوني في البيت:

- حبيبي، اليس لديك أوراق؟

- من أين برز هذا السؤال؟ هل يعقل أن لا يوجد أوراق؟

- إذاً لماذا كتبت على الصابون؟

وضعوا أمامي لوحين من الصابون، وفعلاً كانت عدة كتابات مكتوبة عليها بالآلة الكاتبة.

- كيف يحصل هذا الشيء؟، هل يكتب على الصابون بالآلة الكاتبة؟

اعتقدت أن الكتابة قد تكون نوعاً جديداً من الدعاية لمصنع الصابون. حاولت قراءتها ولكن الكتابة كانت بشكل معكوس على لوح الصابون. ولما بذلت بعض الجهد، لاحظت أن الكتابة على الصابون هي عبارة عن تقرير يدور حول أسرار الدولة، وهذا ما كان مكتوباً:

" خاصة بالشخص. سرية"

لسيادته العالية

الخصوصيات المسؤولة بشكل شيفرة، حسب تقارير المختصين، وملخص التقارير هو مايلي:

... نظراً لسرية الموضوع، قُدِّمت مع الـ: قوريا* "

أُصبنا جميعاً في البيت بالذهول والخوف لأننا عرفنا أسـرار الدولـة الخاصـة جداً دون أن نرغب بذلك.

وعندما كنا نفكر "ماذا يجب علينا أن نفعل الآن"

أحضروا لي الجبن وقالوا لي:

– طيب، وما هذه الكتابة على الجبن أيضاً؟

كانت عدة كتابات معكوسة فوق قطع الجبن. وبالإضافة إلى ذلك وجـود هـلالان أحمـران في بدايـة الكتابـة.وهـذه الكتابـات سـرية أكـثر مـن الأولى. وأصبحنا في البيت مشوشين جميعاً.

قلت:

– أمان بالتأكيد إنها مكيدة، يجب أن نتخلص من الصابون والجبن...

– لنرمهم في الشارع

– لا يجوز، قد يشاهدونا ونحن نرميهم؟!

– فلنعطهم للزبّال.

– أنت مجنون؟ قد يقبضون علينا...

في النهايـة قررنـا أن نـأكلهم، أكلنـا قطعـتي الجـبن فـوراً وكأننـا نـأكل مكسرات وموالح، يعني بلعنا اسرار الدولة.

وفي هذا الوقت، كان احدنا يقف أمام النافذة ليراقب الوضع في الخارج.

أما الصابون فلم نستطع أن نأكله، فانتظرنـا حتـى منتصـف الليـل وبدأنـا بغلي الثياب حتى أنهينا الصابون...

ولما تنفسنا مسرورين: أوخ! سمعنا صرخة:

---

* قوريا: هو الموظف الذي يوصل بريد السفارات

- ما هذا؟

فوجئنا بأن الكيس الذي يحوي العنب كان مصنوعاً من الأوراق التي تحمل أسرار الدولة أيضاً.

من المؤكد الآن أننا وقعنا في مصيدة، وكنا جميعاً نرتجف خوفاً، أحرقنا هذه الأوراق فوراً في الموقد، وبدون أن يرانا أحد نثرنا الرماد في الشارع.

وهكذا: إذا اقتحموا المنزل، فليس بإمكانهم أن يجدوا أي شيء حول أسرار الدولة.

- جيد، ولكن إذا وضعونا على جهاز التصوير الشعاعي؟

- لماذا؟

- سوف يعلمون أننا بلعناهم، ثم يقرأون الجبن في معدتنا؟

تحولنا إلى مجانين، فلم نكن نعلم فيما إذا كان هذا الشيء يمكن أن يطبق أم لا، وهكذا شربنا جميعاً ملح انكليزي.

وأول من ظهر التأثير معه هو أنا.

في هذه الحالة، كنا سنتخلص من أسرار الدولة إلى الأبد.

العفو، ولكن عندما أمسكت ورقة التواليت بيدي، ما الذي سأراه ويعجبكم؟! ما رأيكم أنه: التقرير السري للاختصاصيين الأميركان، عن بترول تركيا!

وبعد ذلك لم أعد أذكر ما حدث، خرجت إلى الشارع بنفس الهيئة التي كنت عليها، وفي الليل قالوا: إن هذا الرجل مجنون ولذلك قبضوا عليه.

أليس لي الحق بأن أخاف، هذه أسرار الدولة... مع هلالين أحمرين، و "خاصة بالشخص" أيضاً...

- ١٩ -

- يحيا العلم -

دون شك، فإن قرائي لا يعلمون، أن إحدى ميزاتي ، هي أنني عالم. وأنا أخفي هذا الأمر بكل تواضع منذ عدة سنوات، ولكن بالرغم من ذلك فإن بعض القراء الأذكياء، شعروا بحقيقة العلم المخبأ في كتابتنا.

وبعد أن "تخوزقت" في البقالية، وطُردت من المحاسبة، ورُميت خارج مهنة الرسم، فإنني قررت أن أطبع القصص التي كتبتها في السجن -وذلك عندما كنت أعمل في الصحافة- حتى أقبض بعض المال. وكنت واثقاً، أنني سأربح جائزة نوبل للآداب، فور نشر رواياتي، واعتماداً على هذه الثقة، اخترت أصغر رواية من بين رواياتي التسعة عشر، والمكونة من ألفي صفحة، وعنوانها "اعترافات أهبل" وضعتها في حقيبتي وتوجهت إلى صاحب المكتبة، الذي ربما لم يزره مشتري واحد منذ سنة، ولذلك اقترب مني وهو يفرك يديه، مثل عنكبوت وقَعَتْ في مصيدته ذبابة، وبدون أي مقدمات قلت له:

- لدي رواية، هل تطبعونها؟

عندها تراجَعَ خطوتين إلى الوراء:

- ولكن هذه ليست مثل الروايات التي تعرفونها أنتم...

تراجع صاحب المكتبة خطوتين ثانيتين إلى الوراء.

قلت له:

- لقد قضيت في السجن ثماني سنوات، على فترات متقطعة

جحظت عينا صاحب المكتبة، وامتدت يده إلى دِرْجه.

قلت له:

- لا، لا لم أسجن بسبب ذنب بشع، سُجنت لضروريات المهنة، فأنا صحافي....

وبعد ذلك أخبرته عن اسمي، ولكن هذه المرة فغرَ فمه باستغراب وتراجع خطوتين إلى الوراء أيضاً.

قلت له:

- كتبت هذه الرواية استناداً إلى تجربتي في السجن، وهي عمل فريد من نوعه.

ولكن صاحب المكتبة الذي كان قد اتكأ على الجدار، لم يستطع أن يتراجع خطوتين إضافيتين. قال لي وهو يتأتئ:

- لَـ.. لَـ.. لكن، نحن... لا نطبع... روايات...

-أنتم ماذا تطبعون؟

- لو كان عملاً تاريخياً...

- تمام، من يريد أن يعرف آخر عشر سنين من تاريخنا، فعليه قراءة هذا الكتاب.

قفز صاحب المكتبة من مكانه وكأن أحداً وضع مِسلة في مؤخرته.

- ماذا؟ تاريخ آخر عشر سنوات؟ لا يمكن، من المؤكد أن قضاء ثماني سنوات معك في السجن، ليس أمراً جميلاً... لو كان كتابك عملاً آثرياً...

- تماماً، لقد أصبت هدفك، كتابي هذا يحتوي الأرتولوجيا، والانتروبولوجيا والجيولوجيا والسوسيولوجيا والكريمونولوجيا... والخلاصة إنه مثل الموز، يوافق أية لغة يُقرأ بها، على أن يكون لدى القارئ لغة طيبة.

- لهذا السبب لا يجعل من كتابكم كتاباً غير عادي. وفي الفترة الأخيرة، أصبحت جميع الأعمال بهذا الشكل.

قلت لصاحب المكتبة، بأني لم أعد أرغب في العمل في الصحافة، وقد

كرهتُ البقاء جائعاً كما كرهت الدخول إلى السجن.

- أنت لست مخيفاً إلى الدرجة التي يتحدثون بها عنك، وأنت لا تشبه رجلاً سيئاً.

- إذا لم يدعس أحد على طرفي..

- يبدو أنك إنسان طيب...

- أنا هكذا

- أريد أن أصنع معك معروفاً.

ثم اتخذَ وضعية جدية:

- يا عزيزي، الأعمال الجادة والأعمال الفنية لا تمشي، فهذه الأعمال غير مُباعة، لأن الشعب شبعان من هذه الاحتيالات اكتب... أعمال عن الحب... ها... ولكن يجب أن تكون مائعة كثيراً يعني حب رذيل.. يجب أن تكون الشخصية عارية، كما ولدتها أمها ويجب أن تحوي زنا، ويجب أن يكون الأشخاص عراة كما وُلدوا من آبائهم ويجب أن يقبض عليهم بالجرم المشهود، ويجب أن يكون هناك مسدس، خيانة، هل تستطيع أن تكتب قصة حب مائعة هكذا وفيها دموع؟

- لا أستطيع أن آكل هذه "القذارة".

- إذاً اكتب رواية جنائية، وليكن فيها دم... دم وأيضاً دم وبعدها طق، طق، طق... فيها سرقة، بوليس، جناية، مسدس، سكين، إثارة.

- لا يمكن.

- طيب ألا تستطيع أن تكتب كتاباً عن الفأل؟ مثلاً هل يستطيع البوليس أن يرى أحدهم أم لا، عندما يقفز إلى الترام، أو عن تبصير اليد أو معرفة التطورات الديمقراطية عن طريق فنجان القهوة أو عن طريق ورق اللعب...

- وا لله، لا أستطيع

قال لي صاحب المكتبة بخيبة أمل:

- لك عندي آخر اقتراح، ألا تستطيع أن تكتب أعمال دينية؟ مثلاً، وضوء الغسول، لماذا يؤخذ؟ وكيف؟ وماذا يجب أن نفعل من أجل أخذ وضوء الغسول؟

- مع الأسف...

نظر إلي باستصغار وكأنه يقول لي:

"إذاً أي كاتب أنت؟ وكيف تكتب؟"

في الحقيقة أوشكت أن أبكي، وبينما كنت أخرج ناداني:

انظر، عندي اقتراح آخر.. اكتب كتاباً عن العلاقة الجنسية.

- عيب يا!...

- وما المناسبة؟ وهل العلاقة الجنسية معيبة. ربما ... كل بائعي الكتب ينشرون مثل هذه الكتب. في أحد الأيام، بيعت مئة ألف نسخة من آخر كتاب جنسي منشور. يا للأسف. أنا لم أجد مثل ذلك الكاتب. هذا الشغل يدر أموالاً يا صديقي، يدر أموالاً..

- طيب يا عزيزي، ولكن أنا لا أعرف هذا النوع من العمل.

- لقد زودّتها ها، معقول أنك في مثل هذا العمر ولا تعرف. ألست رجلاً؟

قلت:

- لاا، للمعرفة أعرف، ولكن بقدر ما يعرف سائر الناس ولا أعرف أكثر من ذلك. ثم أظن بأنك تعرف بقدر ما أعرف أنا..

قال لي:

- نعم، اعرف الطريق الأفضل، والأرفَع، والأحدث، والأسرع أعرف ٨٨ نوعاً، وأعرف وضعية "69" أعرف القديمة والحديثة المزيَّنة منها والحرة،

أعرفها كلها ولكني لست كاتباً، ليست لدي القدرة على الكتابة. وأنت تعرف، يجب أن تكون الكتابة هنا بطريقة "محوَّقة ومزوَّقة" يجب ان تكون مكتوبة بحيث عندما يقرؤها القارئ يجب أن يصل إلى قمة اللذة "يجري ماؤه" ويجب أن تنفذ طاقته، وينطفئ ضوء عينيه، وترتخي ركبتاه...

قلت:

- عيب وْلك يا أخي، بعد هذا العمر؟

قال لي:

- هكذا افضل، في هذه الحالة يكون لديك تجارب أكثر

- طيب، ولكن ماذا سأكتب مثلاً؟

- حقاً إنك غبي، اكتب هكذا، مثلاً: الأعضاء التناسلية، وما التمارين التي يجب أن ننفذها حتى نطور هذه الأعضاء، تطور العلاقة الجنسية، أصولها وأنواعها. مثلاً أصول روما، الأصول الألمانية، وخاصة إذا كتبت عن الأصول الأميركية فإننا لن نستطيع أن نتوقف عن البيع. اكتب يا سيدي، وما يدريني أنا؟ النايلون والجنس، نواة الطريق إلى العلاقة الجنسية، تأثير مستوى المعيشة على القدرة الجنسية، النهضة الاقتصادية والنهضة الجنسية... انعدام القدرة الجنسية بسبب غلاء مستوى المعيشة، ولماذا انقطعنا عن القدرة الجنسية، شراب لتقوية القدرة الجنسية...

- بالفعل هنك أشياء كثيرة يمكن أن تُكتب. ولكن هذا عمل صعب، ويجب على من يقوم به أن يكون دكتور.

- ونحن سوف نقدّمك كدكتور، دكتور مشهور.

- ولكن هذا غش.

- وما المناسبة.. فهناك مثلاً دكتور في الحقوق ودكتور بالاقتصاد، أنت دكتور في العلاقات الجنسية يعني "سيكْسولوج"

في الحقيقة لقد دخل هذا الكلام إلى دماغي، وبدأت في الكتابة فوراً، ظهر الجزء الأول، ووضعت فيه ما بقي في ذاكرتي من القراءات السابقة لمثل هذه الكتب، طبعاً ذِكر مثل هذا الكلام عيب، مثل: مبيض، بظر، رحم، ٢٠سم و٤٠مم، والذي أعرفه من هذه الشاكلة كتبته، بالإضافة لذلك كتبت: إذا كان مكتوباً في الكتاب الفلاني والصفحة الفلانية ٢٠سم و٣مم، فهذا بالتأكيد خطأ، وأنا احتج باسم العلم، أصبح من يعرف ومن لا يعرف يكتب أموراً مغلوطة وكاذبة في علم العلاقة الجنسية، وهم بذلك بهدلوا هذا العلم. وكتبت ايضاً: المحل الفلاني كذا متر، وكذا سم، وقطر الأسطوانة الفلانية كذا "ملم"، وكذا، وكذا وبعد ذلك، قبل الدورة الشهرية وبعد الدورة الشهرية، ٣مرات، ٥مرات، ومن أجل العناية تناولوا بيض سمك "حمسي"* الخ، الخ..

الجزء الثاني، إنجاب ستة أولاد في مرة واحدة، على الطريقة القديمة والأفكار التي كتبتها في هذا الجزء كانت فعلاً فريدة من نوعها. كتبت: الرجل الواحد لا يستطيع أن ينجب إلا ولداً واحداً ولكن إذا اجتمع ستة رجال وأقاموا شركة فيما بينهم..

وإذا ارادوا واجتهدوا فإن بإمكانهم أن ينجبوا ستة أولاد في مرة واحدة.

الجزء الثالث: كيف بإمكانكم أن تحظوا بطفل في أسبوع واحد؟

في الحالة العادية، بإمكان الزوج والزوجة أن يحظيا بطفل بعد تسعة شهور وعشرة أيام، ولكن إذا اجتمع الرجلان، فإن بإمكانهما أن يقلصا هذه الفترة إلى النصف، وإذا اجتمع أربعة رجال فإنهم يقلصون المدة إلى الربع، وهكذا حتى تنخفض المدة إلى أسبوع والوضع الآن لا يتحمل تقليص المدة إلى أكثر

* حمسي: نوع من السمك، يوجد في البحر الأسود.

من ذلك، ولكنني الآن أبحث عن حل لهذه المشكلة.

كما كتبتُ: في هذا الزمن، زمن الحضارة والسرعة، فإن انتظار تسعة شهور ليأتي ولد، هو جنون، ولهذا السبب كتبت عن سهولة وراحة الزوج بإمرأة حامل.

وفي صباح اليوم التالي لنزول هذا الجزء إلى السوق، أتى صاحب المكتبة إلى أمام بابي، وقال لي بحماس ولهفة:

-أمان، الحقني! لقد كسروا لي زجاج المحل، الجزء الأول نفذ بسرعة وبعنا مئتي ألف نسخة من الجزء الثاني وانتهى. والجزء الثالث طبعنا منه خمسمئة ألف نسخة و لم يبقَ منها شيء.

وأصبحت النسخة التي سعرها ٢٥ قرشاً، تباع بخمس ليرات في السوق السوداء ووزارة التعليم نصحت المدارس بهذا الكتاب، كما نصحت وزارة الصحة العمال به، والناس الآن متكومون أمام باب المكتبة وهم ينتظرون الجزء الرابع.

وبسرعة بدأت أكتب عشوائياً، وبعد اسبوع تسلمت من وزارة التعليم هذه البرقية:

"حتى الآن كان من الصعب علينا تعليم الأحرف لأطفال المرحلة الابتدائية ولكن بعد صدور كتابكم العظيم هذا، والذي يتحدث عن العلاقات الجنسية، أخذوا يقرأون بدون حاجة لمعلم أو لكتاب، وهكذا وفرّنا بعض المعلمين نتيجة الخدمة التي قدمتموها لثقافة البلد...."

وبدأت تنهال علي الرسائل والبرقيات.

علقت لائحة فوق الباب:

"الخبير المرخّص من جميع الوزارات في العلاقات الجنسية: فلان"

والآن لا أستطيع أن أحك رأسي من كثرة الزوار والمرضى، بالرغم من

وجود خمسة معيدين دربتهم بشكل خاص وثلاث سكرتيرات فإنهم لم يستطيعوا أن يخففوا ضغط العمل المتزايد.

كنت أستغرب عندما يسألني الزوار أسئلة غريبة

– يا سيدي، كتبتم في كتابكم ٥سم و٥.٢ ملم، أنا قستُ ولكن لم يكن بهذا القدر.

– تابعوا التمرين حسب الطريقة الموضحة في الكتاب، يجب أن يُجرى كشف.

وأسئلة غريبة أخرى...

– يا سيد، حضرتكم العالية قلتم في عملكم: يجب أن نأكل قشر شجر السويد من أجل زيادة الشهوة الجنسية، كل يوم آكل كيلو من هذا القشر، حتى تسودت تماماً، ولكن لم تظهر عندي الشهوة الجنسية.

– كم عمرك؟

– ثمانين..

– حضرتكم العالية، يجب أن تأكل القشر حتى تنبت أغصان شجرة السويد في يديك ورجليك ورأسك.

كانت تنهال الرسائل من "فان" و"بتلِس" و"موش" و"حقّاري"* :

"عرفتُ السهولة والراحة بفضل نصائحكم وتوجيهاتكم عن الزواج بالمرأة الحامل، فليرضى الله عنكم"

أكثر زبائني كانوا نساءً، البعض منهن كنَّ يسألن: "أنتم في الصحيفة الفلانية كتبتم هكذا، ولكن هذا لا يحدث، ماذا يجب أن نفعل؟"

بالرغم من شرحي، اعملوا هكذا، اعملوا هكذا، لم يدخل في رؤوسهن

---

* أسماء محافظات في تركيا.

شيء، حتى كنَّ يطلبن مني التطبيق العملي.

وما إن بدأت بالتطبيق العملي حتى بدأت تأتي نسوة أعمارهن فوق الخمسين، وأحياناً بعض الرجال -الذين لم يفهموا بعض المواضع في الكتاب- كانوا يأتون إليَّ لطلب التطبيق العملي!

ومقابل هذا الوضع الذي لا يحتمل، كتبت في أسفل اللائحة على الباب العبارة التالية:

"تتم المعالجة فقط بطريقة النظري والاستشارة، ولا ينفذْ التطبيق العملي".

أناسٌ يأتون بهذا القدر.. من المحيّر كيف يستمرون بالتناسل دون أن يعلموا شيئاً عن العلاقات الجنسية.

جميع الجرائد تتحدث عني، وشهرتي تجاوزت الحدود، وأصبحت ذات قيمة عالمية. وبدأت جامعات الغرب تدعوني لإقامة المؤتمرات. جُلتُ في جميع دول أوروبا وأمريكا، وكان الناس يحطمون رؤوس بعضهم وعيونهم حتى يحضروا مؤتمراتي ويستمعون لها.

وفي كل جامعة مُنحت دكتوراة فخرية ورتبة رئيس جامعة فخري. كانوا يُعطونني في الأكاديميات العلمية ميداليات وأوسمة وبعد فترة من الزمن، جاءت هيئة من الجامعة لتخبرني وتتوسل إلّي حتى أقبل الكرسي التي منحوني إياها في الجامعة وذلك من أجل تدريس مادة "آخر التطورات في تقنية العلاقات الجنسية".

قبلتها، وفي أول محاضرة، كان المدرج مكتظاً، وتكلمت هكذا:

"طلابي الأحباء! العلم رأس كل شيء، "هبُوا" نفوسكم للعلم، إذا كنت قد وصلت إلى درجة من النجاح تجعل لعاب الكثير منكم يسيل، فهذا كان بفضل خدمتي للعلم.

للنجاح عشرة شروط، العلم يحتل تسعة منها، والعاشر يحتله العلم أيضاً".

عندما فرغت من كلامي، اشتعل التصفيق والهتافات:

"يحيا العلم! تحيا العلاقات الجنسية!"

حكايتنا حتى الآن، تتحدث عن فترة ما قبل موتي.

وبعد الآن تتحدث عن فترة ما بعد موتي.

في اليوم الذي متُّ فيه، كان مئات الزبائن ينتظرون أمام بابي.

أقاموا مؤتمرات وألقوا خطابات عني، ولما وضعوا جثماني في الأرض، كان هناك الكثير من زبائني.

وفي اليوم الثاني كتبت الجرائد عني هكذا:

"رحيل الضياء، الأليم، الذي لا يعوّض، فقدنا طبيبنا المختص بالعلاقات الجنسية، المشهور عالمياً.

أمضى المرحوم حياته بالدراسة حول العلاقات الجنسية، وفي هذا المجال اكتشف آخر نظام دراسة وتكنيك، وآخر الطرق، وذلك بواسطة تجارب حديثة جداً.

أقرب الناس للمرحوم يقولون بأن المرحوم كان مخصياً".

- ٢٠ -

- بطل الديمقراطية -

يقال أن جدي كان حَلوَنجياً مشهوراً، وعندما تُذكر الحلويات بالبندق فما من أحد كان يجاري جدي في هذا المجال.

كان أبي المرحوم مجدّاً، وجارنا المبيض يأتي بحمير زبائنه ويربطها أمام دكاننا، غضب ابي من ذلك، وبدأ يتعاطى مهنة التبييض حتى ينافسه، ولكن المبيض غضب من أبي أيضاً، وبدأ يبيع الحلويات في دكانه. وبعدها غضب أبي من الصبّاغ الذي كانت دكانه مقابل دكاننا، فالصباغ كان يرمي المياه الوسخة باتجاهنا، كنت صغيراً ولكني أذكر جيداً، أن أبي صرخ ذات مرة:

- واحد من جيراني، يربط الحمير أمام دكاني، والآخر يرمي المياه الوسخة، إنهم يخربون سمعة دكاني، أناسأريهم.

ثم أحضر أحمالاً من الأقمشة، من استانبول، إضافة إلى الحلويات والتبييض، وبدأ يبيع في دكاننا الأقمشة والنسيج.

وهذه المرة تَلاسَنَ أبي مع جارنا الكندَرْجي على اليسار، وبسبب ذلك أحضر أبي من استانبول، صناديق مليئة بالأحذية الجاهزة، وأصبحت تُباع في دكاننا أيضاً أفضل وأحدث أنواع الأحذية.

وكلما ذهب أبي إلى استانبول كان يجلب معه أي شيء يجده، بيع الراديو لأول مرة في دكاننا، وبيع كل شيء اعتباراً من الإبرة والسلك حتى الأشياء التي تؤكل وتلبس.

ولما توفي أبي، كان دكاننا يحوي كل ما تحتاجه البلد من أنواع البضاعة. كل شيء كان موجوداً في دكاننا، وهكذا لم أجد نوعاً جديداً لأضعه فيه،

وأنا لدي استعداد لأصبح كاتباً، وهذه هبة من ا لله. ولأن ابي لم يترك لي عملاً جديداً لأعمله في التجارة، قلت في نفسي: لأجرب نوعاً آخر، وحاولت أن أصبح كاتباً.

لم أستطع متابعة الدراسة بعد الاعدادية ولكني كتبت الكثير، وملأت ثلاث دفاتر بالأشعار، ونشروا لي أشعاري في واحدة أو اثنتين من جرائدنا المحلية.

هنا مكان صغير، وعملي لا جدوى منه، فما من أحد يفهم الكتابة. أرسلت اشعاري إلى مجلة تصدر في استانبول، وأرسلوا لي الجواب في زاوية "مشاكل القراء"، وبالرغم من أنهم أعجبوا بالأشعار ولكنهم يقولون: أن فيها بعض الأخطاء الصغيرة، وأنني إذا صححتها، فيمكنهم طباعتها. إنه كلام فارغ، فهم لم يفهموها.

كتبت مقالاً بعنوان "ماذا يجب أن نفعل لتطوير البلد" والمقالة مؤلفة من اثنتين وعشرين صفحة أرسلتها إلى إحدى الجرائد. لو أن المقالة وقعت في أيدٍ تفهمها، لكانوا نشروها كعنوان في الصفحة الأولى.

ذات يوم زارني أحد أصدقائي وقال:

- قرأت لك كتابة منشورة في الجريدة.

أوشك قلبي أن يتوقف، أنا أقرأ هذه الجريدة سطراً سطراً، فكيف لم أشاهد كتابتي؟ وبدون أن يشعر صديقي بسروري المشوب بالقلق، قلت له:

- أحياناً أكتب للجرائد، وبعضها ترجوني أن أكتب لها كل يوم، ولكن أين الوقت... بأية جريدة شاهدت كتابتي؟

أشار إلى "زاوية القراء" في الصفحة الخامسة من الجريدة التي كان يحملها، كانت كتابتي مختصرة من اثنين وعشرين صفحة إلى خمسة أسطر، إضافة إلى اسمي وعنواني. أما ما كان مكتوباً فهو: "يقترح أحد المواطنين التوسع في

تعليم القراءة والكتابة، كما يقترح زراعة الشوندر السكري، وذلك من أجل تطوير البلد". وجاء بعد هذه العبارة، الأسطر الخمسة من كتابتي، وحتى هذه الأسطر لم تكن من كتابتي، بل كان معظمها من تأليفهم، قلت لنفسي: سأرسل لهم رسالة اعتراض وتكذيب، ولكني خفت أن يغضبوا ويمتنعوا عن نشر أية كتابة تخصني. خمسة أسطر فليكن، شيئاً فشيئاً تصبح ستة أسطر ثم تقفز إلى الستين.

للكتابة في الجرائد طعم آخر، فهي لا تشبه بيع المحاقن وأكعاب الأحذية والقباقيب، والصودا، في دكان الحلويات الذي ورثته عن أبي.

سمع الجميع بأنني أكتب في الجرائد، كانوا يقولون لي:

- أمان، قدِّم شكوى بحق رئيس البلدية.

"وكثرت الطلبات، فمن مُطالب بالكتابة عن الطرق، إلى آخر يطالب بحماية الغابات" انظر إلى قوة هذه الأسطر الخمسة، ماذا لو أنها خمسة عشر سطراً؟

ماذا كان سيحدث؟

هناك عائلة تدعوها الجرائد "عائلة الكتابة" ومن أجل أن يصبح الكاتب، أساسياً في الجريدة، عليه أن ينتسب لهذه العائلة. أرسلت عدة رسائل إلى جميع الجرائد التي أعرفها قلت فيها:

"إني أطالع بكل شوق جريدتكم المحترمة منذ اليوم الأول لصدورها".

كما كتبتُ للمجلات: "منذ طفولتي، لدي حب عميق للكتابة" وقلت لهم بتواضع: "بإمكاني أن أقدم لكم المساعدة في الكتابة -إذا أردتم- ودون أي مقابل".

في أحد الأيام وصلني رد من إحدى الجرائد التي راسلتها يقول: بأنهم يريدون مراسلين من جميع انحاء البلاد، من أجل جريدتهم الجديدة، ويقولون

في الرد: أنـي إذا أردت منهم بطاقـة فعليّ أن أرسل لهم صورة شخصية، أرسلت الصورة على الفور، وبعد فترة قصيرة وصلتني البطاقة، وبذلك دخلت عائلة الكتابة في هذه الجريدة.

والآن أتى الدور: أن أجد اخباراً وأرسلها لهذه الجريدة، ومن أجل ذلك هجرت الدكان، وأصبحت صحافياً! فهل أعود لأرى الدكان بعد ذلك؟! أرسلت لهم أولاً أن امرأة عجوزاً تبرعت بخمسين ألف ليرة للهلال الأحمر ولكن الخبر لم يُنشر في الجريدة، وبعدها أرسلت خبراً حول مباراة بكرة القدم، أيضاً لم يُنشر.

أرسلت لهم خبراً عن جريمة، وكتبت لهم عن إصلاح الطرق، وحضور مسؤولين كبار من أنقرة. وكنت أُمطر الجريدة بالأخبار دون توقف، عن طريق البرقيات والهواتف والرسائل، ولكن لم ينشر أي شيء منها، ولكن لم يكن عدم نشر الأخبار هو المشكلة، فقد كنت أطلع جميع من حولي وأقول لهم: كتبتُ عن الموضوع الفلاني، ترقبوه غداً في الجريدة، وعندما لم يظهر أي شيء فيها، كانوا يسخرون مني، ويقولون:

- حميد آغا، انكسر القرميد، دخيلك اكتب ذلك في الجريدة.

وكانوا يقولون أيضاً:

- سُرقت حمارة بكر أفندي، بلغ الجريدة.

المهم تبهدلت في البلد، وكان ما كان. أهملت الدكان نهائياً لشدة انشغالي بجمع الأخبار، كنت أكتب عن مناظرات البكالوريا وعن انتخابات البلدية، من ربح فيها ومن خسر، وعن أسعار الحبوب ولكن لم تُنشر أية واحدة منها.

وكنت كل يوم، أدفع من ١٥ إلى ٢٠ ليرة أجرة برقيات وتلفونات.

وعندما كنت أنقل عبر التلفون، كلمة القاها أحد الحزبيين، كنت أنقلها

بالنقطة والفاصلة وهذا يستغرق ساعة تقريباً، مما يضطرني لدفع ٤٠ إلى ٥٠ ليرة، بالرغم من عدم متابعة رغبتي بمهنة الصحافة. فإني لم أستطع التراجع عنها، عرّفت عن نفسي بأنني صحفي، والجميع شاهدوا بطاقتي كمراسل صحفي ولو أنهم نشروا لي خبراً أو خبرين فقط، لكنت قلت للناس: "إنهم قالوا لي: دخيلك لا تتركنا، وسيتوسلون لي كثيراً، ولكني رفضت وقدمت استقالتي".

في الوقت الذي بدأت أمارس مهنة الصحافة، كانت الأموال تتناقص شيئاً فشيئاً في الدكان الذي ورثته من أبي وجدي، وأصبحت على وشك الإفلاس..

ومع الأيام، وصلتني رسالة من الجريدة التي أعمل مراسلاً لها تقول:

"تطمح جريدتنا أن تصبح جريدة اختصاصية يقبل عليها جمهور القراء بشغف. ومن أجل بلوغ الهدف فإن أول فكرة لديك، ستكون إرسال أخبار حديثة وصحيحة لجريدتنا، وخاصة الأخبار التي تجذب انتباه الجمهور ويكون لدينا السبق الصحفي، وبقدر ما تكون الأخبار فريدة من نوعها بمقدار ما تكون مهمة.

مثلاً: إذا قتلَ خمسة أشخاص شخصاً واحداً فهذا خبر عادي، ولكن إذا قتل شخص واحد خمسة أشخاص ثم أكلهم، فهذا مهم من الناحية الاخبارية.

مثال آخر: إذا ضرب الجمهور حكم المباراة، فهذا أمر عاد ولكن إذا هجم الحكم وضرب الجمهور، فهذا خبر رائع من الناحية الإخبارية.

"رجل في السبعين من عمره، وله أحفاد، غيّر جنسه وأصبح امرأة، ثم أنجب خمسة توائم دفعة واحدة" مثل هذا الخبر الغريب يشكل خبراً هاماً من الناحية الصحافية.

وبما أنكم تمثلون جريدتنا الصادرة بإسلوب جديد، فإننا على أمل وثقة

بأنكم ستعملون آخذين بعين الاعتبار ما شرحناه لكم أعلاه.

مع تمنياتنا بالنجاح..."

عندما قرأت تلك الرسالة، رسوتُ على شاطئ الأمان، وأدركت لماذا لم ينشروا الأخبار التي أرسلتها لهم حتى ذلك الوقت.

قبل ذلك كنت قد سمعت: إذا عض كلبٌ رجلاً فهذا ليس مهماً، ولكن إذا عض رجل كلباً، فهذا خبر ذو قيمة من أجل الجرائد. الجريدة التي أعمل مراسلاً لها تنتظر مني أخباراً مهمة وذات قيمة. وهم لا ينشرون إلا أخباراً كهذه في الجريدة.

أما أنا فقد تركت الدكان نهائياً اعتباراً من ذلك اليوم، وبدأت أركض خلف الأخبار المهمة التي يمكن نشرها في الجرائد، ولكن لم اجد أخباراً مهمة كهذه.

طيب، كيف تعمل هذه الجرائد؟ من أين يجدون هذه الأحداث وينشرونها؟ مدينة بمثل هذا الحجم، هل يعقل ألا نجد فيها خبراً صالحاً للنشر في الجرائد؟

إذاً ليس عبثاً أن لا تكتب الجرائد عن مدينتنا منذ عدة سنوات. إنني ألفّ وأدور من أجل خبر، ولكن لا شيء، وبتُّ لا أستطيع الخروج إلى المقهى، أو الزقاق أو السوق أو البازار...

وكان من يصادفني يقول: "قرأت أفضل مقالة لك".

وكلما سلمت على أحد، يقول: "قرأت كتابتك التي نشرت في الجريدة".

كانوا يسخرون مني. حتى بتُّ أخجل من الخروج من بيتي.

في أحد الأيام، وبينما كنت جالساً بجوار النافذة في بيتي، أحسست بروح الصحافي تنبعث من داخلي، كان على مرأى مني خراف وُلدت حديثاً، وهي ترعى، وكان هناك حماران موجودان بين القطيع وبالالهام الذي استوحيته من

الحمارين، أخذت قلمي.

وبلغت الخبر للجريدة برقياً، ونشر الخبر في اليوم التالي على الصفحة الثالثة من الجريدة:

"حمار أنجب خروفاً"

"...مراسلنا يبلغ: البارحة وفي مدينتنا، جحشٌ عمره ٢٥ سنة، أنجب خروفين، وقد عُلم أن احدهما يغرد كالبلبل، أما الآخر فقد تبين أنه أصم وأبكم.

كما عُلِمَ أن هذا الجحش يُرضع خروفيه من ذيله.

وحسب أقوال المسنين في بلدنا، فإن إنجاب هذا الجحش المسن لخروفين يعتبر فألاً حسناً، لكونه حدث لأول مرة في مدينتنا"

وهكذا أعدتُ اعتباري، فالنجاح يعطي الإنسان دافعاً للعمل.

أما الخبر الثاني الذي أرسلته فقد نشر في الصفحة الأولى:

"السماء أمطرت سمكاً".

"مراسلنا الخاص يبلّغ من... البارحة، وفي مدينتنا، أمطرت السماء سمك البلموت والتوريك. كالبَرَد الشديد، وبالإضافة إلى أن وزن سمكة التوريت الواحدة يبلغ من ٦ إلى ٧ كغ، فقد كان يخرج من بعضها سندويشات بالصلصة والمرتديلا، أمّا مطر البلموت الذي دام ساعتين فقد تسبب بأضرار كبيرة للفواكه والزرع، ويقال: إذا استمر هطول مطر البلموت فإننا سنعاني من خطر القلة والمجاعة.

وقد بشرت الجهات المسؤولة الناس بأنهم اتخذوا التدابير اللازمة لمنع هطول أسماك البلموت والتوريك، وذلك بنصب شبكات كبيرة في الهواء"

وهكذا تبينت سهولة العمل، الخبر الأقل أهمية عن الذي أرسلته إلى الجريدة، كان عن رفس احد المواطنين لحصانه، والخبر الآخر عن نطح أحد

المواطنين لثورهِ الفحل، وخبر عن إنجاب إحدى النساء ضفدعاً.

وهكذا وحسب الأخبار التي أرسلتها إلى الجريدة، لم يوجد إنسان او حيوان يلد ولادة عادية، فالأبقار كانت تلد أحصنة بذيلين وثمانية رؤوس، والنساء كانت تلد مخلوقات عجيبة نصفها جاموس ونصفها الآخر جمل، و لم أترك إنساناً في كل محافظتنا تقريباً، دون أن أغيّر له جنسه.

كنت أكتب: رجل في الثمانين من عمره له ستة أولاد وثلاثون حفيداً، لم يُعرف أنه ذكر وأنثى في ذات الوقت، إلا وهو على المغتسل.

لم أكن أترك مباراة واحدة تمر دون جريمة.

وأينما نظرتُ، لم أكن أرى سوى الكوارث والرذائل.

والأخبار التي تقرأونها، مثلاً، على شاكلة: شوهد الصحن الطائر والسيجار الطائر، هذه كلها أخباري، وما من أسبوع يمر إلا وينزل كذا إنسان من المريخ إلى محافظتنا.

ومهما كتبت كان ينشر في الجريدة وفي الصفحة الأولى أيضاً، والكثير من أخباري كانت تصبح العنوان العريض في الجريدة.

وبالنسبة لشخص قليل المعرفة بهذه الأمور، فإن تأليف أخبار جرائدية كهذه، هو أمر صعب من منظوره، ولكن بالنسبة لي لم تكن هناك صعوبة تُذكر.

عندما كنت أخرج من البيت وأشرب زجاجة عرق، وثلاث سجائر حشيشة، كان يولد في داخلي إلهام لا يخطر لعقل أوخيال، الدكان الذي بقي من أبي كان مفلساً منذ زمن طويل، ولكني كنت أربح المال من عملي كصحفي. في البداية كنت أعمل دون مقابل، لكن الجريدة من تلقاء نفسها كانت تعطيني ٥٠ قرشاً مقابل كل "سنتيمتر" تنشره لي، وبعدها ارتفعت الأجرة إلى ليرة عن كل "سم" ثم ليرتين، ثم ارتفعت إلى خمس ليرات. ومع

مرور الزمن، عرضت عليّ جريدة أخرى ١٠ ليرات عن كل "سم" واحد وبدأت جريدة أخرى تعطيني ٢٠ ليرة عن كل "سم"

وهكذا كان كل "سم" من الخبر الذي أقدمه، يأتيني بـ ٢٠ ليرة وبسبب أخباري كانت مبيعات الجرائد تزداد بدون توقف. ومن أجل أن أزيد السنتمترات، أخذت أؤلف وأؤلف دون توقف.

كانت لقرائنا شهية القرود، فحتى الأخبار الأكثر إثارة للفضول والتشويق بدأت تصبح عادية شيئاً فشيئاً... وكانوا دوماً ينتظرون أخباراً أكثر تشويقاً وإثارة. في البداية كان إذا خنق رجل زوجته، فإن ذلك يلفت انتباه القراء، وبعد عدة أيام فإنهم يطنشون عن ذلك الخبر، عندها يجب أن نقول بأن القاتل قطع لحم امرأته إلى قطع صغيرة، حجم الواحدة منها كرأس العصفور، وهذه الأخبار يعتادون عليها، هذه المرة يجب أن نؤلف أنه فرم لحم زوجته في ماكينة اللحم. وإذا قرأوا خبراً كهذا للمرة الثالثة يقولون:

- أمان، وماذا في ذلك... إنها أمور عادية، إنهم يكتبونها في الجريدة وكأنها شيء مهم...

عندها أكتب أن الرجل عمل من لحم زوجته المفروم، كفتة، واستخدمه "مازا" مع المشروب، التأليف ليس له نهاية، ومهما ألّفت وألّفت سيأتي وقت لن يعجب القارئ بها، ولذلك يتصلون بي من الجريدة التي أعمل فيها ويقولون:

"أمان، أرسل لنا أخباراً أكثر تميّزاً وإثارة".

لقد ارتفعت قيمتي كثيراً، والجميع كانوا يحترمونني، أينما ذهبت تُفتح الأبواب ويُقال لي: تفضل واجلس في صدر البيت، كنت أعلم أن ذلك ليس من حبهم لي ولكن من خوفهم، وأعلم أيضاً أنهم كانوا يقولون من وراء ظهري: لا ترم الحجارة في المياه العكرة، كانوا يعلمون أنهم إذا أغضبوني

فإني سأنال منهم في الجرائد، فليكذّبوني إذا شاؤوا، ولكن لـدى القـراء ميـلاً لتصديق الأخبار السيئة والكاذبة. الكـل يصدقـون الأخبـار المؤّلفـة والرذيلـة، ولكن لا أحد يصدق تكذيبها ولأنهم أنفسهم يصدّقون الكذب ويكذّبون من يكذبه، فإنهم يحترمونني.

وفي اليوم الذي كتبت فيه أن فتاة عمرها ١٦ سنة خطفت رجلاً متزوجـاً عمره ٣٠ سنة وصعدا إلى الجبل، وأن امرأة عجوزاً في السبعينات من عمرهـا احتجزت ولداً في العاشرة من عمره في بيتها.

في ذلك اليوم أتى رجل مـن كبـار المسؤولين إلى محافظتنـا، وكـان ذلـك فرصة لا تعوّض من أجل تأليف خبر للجريدة، وبما أنـي أحـب ذلـك الرجـل فقد ضحيّت وقررت أن أكتب لجريدتي خبراً صحيحاً، لأول مرة. وبما أنـي أصبحت مراسلاً معروفاً، إذا أرسـلت خـبراً صحيحـاً لأول مـرة في الأربعـين سنة، فهم لن يستطيعوا رفض نشره. في ذلك اليوم كتبت ما صار ومـا عُمِـلَ وما حُكيَ، بدون أن أضيف أي كلمة كذب، كتبت بشكل مباشر، لم يكـن بإمكاني كتابة أشياء كاذبة لأنها أمور وطنية وحزبية.

ألقي القبض عليّ في ذلك اليوم الذي نشـرت فيـه أول خـبر صحيـح منـذ اشتغالي بمهنة الصحافة، والآن أنا في السجن، بالتأكيد لقد شاهدتم صورتي في الجريدة مع العبارة التالية:

"بطل الديمقراطية الذي حُلـقَ شـعره في السـجن"، ومـع أنـي دفعـت ثمـن خيانتي لمهنتي، إلا أنني أصبحت بطل الديمقراطية.

لم يكن ينقصني شيء إلا هذا، بالنسبة لمهنتي كصحافي، والآن أكملته.

- ٢١ -

- إعلان زواج -

دخلنا إلى غرفة الفندق. تمددنا على السرير، وبدأ صديقي يكمل ما تبقى من قصته:

- جالت في رأسي فكرة أني سأتزوج فتاة من المدينة، وما أدراك ما المدينة يا سيدي؟ هناك يسكن الناس أيضاً، وبما أن المدينة مدينة فهذا لا يعني أن الجميع لا يسملون أو أنهم كلهم كفاراً. فتيات بلدتنا، لا لسانهن لسان ولا عاداتهن عادات. هناك جريدة تدعى (أينا) تصدر يومين في الأسبوع والذين يريدون الزواج يبحثون عن قسمتهم فيها. فالفتيات اللواتي ينشرن إعلاناً عن الزواج، هن من عائلات راقية. يا أخي يجب أن تكون العائلة راقية وسمعتها طيبة، فهي ليست لباساً داخلياً حتى تغسلها عندما تتسخ، اسمها عائلة... المهم أحد الاعلانات "خرطَ مشطي".

تنّهد وسحب سترته من تحت الوسادة وأخرج جزداناً، ثم أخرج من الجزدان قصاصة ورق مقصوصة من جريدة وقال:

- انظر إلى هذا الإعلان، ماذا يقول: "عمري ١٨ سنة، الطول ١٦٨سم، وزني ٥٤، شقراء ذات عينين كحليتين غامقتين، المحيطون بي يقولون أنني جميلة، وهم معجبون بصوتي، تركت المدرسة في نهاية الثانوية، وأنا وحيدة في هذه الحياة ليس لي أحد. أنا بنت عائلة مرموقة لي بيت مكوَّن من ثلاثة طوابق، وأعمل خيَّاطة، الصفات التي أطلبها في رفيق حياتي هي: أن يكون وسيماً ويبحث عن السعادة في عشه الزوجي،وأن لا يكون له عادات سيئة، ودخله كاف لمصروف البيت، وطلبي هذا في غاية الجدية، يرجى أن ترسلوا

الرسائل للجريدة إلى الرمز: "مانوليا". إذا نظرنا إلى الشـرح فالفتـاة "لقطـة"، لقد أحببت هذه الفتاة قبل أن أراها.

ذهبت إلى "دُرسون علي" وهـو صديق حميـم لي، يعمـل كاتباً في فنـدق "غوان بالاس"، والذي قلمه يقطر دماً، وقلت له:

– أمان يا "دُرسون علي"، إنني بحمايتك، أرجو أن تكتب لي رسالة حـب بحيث تشعل النار في قلبها.

قال لي "دُرسون علي":

– من هذه الفتاة؟

إذا قلت لـه: "للفتـاة إعـلان في الجريـدة" فـإن "دُرسـون علـي" سـيغافلني ويرسل الرسالة باسمه هو.

قلت له:

– وما شأنك بالفتاة؟ انها من استانبول....

أنت اهتم بالرسالة فقط، ولن أنس لك هذا الجميل طول حياتي.

كان "دُرسون علي" يملك أكداساً من رسائل الحب، قال لي:

– الرسالة التي تكتب لامرأة متزوجة شيء، والتي تكتـب لفتـاة لا تعرفهـا شيء آخر، والرسالة التي تكتب لعائلة رفيعة، شيء مختلف أيضاً، كـل رسـالة حب تختلف عن غيرها. أي نوع من الرسائل تريد أن أكتب لك؟.

قلت لـ "دُرسون علي":

– هذه، أنت تعرفها، إنها متروكة لانسانيتك، اختر الأقرب والأهم يجـب أن تشتعل الفتاة عندما تقرأ هذه الرسالة، وتلتهب بنارها.

قال دُرسون علي:

– هل تعرفك الفتاة؟

– لا، لا تعرفني.

- إذاً، سنبدأ أولاً من طولك، وخصائصك.
- أنا أتكل على الله أولاً، وثانياً أثق بك يا دُرسون علي، ابدأ من حيث شئت.
- كم يبلغ طولك؟
- طولي؟ الله الله... كم يجب أن يكون؟ هل يجب أن يكون مترين؟...
- هِشْ...
- ولك دُرسون علي لا تخرج عن حدود اللياقة!

أحضر دُرسون علي متراً من الفولاذ لجاره النجار حسين، الذي حضر معه أيضاً، أسندني دُرسون علي إلى الجدار وقاس طولي، وقال:

- متر وخمس وخمسون سم.
- ولك يا دُرسون علي، تحديد الطول لا يشبه الكتابة في الفندق، أنت لا تعرف عن هذا العمل، اترك النجار حسين يقيس.

عرفتُ أن درسون علي، لا يحسن استخدام المتر،واقترب النجار حسين ليأخذ طولي، وقفت هذه المرة على رؤوس أصابعي ورفعت نفسي بشموخ، قال النجار حسين:

- متر وثلاثة وخمسين سم.

قلت له: - هل مترك فيه أخطاء، لربما أحدهم اقتطع منه وصلة؟.

قال لي النجار حسين:

- إن كلٍ الخشب الذي يدخل إلى المنشرة، أقيسه بهذا المتر، هل يُعقل أن يكون معطلاً؟

طبعاً معطل، هل يعقل أن يكون مقاس الخشب ومقياس الانسان شيئاً واحداً عندما وقفت على رؤوس أصابعي، زاد طولي نصف متر، يامن لا تخافون الله، هل طولي متر واحد فقط؟

قالوا لي:

- إذا لم تصدقنا، دع الخياط كاظم يقيس طولك.

نادينا الخياط كاظم وقاسني أيضاً ثم قال:

- متر وتسعة وأربعين "سم"!..

هل من المعقول أن أثق بمتر الخياط كاظم؟ فلكثرة ما يُنقص من قياس الأقمشة، تعودت يده على السرقة، هذا القليل الأصل، متره مغشوش بالتأكيد.

- إنهم ينقصون طولي شيئاً فشيئاً، إذا ناديت واحداً آخر، سيقول أن طولي متراً فقط، وهكذا حتى أختفي في النهاية.

غضب الخياط كاظم وقال:

- إنسان حقير مثلك يبلغ طوله ١٤٦ سم!. لو لم أرخي يدي، لكانت الأربعين "سم" كثيرة عليك يا اسماعيل الأعرج.

ووقعنا بين يدي الأصدقاء، سيجعلون طولي أقل من مستوى الأرض.

قلت لـ "دُرسون علي":

- قياسك أنت، هو الأصح، اكتبه في الرسالة.

قال دُرسون علي:

- وهل معقول أن نكتب في الرسالة متر وخمسة وخمسين؟، سأكتب متراً وخمسة وثمانين "سم".

- لا تفعلها، عندما تراني الفتاة فما الذي سيحدث؟

- وهل هذه الفتاة عريف في سريا المدفعية حتى تعرف؟، ما الذي يجعلها تقدّر طولك بعينها؟

قال النجار حسين:

- وا لله، فتيات المدينة يفهمن بالقياس.

وقال الخياط كاظم:
- يا اسماعيل الأفصع، قل لها، لقد نقص طولي.
كتب دُرسون علي في دفتر الفندق، أن طولي ١٨٥ سم، وقال:
- كم يبلغ وزنك؟
- وا لله لا أعلم، هل ذلك مسجل في الهوية؟
قال النجار حسين:
- ولك يا أفصع، هل تعتقد أن الهوية هي دفتر في المسلخ؟، أو أنها دفتر الوزن لموظف الغابات؟ ولماذا يسجلون وزنك في الهوية؟
ثم ضمني النجار حسين ووزَنني وقال:
- ما شاء ا لله إنه يزن خمس "باطمانات"[10]
قال دُرسون علي:
- سأكتب وزنك كأوزان نجوم السينما، هكذا يُكتب في رسائل الحب.
وسأل الخياط كاظم عن مقاييس نجوم السينما.
أجاب الخياط كاظم:
- يقاس الطول لمترٍ واحد وكل "سم" بعد المتر يقابله كغ واحد من الوزن.
قال النجار حسين:
- إذاً وزن هذا الأفصع لن يكون بوزن الصرة التي تأخذها المرأة إلى الحمّام، لنكتب وزنه ٤٠ كغ.
لم كن أعلم أن كتابة رسائل الحب ستكون هكذا.
سجل دُرسون علي في دفتر الفندق أن وزني ٨٠ كغ، ثم كتب أوصافي

---

[10] الباطمان: واحدة وزن، تختلف من منطقة إلى أخرى

الأخرى.

قال للخياط كاظم:

- لا تكتب عن اسماعيل الأفصع انه أحول، فليقل للفتاة أنه أصيب بالحوَل عندما رآها.

كتب دُرسون علي في دفتر الفندق أن لون عيني أخضر، وقلت له:

- لا تنسى أن تكتب أنني من عائلة نظيفة راقية.

قال لي:

- كتبت أنك من أشراف البلد.

قال النجار حسين:

- وهل يُعقل أن لا يكون من الأشراف، فأمه من أشهر بائعات الهوى في المدينة: أمينة العوراء، وأبوه ينشل المال بخفة ومهارة وإذا ذكرنا جدّه فهو من الأشراف: سارق خيول، أما هو فخادم

قال دُرسون علي، لقد كتبت:

- لا يوجد عندي أية عادة سيئة.

ثم أتى الطباخ علي أيضاً، وقال:

- ولك يا أفصع، إذا جاء أحد أقرباء الفتاة، وسأل الجندرما عن سجلك فقد انتهى أمرك.

قال "دُرسون علي":

- هكذا تُكتب رسائل الحب والغرام.

الشكر لـ "دُرسون علي"، الرجل معلم في كتابة رسائل الحب، فقد كتب أيضاً بأن لدي "مزرعة، تحوي خمسمائة رأس من الماشية، وتراكتورين ودكاكين وبيوت".

ولكن الطباخ علي، انسان "واطي" حيث قال:

- حتى لو لم يكن عند اسماعيل الأفصع شجرة واحدة في الدنيا، فتصبح لديه أكثر مما ذكرتم بكثير، إذا كانت الفتاة التي ستأتي من المدينة، جميلة.

نحن أولاد البلد، نغار من بعض، وبما أنهم سمعوا أني سأجلب فتاة من المدينة، فإنهم سينفجرون ولن يتركوا شيئاً إلا ويقولونه.

كتب "دُرسون علي" في الرسالة، عن لساني: "لا أشرب أي نوع من الخمر ولا ألعب القمار".

قال الخياط كاظم:

- أمان يا "دُرسون علي" لا تكتب أنه يرقّص النساء.

وقال لي النجار حسين:

- ولك يا أفصع نأمل ألّا تسمع فتاة المدينة، بأنهم نزعوا عنك ثيابك وأخذوها وتركوك عارياً كما ولدتك أمك، لأنك لم تدفع دين القمار، وذلك عندما سهرنا حتى الصباح في "صُلُق"[11]

بدون إطالة يا أخي، كتب "دُرسون علي" ملحمة للفتاة الاستانبولية، عن لساني.

قلت: الله، ووضعت الرسالة في البريد، وجاء الرد خلال اسبوع وورد فيه: أن الفتاة متعلمة ومثقفة، ولذلك لم يستطع أحد أن يفهم مضمون الرسالة.

قال "دُرسون علي":

- هذا الكلام غير موجود في كتب رسائل الحب الموجودة عندي، قد تكون أخذت هذا الكلام من كتاب رسائل حب آخر.

اجتمعنا كلنا وفهمنا نصف الكلام تقريباً، أما المواضع التي لم نفهمها فقد

---

[11] صُلُق: اسم المكان.

تظاهرنا بأننا فهمناها وكتب لي "دُرسون علي" رسالة أخرى، طلبت فيها من الفتاة صورة شخصية لها.

وردتني صورة منها يا أخي، وفي الحقيقة الفتاة جميلة، حتى أن المواصفات في الإعلان تلاشت أمام هذه الصورة. كانت تقول أن عينيها كحليتان نظرت إلى الصورة: العيون ليست عيون، إنها مرآة عروس، لم أرَ جميلة مثلها، لا في البلدة ولا في المحافظات التي تدربت فيها عندما كنت جندياً.

رأى الأصدقاء الصورة، قال الخياط كاظم:

- ولك يا أفصع اترك هذه الصورة أسبوعاً معي، وإلك مني بدلة حلال عليك.

وقال "دُرسون علي":

- أنت، لا منزل لك ولا أرض، إننا نستقبلكم عندنا اسبوعاً في الفندق دون أن تدفعوا قرشاً أنت وزوجتك، ولكن اترك لي الصورة يوماً واحداً فقط!

ولكن هؤلاء السفلة لا يؤتمنون، سيأخذون الصورة، ثم ينكثون بوعودهم وأنا أبقى خارجاً.

دونت الفتاة عنوانها في الرسالة، قلت للأصدقاء:

لن أستطيع أن أبقى هنا، أنا ذاهب إلى استانبول.

قال لي دُرسون علي:

- أمان، لا تذهب، لقد وصفتك في الرسالة طويلاً عريضاً رجل مثل "زال أغلو رُستا"[١٢]، إذا رأت الفتاة حَوَلَ عينيك وعَرَج ساقيك وقصرك، فإنها ستُعرض عنك، أمان، لا تذهب. ادعها هي حتى تأتي، إذا جاءت هي،

---

[١٢] زال أغلو رُستا: شخصية تاريخية ترمز إلى الشجاعة و الرجولة.

عندها تُمسك في يدها وتخجل، وبالتالي لن ترجع، وحتى لو حاولت ذلك، فأنت لن تمكنها من العودة، وحتى لو تركتها أنت، فنحن لن نتركها ترجع.

فكرت في ذلك، إنه كلام صحيح. وهكذا فإن دُرسون علي دعا الفتاة في الرسالة، لكي تحضر وجاء الجواب منها: "أنا فتاة مسكينة وليس لي أحد، كيف لي أن أحضر إليكم؟، لا أستطيع القدوم بدون معاملة زواج". كتبنا لها فوراً: "أرسلي لنا الهوية، لنبدأ فوراً بمعاملة الزواج".

حتى لا نطيل يا أخي، أرسلت الفتاة هويتها وأنا أعطيت هويتي لدائرة معاملات الزواج، وهكذا بدأت المعاملة، وبقي التوقيع فقط، الفتاة غنية، ولكن بما أني عرّفت عن نفسي من أشراف البلد، لذلك كان يجب أن أرسل لها نفقات الطريق، وأنا لا أملك النقود.

أنا أعلم أنكَ لو أحكمتَ على عنق "علي الطباخ" وأوشكتَ أن تُخرج روحه فلن تخرج منه خمسة قروش، ولكنه هو على هذه الدرجة العالية من البخل قال لي:

- فداءً لصديق مثلك، خذ هذه الخمسين ليرة وأرسلها للفتاة.

أما الخياط كاظم فقال لي:

- ومني أنا ٧٥ ليرة.

وقال النجار حسين:

- من أجل خاطر الصداقة، هذه ١٠٠ ليرة مني، ولكن لا تنسىَ معزّتنا لك يا اسماعيل الأفصع.

وقال "دُرسون علي":

- أنا أعطي أكثر الجميع، عندما تأتي المرأة، لا تأكل حقي، خذ هذه الـ ١٥٠ ليرة.

شكرتهم لمساعدتهم جمعت الـ ٦٠٠ ليرة، أرسلت لها ٣٠٠ ليرة، وأبقيت

الباقي معي،أعلمتني الفتاة بالبرقية أنها ستحضر يوم الجمعة.

يوم الجمعة سيُكتب كتابنا، وبمجرد أن تنزل الفتاة من الباص سنتوجه إلى دائرة معاملات الزواج. قامت القيامة عندما سمع الناس أن عروساً من المدينة ستأتي إلى اسماعيل الأفصع.

بالنسبة للذين دفعوا النقود، لا مشكلة، ولكن الآخرين، ما شأنهم؟. (شو أكل...)؟ كأنني لم أقل للأصدقاء: "أمان، لا أريد أن يسمع أحد". لقد تصرفوا وكأنني قلت لهم: "أرسلوا دلّالاً، ليقرع على الطبل والزمر ويصيح:

"هناك عروس من استانبول آتية إلى اسماعيل الأفصع، وهي ملكة جمال عالمية" ليس في بلدتنا فقط، بل في جميع البلدان. اجتمع شباب القرى المجاورة في الساحة الحكومية

لو أتى مسؤول كبير من أنقرة، لما اجتمعوا بهذا الشكل.

قال لي الطباخ علي:

- ولك أفصع، فلنقِمْ عرساً يكون نقطة مضيئة في تاريخ البلدة.

وأحضر دُرسون علي أربع فرق طبول وزمامير.

كان الخياط كاظم يرتدي ثياباً جديدة، لدرجة أني كنت أبدو بجانبه مثل نوري المبيض.

أما النجّار حسين فقد أحضر سيارة، وأية سيارة؟! إنها سيارة تليق بعروس تماماً.

وأنا وقفت على تلة صغيرة بارزة قليلاً عن الأرض، بحيث تكاد قدماي تلامسان الأرض، وذلك حتى لا ترى الفتاة عرجي بمجرد نزولها من الباص.

وعندما لاح من بعيد، دخان وغبار الباص، بدأت الطبول تقرع والزمامير تنفخ.

السكين جاهزة في يد سليمان الأصغر، الذي حضّر الضحية ليذبحها

بجانب قدم العروس عندما تلامس الأرض

قال دُرسون علي للشباب منبهاً:

- نحن في الساحة الحكومية، أبقوا المسدسات في مكانها، وبعد كَتب الكتاب، إياكم أن تطلقوا الرصاص قبل أن نصل إلى درب الطاحون.

وصل الباص وتوقف في الساحة أمام "كراج الاعتماد".

توجهت إلى الباص، ولكن من يتركني؟ فهذا يكلزني بكوعِه والآخر يدفشني حتى وصلوا قبلي.

في الوقت الذي سأستقبل فيه العروس، وقعت على الأرض وكنت سأصبح موطئاً للأقدام. وعندما صرخت:

- ولك يا عديمي الإيمان، اسماعيل الأفصع سيتزوج؟، أم أن العروس جاءت من أجل شباب البلد؟، هل عملنا في شركة؟ توقفوا!.

نزل من الباص شخص وبرفقته ثلاث نساء، ولم تكن أية واحدة منهن تشبه الصورة، قالت إحداهن:

- نبحث عن اسماعيل بك، من بين الأشراف!

قلت لها:

- أنا، ماذا ستصنعين به؟

- أنا العروس الآتية من استانبول، واسمي ليلى...

وكأن صاعقة نزلت على الساحة، قبل أن تفرغ من كلامها، سكتت الطبول والزمامير، أما سليمان الأصغر الذي كان يضع السكين على رقبة الخروف فقد وضع السكين في زناره، وأخذ الكبش ومشى.

قال لي الطباخ علي:

- ولك يا أفصع، لعنة الله عليك، أنا أريد الخمسين ليرة هذه المرأة لا تساوي خمسين ليرة.

وقال الخياط كاظم:

- احترقت نقودنا، روح هذا الأفصع لا تساوي خمس ليرات، ماذا سنأخذ منه؟

أما الساحة الحكومية الكبيرة فقد فرغت تماماً وكأن هناك إحصاء حكومي للسكان، السفلة هربوا جميعاً، لم يبقَ مخلوق حتى استغيث به.

لو أنك اسماعيل الأفصع، فماذا تفعل يا أخي؟

اتجهنا نحو دائرة معاملات الزواج، فالرجوع غير وارد.

بحثنا عن شهود من أجل عقد الزواج ولكن لم نجد، في هذه المدينة الكبيرة شخصين كشاهدين.

ظهر أن واحدة من القادمين من استنبول كانت أمها وواحدة أختها والثالث كان والدها، ولأنهم من الأقارب، فلا يجوز أن يكونوا شهوداً.

قال والد الفتاة:

- هل من المعقول أن لا يوجد شهود من أجل عمل خير كهذا؟

ونهض من مكانه، وعادَ بخمسة شهود، كم لي من الأعداء في البلدة؟! لقد جمعهم وأتى بهم كشهود، كُتِب الكتاب، وذهبنا جميعاً إلى فندق "غوان بالاس".

قال درسون علي:

- هذه البلدة لها شرفها وسمعتها، لا أستطيع قبول هذه المرأة في الفندق.

- ولك يا ابني، الزبون لا يُسأل عن شرفه، بل يُسأل عن نقوده، أنت ماذا تريد؟ أنتم جلبتم هذا البلاء لرأسي.

انعزلت أنا والفتاة في غرفة، وأخرجت من جيبي إعلان الزواج هذا وقلت:

- يا ليلى خانم، هل هذا الإعلان لكِ؟

قالت :

- نعم.

- عيناك كانت كحليتان يا ليلى خانم.

قالت لي:

- وعيناكَ كانتا خضراوان؟ أليست لك هذه الرسالة؟ لم تكتب فيها أنك أحول.

- يا ليلى خانم، قلتِ أنه ليس لك أحد في هذه الدنيا؟ أرى أبوك وأمك والعائلة بكاملها؟ جمعتِ الكل وأتيتِ بهم.

- على أساس لديكَ مزرعة؟

- طيب ألم تقولي في هذا الإعلان أن عمرك ١٨ سنة؟

ولِك يا ليلى خانم، أمي أصبى منكِ.

- وأنت لماذا لم تقل لي أنك أعرج؟

لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر من ذلك، أمسكت المرأة من شعرها وبدأت أضربها وأضربها، ولِك على أساس أنك تركتِ المدرسة في الباكالوريا؟ وأنتِ لم تستطيعي أن توقعي توقيعاً عند كتب الكتاب... ولِك يا ليلى خانم، كان وزنك على أساس ٥٤ كيلو، وها أنا أستطيع الإحاطة بخصرك بيديّ الاثنتين، وعلى أساس أنك بنت عائلة نظيفة، وأمك أسوأ من رجل يتشبه بامرأة وأبوكِ أسوأ من نوري المبيّض، ولِك على أساس عندك بيت ٣ طوابق؟ الشحاط الذي في قدمك نصف شحّاط ممزق.

ضربتُها وضربتُها، وأفاق جميع نزلاء الفندق، بل البلدة كلها قامت على صراخها.

قال لي والدها:

- يا بني، لماذا تنظر إلى إعلان الجريدة؟ إن إعلان الجريدة هو دعاية، وهل

يُعقل أن يعرض الإنسان بضاعة سيئةً في الدعاية؟ كل شيء هكـذا هنـاك مـن يمزج غبار الطباشير بالماء ويقدم إعلانه في الجريـدة علـى أنـه معجـون أسـنان يقتل الجراثيم، إذا نظرت إلى الدعاية، سيصبح الصابون الذي لا يرغـي أبـداً، أفضل صابون في العالم. إنها دعاية، يجب أن ترمي ٩٩٪ منها.

فهمت،لقد خدعنا بعضنا، ولكن لو رمينا ٩٩٪ من الفتاة، فلن يبـق منهـا شيء، يجب أن تُرمى كلها.

هذا يطلب مني الخمسين ليرة التي أعطاني إياهـا، وذاك يطلـب المئـة لـيرة. قلت لهم: "أخي خذوا المرأة واتركوا ياقتي".

قالوا لي: "لو تعطينا نقوداً فوقها، فإننا لا نستطيع أن ننظر لوجههـا خمـس دقائق".

رميتُ المرأة في الأرض، ووضعت ركبتي فوق بطنها وبدأت أعصر عنقها، وقلت لها:

- سـوف أقتلـك وأُخلـص الدنيـا منـك، فـإذا دخلـت السـجن فـإنهم سيقولون: أن اسماعيل الأفصع عمِل شيئاً يُذكر.

أخرجت صورة ملكة الجمال التي أرسلتها لي، وقلت:

- دعاية؟ فهمتها، ولكن ما هذه الصورة؟ صورة أية مطربة هـذه؟ صـورة اية ممثلة؟

إنها تحلف با لله "بأن هذه الصورة لها".

"ولك من هو الرسام الذي يحول بغل النقـل -المتقـاعد لأسـباب صحيـة- إلى ملكة الحوريات؟"

الوقت كان بعد منتصف الليل، وصديقي في غرفة الفندق قال:

- ورّمتُ لكم رأسكم يا بيك، لا تؤاخذنا، أنا مهموم...

- لقد اثارت فضولي تلك الصورة، كانت صورة من؟

- إنها صورتها. فالمصورون قبل أن يصوروا كانوا يقولون: "كيف تريدين أن تكون الصورة؟"

عندها تختار المرأة صورة الممثلة التي تريد أن تكون شبيهة بها وتقول "أريد أن أشبه هذه الممثلة" ثم يجري المصور الرتوش حسب الصورة المُختارة، وعند إجراء الرتوش على الصورة تصبح المرأة ملكة جمال عالمية.

سألته:

- لماذا أتيتَ بها إلى هنا؟ هل من أجل عمل؟

قال:

- لا، لقد أخذت عنوان المصور الذي صوّر زوجتي، وأتيت حتى أقتله، لأخلّص رؤوس المساكين أمثالي من بلائه.

غفونا، وعندما استيقظنا في الصباح، حاولت أن أمنع الرجل من ارتكاب الجريمة، قلت له:

- لن تنتهي المشكلة بقتل المصور، فهذه العملية التي تسميها رتوش، يجريها جميع المصورين، فمن ستقتل منهم؟

قال لي:

- اتركني يا صديقي، أنا لن أقتل أحداً، كنت أمزح. لقد تغرّبت حتى أتخلص من تلك المرأة، وأنا لا أستطيع العودة إلى البلد.

- لو طلقتها؟

- إنها لا تقبل، فحتى لو دارت الدنيا من شرقها إلى غربها، لن تستطيع أن تجد زوجاً، وقد وجدت إنساناً غبياً مثلي وتزوجته، فهل تقبل بأن تطلقه؟ حتى أتخلص منها يجب أن أقتل نفسي وأقتلها.

وبينما نحن في الحديث، فُتح باب الغرفة ودخل شرطيان إلى الغرفة، وأخذا صديقي من الغرفة.

في اليوم التالي عرفت من الجرائد الوجه الداخلي للمشكلة: "أحد القرويين، عرضَ صورة زوجته الرسمية على ثلاثة رجال غرباء، ثم باعهم زوجته بخمسة وعشرين ليرة".

حزنت من أجل المسكين، فهو لا يستطيع رمي المرأة ولا يستطيع بيعها، أما الشركاء الثلاثة الذين شاهدوا الصورة ودفعوا خمسة وعشرين ليرة فقد ألغوا الصفقة عندما رأوا المرأة.

- ٢٢ -

- طفح الكيل -

أنا أستاذ في القرية منذ سنتين، ولكن لا أحد يثق بـي حتى الآن، فعندما يكونون في المقهى. فإنهم يصرخون ويتلاسنون، ويتناقشون بصوت مرتفع، ولكن عندما أدخل إلى المقهى، فإنهم يقطعون أصواتهم، ويسود الصمت ويبدلوا موضوع الحديث، بحيث يتحدثون عن أشياء أخرى مع أنني أعلم جيداً، أنهم كانوا يتحدثون بالسياسة قبل دخولي:

- ياهو، ماذا حلّ بنعجتك، ألم تلدِ بعد؟

- ولك يا ابني، لقد زاد سعالك أيضاً، من الأفضل أن تعرض نفسك على الطبيب هذا الأحد...

وأحاديث على هذه الشاكلة، أحاديث ليس لها بداية، وبدايتها لا علاقة لها بنهايتها ومعظم الأحاديث من هذا النوع،

ثم يتظاهرون بأنهم شاهدوني فجأة، فوضعوا أياديهم اليمنى على صدورهم، ثم يبدأ السلام والترحيب، لماذا لا يثقون بي؟ لا أعلم؟، مع أنهم يعرفون أنني من اتجاههم، أو يعني يجب أن يعرفوا ذلك، فأنا أيضاً ابن قرية، ولكني ذهبت إلى المدرسة وتعلمت القراءة والكتابة قليلاً، وأصبحت "شقفة أستاذ"، فهل اقترفتُ ذنباً بذلك؟، دائماً يبتعدون عني، وكل جهدي ومحاولاتي باءت بالفشل، مضت سنتان ولم أستطع التآلف معهم. كان الشاويش جمال الملجأ الوحيد الذي يقدم له المشورة في أمور السياسة،وكنت أناديه بالعم جمال.

ذات يوم، اقتربت من المقهى، فسمعت صوت الشاويش جمال عن بعد،

كان يصرخ بصوت مرتفع. دخلت المقهى: طِسْ!...

لاصوتَ يصدر عن أي منهم، ولأن الشاويش جمال لم يستطع إتمام حديثه فقد احمر وجهه كالشوندر، وخاصة أنفه الكبير الذي صار مثل عرف الديك الحبشي. طبعاً، كان يصرخ خلال مناقشة سياسية حادة، ولكن صوته انقطع، عندما دخلت بشكل مفاجئ، حتى أن نَفَس الكلمة الأخيرة، بقي في داخله

- ياهو، ماذا يكون اليوم؟

- إني أقول، يجب ن أصلح سقف غرفة التبن، وذلك قبل بداية المطر...

- أين المطر؟...فالجفاف هذه السنة أكبر وأعم من السنة الماضية، والهلاك قادم.

- ذهل الشاويش عندما وقع بصره عليَّ فجأة، فقال:

- مرحباً يا أستاذ...

- مرحباً يا عمي جمال...

ثم بدأ ترحيب الآخرين، ولأنني أريد التكلم مع الشاويش جمال وأنا أشرب الشاي، قلت:

- يا عم جمال، سأستشيرك بشيء. إذا سمحت.

- تفضل يا أستاذ...

- ألم يحدث ٢٧ أيار.

- نعم، حدثَ يا أستاذ.

- برأيك يا عم جمال، لقد حدثَ ٢٧ أيار، مالذي صار؟ يعني ماذا تغير في البلد؟

بعد أن عبثَ بشاربيه، ونال وقتاً جيداً للتفكير، قال لي:

- أنا لا أفهم في السياسة، يا أستاذ، لقد حدثَ ٢٧ أيار، مالذي صار؟ أنا ماذا يدريني؟، سأروي لك بعض أحداث الماضي، فاصغ إليَّ!

علمتُ أنه لن يجيب بشكل مباشر بسبب حذره.

قلت له:

- تفضل يا عم جمال، أنا أصغي إليك...

بدأ يتكلم:

- كان شكري أفندي رجلاً غنياً في ضيعتنا، وكان هناك رجل فقير جداً يدعي يايلي يحيى، يلقبه الناس بـ "ايلي"[١٣] لأنه كان أعرج، ويتمايل في مشيته كالرصّور، والاثنان انتقلا إلى رحمة الله.

في أحد الأيام، بينما كان شكري أفندي يقود التراكتور، متجهاً إلى بازار البلدة شاهد في الطريق يايلي يحيى وهو يعرج، حافياً، متجهاً إلى بازار البلدة أيضاً، فأشفق عليه وقال: "أنا ذاهب إلى البازار، اركب لآخذك معي"، صعد يايلي يحيى إلى التراكتور وجلس إلى جانب شكري أفندي. وبينما هما يتحدثان ويضحكان على الطريق، قال شكري أفندي الذي يحب المزح كثيراً: "ولك يايلي يحيى، انظر هنا فوق الطريق، لقد راثت الجاموسة هناك، ومازال البخار يتصاعد من الروثة لأنها طرية، هل رأيتها؟ العصافير تأكل من فوقها".

قال يايلي يحيى "نعم، رأيتها".

قال شكري أفندي: "يايلي يحيى، إذا أكلت هذه الروثة وابتلعتها كلها، سأعطيك هذا التراكتور".

فكر يايلي يحيى، أيأكل الروثة؟ أم لا؟ لقد أكل الكثير من "القذارة في حياته، وهي ليست المرة الأول التي يأكلها..

فهو أكل منذ زمن طويل... وما زال حتى الآن؟... إذا أكل روثة صغيرة كهذه فسيصبح التراكتور بحجمه وكبره، ملكه هو.

---

[١٣] يايلي يحيى: تعني يحيى ذو الرصّور، وهو لقبه

نزل من التراكتور وقرفص أمام الروثـة، وأكلهـا كلهـا، مسـحها مسـحاً. ولأن شكري أفندي رجلٌ عندَ كلمته، قال له:

"لقد استحقّيته ولك ايلي يحيى، تفضل، التراكتور، مُلكك الخاص!"

جلس يايلي يحيى أمامَ المقوَد هذه المرة وبدأ يقود التراكتور حتى وصلا إلى البلدة، وبعد انتهاء عملهما مساء قررا العودة إلى الضيعة. وبما أن يـايلي يحيـى هو صاحب التراكتور:

"هيا يا شكري أفندي، اركب لأوصلك إلى الضيعة".

ركب شكري أفندي، بجانبه على التراكتور، وشرعا يتحدثان ويضحكـان في طريق العودة. والشمس مالت إلى المغيب...

لنرجع إلى يايلي يحيى فَـ "الروث" الذي أكله، لا يفارق ذهنه، وهو يفكـر ويخطط: "ماذا سأفعل حتى أرد "أكل الروث" إلى شكري أفندي"؟

وبينما هو على هذه الحال، شاهد على الطريق، روثة طرية يتصاعد البخار منها؟!...

نظر إلى شكري أفندي وقال له: أريد أن أقول شيئاً؟

"تفضل يا يايلي يحيى".

"هذا التراكتور لي الآن، أليس كذلك؟...".

"نعم، إنه لك يايلي يحيى...".

"انظر، هناك يوجد روثة جاموس يتصاعد منها البخار، هل رأيتها؟"

"رأيتُها يايلي يحيى".

"إذا أكلتها وابتلعتها حتى النهاية، سأعطيك التراكتور".

أما شكري أفندي فكان يلوم نفسَه لأنه أعطى يايلي يحيى التراكتور مقابل روثةٍ أكلها، وكان يقول لنفسه: ماقلّة العقل هذه التي عملتها؟

وكان يفكر بطريقة لاسترجاع التراكتور.

وعندما قال يايلي يحيى ماقاله، قال شكري أفندي: هذه فرصتي، لاسترجع التراكتور، وعلى الفور قفز من التراكتور، وقرفص أمام الروثة وأكلها كلها، ومسحها مسحاً.

وعند ذلك قال يايلي يحيى: تفضل لقد استحقّيت التراكتور وسلم المقود إلى شكري أفندي.

كان الاثنان فوق التراكتور وهما عائدان إلى الضيعة، وحتى حينها كانا يتحدثان من هنا وهناك ويضحكان، ولكنهما سكتا فجأةً، وبعد أن سارا فترة بدون أية كلمة، سأل شكري أفندي:

- "بماذا تفكر؟ لماذا أنت صامت؟"

أجابه يايلي يحيى:

- "أنت أيضاً بماذا تفكر، لماذا أنت صامت؟"

قال شكري أفندي:

- "تحدث أنت أولاً، ثم أتحدث أنا".

قال يايلي يحيى:

- "في الصباح، عندما خرجنا سوية من القرية، كان هذا التراكتور لكَ، أليس كذلك؟".

- "نعم، كان لي".

قال يايلي يحيى:

- "والآن حلّ المساء، ونحن عائدان إلى القرية، والتراكتور لكَ أيضاً، في الصباح لما خرجنا من الضيعة، أنا لم يكن لدي تراكتور، والآن ونحن نعود إلى الضيعة، أيضاً ليس لدي تراكتور...."

- "نعم، هكذا يايلي يحيى!".

في ذلك الوقت قال يايلي يحيى:

- " التراكتور أيضاً لك، وأيضاً أنا لا أملك شيئاً، يعني لم يتغير شـيء، إذاً أنا لماذا أكلت هذا "الروث"؟".

أجابه شكري أفندي:

- "أنا أيضاً كنت أفكر بهذا الأمر، بما أن الوضع هكذا، فلماذا أكلت أنـا أيضاً ذلك "الروث"؟ "

ثم نظر الشاويش جمال في عينيَّ، وبدأ يمسد شاربيه، حتى يعـرف فيمـا إذا فُهم كلامه، إليّ، وقال:

- هكذا، يا أستاذ.

كانت الكلمات المستهجنة التي قالها الشاويش جمال، أروع وأفضل شـيء ذَكرَه في الحقيقة، أنا لا أحب المستهجَن، ولكن أحببت كلام الشـاويش، لأن كلامه مميز، فكل كلمة قالها، تدل على الحقيقة

قلت:

- يا عم جمال، هنالك شيء يشغلني.

- ما هو هذا الشيء يا أستاذ، الله يرضى عليك لا تُبحبش ولا تُنكش.

- أنا لا أنكش ولا أبحبش، ولكن الموضوع يشغلني، وأَود أن أستشيرك.

- تفضل يا أستاذ...

- ألم تحدث عندنا منذ فترة تلك الحادثة والتي تسمى ١٢ آذار.

- نعم حدثت.

- إنها حدثت، ولكن ما الذي صار؟، ماالتغيرات التي طرأت؟

ومثل كل مرة، أخذ يعبث بشاربيه حتى تتسنى له فترة كافية للتفكير، ثـم قال:

- أنا أقول لك دائماً، ولكني لا أستطيع إفهامك يا أستاذ، أنا لا أفقه شيئاً في الأمور التي تدعى، سياسة....، وقعت حادثـة ١٢ آذار، ولكـن مـا الـذي

صارَ؟ أنا ماذا يدريني؟......، سأشرح لك أيضاً من الحوادث الماضية، فاستمع لي.

هذا الكلام كان دائماً مقدمة الشرح الذي يشرحه.

قلتُ:

- أنا أستمع إليك، وكلي آذان صاغية يا عم جمال...

بعد أن مجّ مجة من سيجارته التي وضعها في مشرب مصنوع من جذور الورد الجوري، بدأ يتكلم:

- لما كنا أطفالاً، كان عجائز القرية يروون لنا: في الماضي، كان يوجد في البلدة فتىً يدعى "الشاب شاليق"، وكان أهبلاً. وفي أحد الأيام، حضر أحد وجوه القرية إلى البلدة ويدعى "قَميش آغا" رحمه الله، وكان "الشاب شاليق" جالساً وسط البازار، وهو يبكي وينوح، فسألوه: "لماذا تبكي ياشاب شاليق؟".

فقال "الشاب شاليق": "لي أم عجوز وهي على حافة القبر، أما أبي فهو شاب وبطل، آه لو تموت أمي العجوز، ويتزوج أبي البطل بعروس صبيّة.... وبما أن أبي يحب هذه العروس التي ستأتي إلى البيت وأحبها أنا أيضاً.. فلذلك أبكي وأدعو..."

طبعاً، مرحومنا "مميش آغا" ضحك كسائر الموجودين من كلام "الشاب شاليق" غير العقلاني، وتابع سيره.

بعد مرور سنوات، نزل "مميش آغا" في أحد الأيام إلى بازار البلدة فماذا شاهد؟ رأى "الشاب شاليق" وسط البلدة وهو يبكي ويدعو ولكن هذه المرة من قلب مجروح أكثر من المرة الماضية وهو يشد شعره ويمزق ثيابه...

فسأله "مميش آغا": "ولك يا ابني، يا شاليق، ما هي مشكلتك أيضاً؟"

فقال "الشاب شاليق": "كنت أدعو أن تموت أمي، ويتزوج أبي البطل من

عروس صبية، يحبها هو وأنا أحبها أيضاً. تحقق دعائي ولكن بـالعكس، فبـدلاً من أن تموت أمي، مات أبي البطل، وبدل أن تأتي عـروس صبيـة إلى البيـت، أتى فتى بطل إلى البيت، وعندما كنـت أنظر أن تحـب العـروس الصبيـة أبـي وتحبني، أصبح ذلك الرجل -زوج أمي- يحب أمي ويحبني أيضاً، فإذا لم أبـكِ أنا فمن سيبكي؟..."

ومرحومنا "مميش آغا" كان يتكلم هكذا.

ولكي يعرف الشاويش جمال فيما إذا كنت فهمـت قصـده أم لا، نظـر في عينيّ كعادته، وقال:

- ١٢ آذار، ٢٢ آذار، لا أعرف، لقد بقيت هذه الحادثة في ذاكرتـي مـن الماضي، وها أنا ذكرتُها لك...

بما أن الشاويش جمال بدأ ينفتح عليّ، أردت أن أعرف المزيد.

- الله يحميك يا عم جمال، يسلم لسانك...، هناك شيء آخر يشغلني.

- ياهو.. يا أستاذ، شايف رأسك تحوّل إلى سوق "تشـفِط"[١٤]... مـالذي يشغل بالك أيضاً؟

- هذه... أمور اليونان؟

- وهل انتهت أمورنا، حتى تبقى علينا أمور اليونان يا أستاذ؟ دعنـا نهتـم بأمورنا...

لقد فتحت الموضوع عن اليونان تحديداً، وهكذا وصل الحديث إلى النقطـة التي أريدها. قلت:

- إذا أردت الحقيقـة يـا عـم جمـال، لقـد اسـتلم العسـكريون الحكـم في اليونان، ولذلك فتحت موضوع اليونـان... نعـم، لنـأتي إلى أنفسـنا، برأيـك

[١٤] تشفط: هو سوق يحوي كل شيء بطريقة فوضوية وغير منظمة

كيف الوضع عندنا؟ ماذا سيحل بنا يعني؟ ماذا تقول عن أوضاعنا؟

بدأ يعبث بشاربيه، بالتأكيد كان يحاول أن يربح الوقت الكافي حتى يعطيني جواباً، وبعد فترة من الصمت، قال:

- دعكَ من هذه الأمور الآن، لأحدثك عن أشجار الحور التي زرعتُها أمام بيتنا.

ولأني أعلم أنه سيجيب كالعادة بطريقة غير مباشرة، أصغيت إليه بكل انتباه وقلت:

- تفضل يا عم جمال أنا أسمعك...

وبدأ يتكلم:

- أمام بيتنا، يوجد ٤ شجرات حور... أول واحدة منها، زرعها والد جدي، رحمه الله، جدي الكبير زرع هذه الحورة في فترة الاستبداد لماذا زرعها؟ لأن السلطان عبد الحميد عندما افتتح مجلسه، فرح جدي الكبير كثيراً، وبنتيجة ذلك الفرح زرع شجرة الحور تلك أمام بيتنا وذلك على شرف افتتاح المجلس، تلك الشجرة استطالت وكبرت حتى وصل رأسها إلى سقف بيتنا.

مرت سنوات، وسقط عبد الحميد من الحكم، يعني انتهى الاستبداد، وبدأت فترة "المشروطية* "، واستلم الحكم (أنور باشا)، في ذلك الوقت لم يكن جدي الكبير حياً، ولكن كان جدي الأصغر، ولأن فترة الاستبداد انتهت وأقبلت مرحلة الحرية، فرح جدي كثيراً، ولشدة فرحه زرع شجرة حور أخرى بجانب التي زرعها جدي الكبير. وذلك حتى تبقى ذكرى الحرية، كبرت شجرة الحور التي زرعها جدي وكبرت، حتى اجتاز رأسها سقف بيتنا

---

* المشروطية: نظام حكم، يوجد فيه مجلس شعب ولكن بقيادة السلطان.

كما انها اجتازت المدخنة.

مرت سنوات... ومات جـدي أيضـاً، وأشرقت شمس الجمهورية لكـن المرحوم جدي لم يرَ الجمهوريـة، ولما أُعلنـت الجمهوريـة، فـرح أبـي كثـيراً، ولكي تبقى ذكرى إعـلان جمهوريتنـا زرع أيضـاً شـجرة حـور بـالقرب مـن شجرة جدي، وهذه الحورة كبرت كثيراً، وأصبحت أطول من شجرة جـدي الصغير، وأطول من شجرة جدي الكبير...

مرت سنوات.. وجاءت الديمقراطية، وأصبح لدينـا تعدديـة في الأحـزاب، الشـكر لله... أبـي المرحـوم لم يستطع أن يـرى الديمقراطيـة. لمـا جـاءت الديمقراطية إلى بلادنا، فرحتُ كثيراً، واتبعت العادة الـتي أتـت مـن أجدادنـا، فحتى تبقى ذكـرى الديمقراطيـة زرعـت أنـا أيضـاً شـجرة حـور أمـام بيتنـا، والشجرة التي زرعتها كبرت وكبرت...

عندما كان الشاويش جمال يتكلم عن كبر حورتـه، أخفـض صوتـه حتـى أصبح مغمغاً:

- كبرتْ، كبرتْ، كبرتْ...

وضع يده اليمنى على حنجرته وأمسك رقبته وقال:

- كبرتْ، كبرتْ، وصلت معنا إلى هنا، وطفح الكيل.

سكتَ كالعادة وبدأ يمسّد شاربيه وحتى يعـرف إذا فهمـت قصـده أم لا، نظر إلى عينيّ كعادته، ثم نادى للجرسون:

- جدّد شاي الأستاذ، يا ابني...

- ٢٣ -

أين كان كيلوتكِ يا ابنتي

لن أقول ما هو اسم تلك الفتاة الشابة التي ذهبت إلى لندن من أجل إكمال تعليمها العالي، وذلك حتى لا تُعرف من هي، ولكنها عادت بعد خمسة عشر يوماً فقط من ذهابها وفاجأت عائلتها بذلك. ماذا حصل لتلك الفتاة حتى عادت فوراً من لندن؟ فبعد وصول البرقية -التي تؤكد وصولها إلى لندن- بأسبوعين تماماً، عادت إلى البلد، ولكنها كانت راغبة جداً في الذهاب إلى لندن لإكمال دراستها... كانت ستدرس الأدب الانكليزي. لا يمكن أن يكون سبب عودتها أنها لا تعرف اللغة، فقد حصلت على المرتبة الأولى في البكالوريا التي تُدرَّس جميع موادها باللغة الانكليزية، وكذلك لا يمكن أن يكون سبب عودتها هو عدم كفاية نقودها، فقد كان وضع عائلتها المادي جيدٌ جداً، فعندما سافرت، أخذت بطاقة اعتماد معها. بالإضافة إلى العملة الصعبة الوفيرة التي أعطاها إياها والدها. وعندما كانوا يجلسون بالمطار بانتظار ركوب الطائرة، سحبتْ الجدة حفيدتها وهمست في أذنها:

- لا تعلمين ما يحدث يا ابنتي، خذي هذه النقود وخبئيها في مكان جيد لديكِ، أنت ذاهبة إلى الغربة، ربما يحتاج الأمر ذلك...

كانت الجدة تكرر هذه المقولة كلما أعطت نقوداً لحفيدتها:

"ربما يحتاج الأمر".

كانت الجدة متأخرة ٣٠سنة إلى الوراء عن الزمن الذي تعيش فيه: أي قبل أن تُخلق حفيدتها باثنتي عشر سنة، فبهذه النقود التي أعطتها إياها الجدة والتي قالت عنها "ربما يحتاج الأمر"، يمكنها شراء سندويشة أو كأس ليمون

فوقها. الجدة -مثل كل الناس- تعلم أن الحياة تزداد صعوبة ولكنها لا تعلم ما هو حجم تضخم العملة، ولكنها تعرف شيئاً واحداً، بقولها "ربما يحتاج الأمر" بعد أن تعطي حفيدتها الراتب الشهري للمرحوم زوجها.

خبأت الفتاة الشابة المبلغ في المكان الأكثر سرية عندها -على أساس- لقد خبأته في جيب بنطالها الخلفي، وذلك كما تفعل في كل مرة تأخذ النقود فيها من الجدة.

ترى هل واجهت تلك الفتاة وضعاً سيئاً في لندن؟ ماذا حدث حتى عادت بهذه السرعة؟ أثار ذلك الفضول الجدة بالدرجة الأولى، فقد نشأت الفتاة وكبرت بين يدي جدتها، وكان جميع أفراد العائلة يحبون هذه الفتاة الشابة، إلا أن حب الجدة كان من نوع آخر، فقد كانت متعلقة بحفيدتها، ولهذا السبب، كانت عودة حفيدتها من لندن بهذه السرعة، يثير فضولها كثيراً.

كانت الجدة من النوع الذي على وشك الانقراض، إنها خانم استانبولية قديمة، مثلاً: لم تكن تستخدم الخزانة التي توضع في غرفة النوم والتي اسمها "الشيفونيرا" فهي مازالت تستخدم صندوق ملابسها المزخرف والمصنوع من خشب الجوز.

بالإضافة إلى "قونسول"[١٥] بمرآة. صندوق الملابس ذو السقف المرمري و"القونسول" بمرآة، مع بقية الأغراض، جاءت بهم معها كجهاز للعرس من بيت والدها، وذلك عندما تزوجت وهي ابنة ستة عشرة سنة، كان يوجد ضمن ذلك الصندوق ملابسها الداخلية المحفوظة ضمن صرّة مطرزة تفوح منها رائحة ورد "اللاونتا" اليابس، هذه وردة "اللاونتا" اليابسة كانت تبيعها نساء الغجر في الأحياء وهنَّ يصرخن: "يوجد لدينا وردة اللاونتا وعطر

---

[١٥] قونسول: طاولة تستخدم من أجل الماكياج حالياً

القنطرة"، كانت الورود توضع في أكياس من "التولبنت"[١٦]، ويوضع بين الملابس وأطقم الأسرّة. كانت الجدة تعرف من بين الروائح، ورد اللاونتا وكولونيا الصنوبر والليمون وماء الورد الجوري الذي يستخدم في دهن الأيدي في الحفلات التأبينية، كما يستخدم في صنع بعض حلويات رمضان، أما زيت الحج الذي يسمى عطر الجوري والذي جلبه زوجها من الحج، فقد كانت تراه ثقيلاً ولذلك لم تستخدمه. أما العطور المختلفة التي تستخدمها حفيدتها وشباب هذه الأيام فهي لا تعرف اسماءها.

رغم كبر سن الجدة، فهي لم تكن منطوية في وجه التطور. ولكن ضميرها لم يقبل أن يضيع جمال تلك الأيام. مثلاً: هذه حفيدتها وحبيبة قلبها تعرف أشياء كثيرة ولكنها حتى الآن لا تعلم ماهي "النيلة"، فبعد غسل الثياب البيضاء في الماء الغالي، تُعصر وتُبرّد وبعد ذلك، توضع في ماء النِّيلة، وعندما تنشر على الحبل وتثبت بالملاقط، كانت الملابس والشراشف ترفرف كغيوم بيضاء سماوية، آه من موضوع الثياب! فهي لم تستطع أن تفهم ابنتها وحفيدتها، أهمية هذا الموضوع.

في بيوت ذلك الزمان، كانت أيام الغسيل أشبه ماتكون بقداس أو حفلة أو شيء... شيء...، كيف سأقول، كانت كل شيء. ملابس النسوة الداخلية، مثل قمصانهن الداخلية والكيلوتات فاللباس الداخلي المغسول للمرأة لم يكن يُنشر في الجنينة ولا على النوافذ المطلة على الشوارع، ولا على الشرفات، -حاشى الحضور- هكذا كانت تقول الجدة، فمرحومها لم يرَ كيلوت الجدة منشوراً ولو لمرة واحدة.

وحتى تغيظها حفيدتها كانت تسألها:

---

[١٦] التولبنت: قماش ناعم ذو مسامات يستخدم كبطانة

- إذا رآه، فماذا يحدث يا جدتي؟

ربما لم تكن الجدة تعرف بماذا تجيب، فكانت تجيبها بشكل نصفه مزاحٌ ونصف جدٌ.

كانت الجدة ضد عملية شراء النسوة من الباعة الرجال أشياء خاصة بهن، مثل حمالات الصدر والكيلوت والقميص الداخلي، الآن هذا الشيء الذي يقال له كيلوت عبارة تلفظ عن قطعة قماش بحجم الكف، والرجل البائع يمسك قطعة القماش هذه بيده ويفركها بيده ويلمسه هنا وهناك، وكأن المرأة ترتديه، يفعل ذلك بينما ينظر في عيني المرأة المشترية...

ماذا تقول الجدة إذاً لو رأت النساء اللواتي يرتدين المايوهات على الشاطئ؟

لم تكن الجدة تعارض ارتداء المايوه على الشاطئ، لأن الجميع يكونون عراةً هناك. فالجدة في شبابها "في أيام المرحوم"، ذهبت مرتين أو ثلاثة إلى حمام الموضة البحري وذلك في أيام حر الصيف، ولكن النسوة فقط من كل عائلة يذهبن إلى ذلك الحمام البحري المسوّر بسور خشبي، وكانت النساء تفعل هنا ما تفعله عند الذهاب إلى حمام النساء العادي، فقد كن يأخذن معهن الطناجر المليئة بالمحاشي وحلاوة السميد وسلطة البندورة وغيرها من المأكولات، ثم يجلسن على حَجَر الحمام ويبدأن بالضحك واللعب، هذا الشيء كانت تفعله النسوة في حمام البحر أيضاً...

كانوا يأخذون إلى الحمام البحري أشياء باردة مثل العنب، والبطيخ، والجبَس. أخذت الجدة إلى غرفتها القونسول الذي يوضع في غرفة الضيوف للزينة، وإلى أعلى القونسول المؤلف من خمسة أدراج، وباتجاه الخلف قليلاً، كانت توجد مرآة من الكريستال مزينة بالمرمر وإلى الجانبين يوجد فانوسان، حيث في ذلك الزمان لم تكن الكهرباء منتشرة في استانبول كما هي الآن.

لم ترَ الجدة تلك الفوانيس مضاءة أبداً، فقد كانوا يشعلون عدة أنواع من لمبات الغاز، الفوانيس كانت للمنظر فقط، أما شمعاتها الجبَسية، الملونة بالأخضر فهي تشبه التنانير المكسّرة الخاصة بالخواتم في ذلك الوقت.

كانت الجدة تقول عن الفانوس "فرنوس"، لم تكن شركسية ولكنها كانت ربيبة خانم شركسية في السّراي، ولذلك تستخدم اللغة التركية بلهجة النساء الاستانبوليات القديمة، حتى لو كانت مغلوطة، كانت تُنغّم الحروف الصوتية عندما تتكلم، مثلاً كانت تقول عن الفانوس "فرنوس" والمرحوم عدنان بك تقول له:

"أدنَان بكْ" وتقول عن اللسان "ليسان"، لم يكن يُشبع من سماع كلامها، تتكلم اللغةَ التركية كأنها تمص قطعة سكر وتقلبها بين لسانها وسقف حلقها، تزوجت وهي ابنة خمسة عشرة سنة ونصف، وعندما توفي زوجها ترمّلت عن واحد وعشرين عاماً، ولم يكن في حياتها رجل آخر، طلبها الكثيرون ونصحها الكثيرون بالزواج، ولكنها لم تشأ أن تترك ابنتها ذات الأربع سنوات تحت رحمة زوج الأم، مضت أيام صعبة مع راتب زوجها الضئيل، لم تلامس يدها رجل آخر سوى مرحومها، حاولت بشتى الوسائل ألا تخرّب دوزان البيت الذي صنعه المرحوم، كبرت ابنتها وتزوجت وصارت هي الأخرى أماً لطفلة، وهذه هي الحفيدة التي عادت بعد أسبوعين إلى لندن التي ذهبت إليها من أجل الدراسة.

أيْسَل... أي ي ي... على أساس أنني لن أقول ماهو اسمها حتى لا تُعرف من هي الحفيدة، ماذا سنفعل، إنها زلة لسان، لقد حصَل ذلك، ولكن اسم أيْسل ليس فريداً، فهناك الكثيرات يحملن هذا الاسم.

عندما جاءت أيْسَل في منتصف الليل، كانت الجدة نائمة، دُهشت الأم أولاً عندما رأت ابنتها في ذلك الوقت غير المتوقع، وتساءلت ثانياً لماذا عادت

من لندن بهذه السرعة. قالت أيسل:

- لقد كتبت سبب عودتي من لندن في البرقية التي أرسلتها إلى أبي

دهشت الأم أكثر وأكثر:

- آ آ آ......! أرسلتِ برقية إلى والدك؟،

نظر الأب والابنة إلى بعضهما، قال الأب:

- لم أخبركم حتى لا أقلقكم، كما أن البرقية كانت قصيرة هذا نصها: "سُرقت نقودي وجواز سفري، راجعة"، هكذا فقط، أنا أيضاً لا أعلم ماهي التفاصيل.

لم يستطع الأب أن يذهب لاستقبالها في المطار لأنها لم تخبره في البرقية عن الطائرة التي ستأتي فيها

قالت الأم:

- على الأقل، الانسان يتصل بالتلفون...

قالت:

- لم أشأ أن أشغلكم

سألت الأم:

- كيف سُرقت حقيبتك؟

أجابت البنت:

- أي ي ي... إني متعبة جداً يا أمي ونعسانة أيضاً... في الصباح أخبرك بكل شيء، وفي الوقت نفسه تسمع جدتي أيضاً.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ناموا جميعاً، وكانت الجدة أول من استيقظت في الصباح وعندما علمت أن حفيدتها عادت، فقد أثارت العودة فضولها.

عندما جلسوا على طاولة الفطور، كانوا ينظرون جميعاً إلى فم أيسل،

ولكن الجدة كانت أكثرهم انفعالاً، فكأن مصيبة وقعت على رأسها عندما رأت حفيدتها أمامها بشكل مفاجئ، ثم ضمّت أيسل وبدأت تشهق وتبكي، بدأت أيسل تتكلم:

- كان أمامي خمسة عشر إلى عشرين يوماً حتى أسجل في الجامعة، قلت لنفسي، سأبقى في البانسيون أو الفندق، حتى أتعرف إلى لندن وأزور متاحفها. قاطعتها الجدة التي لم تخرج خارج استانبول في حياتها:

- ماهو شغلك في الفنادق والأوتيلات يا بنتي.

ثم التفتت إلى صهرها وقالت:

- ألم أقل لك، أن فتاة صغيرة بهذا العمر لا تُرسل إلى لندن.

أعترضت أيسل قائلة:

- يا جدتي، لم أعد صغيرة!...

قالت الجدة:

- المهم تكلمي، هيا تكلمي...

تابعت كلامها:

- وجدتُ عدة بانسيونات، ولكن أجورها مرتفعة، فكرت أنني قد أجد بعد الظهر فندقاً رخيصاً يتناسب مع ميزانيتي.

كانت جدتها تضرب على ركبتها، وتقاطع كلام أيسل:

- يا إلهي يا إلهي.... ماهو البانسيون، فتاة صبية وتبيت في البانسيون تكلمي. تكلمي.

تابعت أيسل كلامها:

- كما تعرفون، عندما ذهبت من هنا، أخذت معي حقيبة كبيرة ومحفظة كتف، بالإضافة إلى محفظة اليد، ومحفظة اليد صغيرة لم تتسع إلا لدفتر الهواتف ودفتر الملاحظات ومشط وأشياء كهذه، أما ملابسي فقد كانت في الحقيبة

الكبيرة، وكنت أضع ملابسي الداخلية ، ونقودي، وشهادتي، ووثيقة التسجيل في الجامعة، وجواز سفري، أي جميع الأشياء اللازمة والمهمة، ومجوهراتي جميعها كنت أضعها في محفظة الكتف، التي أصبحت ثقيلة جداً... كنت مارة بجانب محلٍ بيع السندويش، وقد أخذ مني الجوع.

لم تطقِ الجدة صبراً وقالت:

- واخ، واخ يا ولَدي.

تابعت أيسل:

- فكرتُ، آكل سندويشة هناك إضافة إلى كوب من عصير البرتقال. وضعت الحقيبة الكبيرة على الأرض، وبمجرد أن وضعت محفظة الكتف مرت بجانبي ريحٌ سوداء، عندما أدرت رأسي حتى أعرف ما يجري، ماذا تتوقعون أن أرى...

شخص زنجي ضخم يمسك محفظة كتفي وينطلق كالريح.

لم تستطع الجدة أن تتمالك نفسها، صرخت:

- أي، واخ! كانت ملابسك الداخلية في داخلها أليس كذلك؟

تابعت أيسل كلامها وكأنها لم تسمع جدتها:

- صرختُ فجأة: "إنه سارق، الحقوني"، صرخت بالتركية من شدة اضطرابي ثم عُدت إلى صوابي وصرخت بالإنكليزية. أتى الجرسون وأراني الكتابة على الجدار:

"انتباه! احفظوا أغراضكم -مثل المحفظة والأكياس والعلب- من السارقين!"

فهمت في ذلك الوقت أنه لا فائدة تُرجى من أحد، تركت حقيبتي الكبيرة هناك وبدأتُ أجري خلفه.

لم تستطيع الجدة أن تتمالك نفسها فسألت أيضاً:

- هل كانت كيلوتاتك موجودة ضمن ملابسك الداخلية؟
- طبعاً يا جدتي، أين سأضعها؟
- أي، واخ أي واخ!... اركضي وامسكي به.
تدخل والد أيسل:
- دعينا من الكيلوت والميلوت يا سيدتي، لديها عملة صعبة "قد الدنيا" ومجوهرات وبطاقة اعتماد. وبعد ذلك؟
- بعدها، السارق يركض وأنا أحاول اللحاق به... هو يركض وأنا أركض وهذا الزنجي بطولي مرتين تقريباً.
تدخلت الأم بانفعال:
- لقد بدا لك هكذا بسبب انفعالك.
- كان رجلاً كالعفريت، وأسوداً كالفحم... وكل خطوة يخطوها تبلغ متراً أو أكثر.
صرخت الجدة:
- أمسكي به، امسكيه قبل أن يرى كيلوتاتِك...
قالت الأم:
- علّق معكِ الكيلوت، كيلوت ياأمي، هناك أشياء كثيرة أهم من الكيلوت كانت البنت تحمل نقوداً، ومجوهرات، وجواز سفر... وتتكلمين أنتِ عن الكيلوت؟
قال الأب:
- وهناك شهادتها ووثيقة القبول في الجامعة أيضاً.
لم تستطع الجدة التوقف:
- يا وَيْلي، كلها كيلوتات مستعملة أيضاً، وإذا وصلت إلى يديه!
- كلها كانت نظيفة ومغسولة، هكذا أفضل.

قال الجدة:

- نعم، هكذا أفضل له، كلها كيلوتات مغسولة وتخص بنت صبيّة أيضاً، بالإضافة لذلك فهو زنجي، وتقولين أنه ضخم أيضاً.

- تكلمي يا أيسل، وبعد ذلك؟....

- بعد ذلك....

سألت الجدة:

- المهم أن تكوني قد استرجعتِ كيلوتاتك؟

- كان الرجل عدّاء، وكأنه عاصفة أو إعصار، كنت أقترب منه أحياناً حتى يبقى بيننا خمس أو عشر خطوات، ثم يفتح المسافة مرة ثانية، أنا تعبت وانتهيت، وتسبّحت بالعرَق، وتمنيت اللحاق به والقبض عليه...

- أمان، أوعي ها.... إذا أمسكتِ به فماذا سيفعل بكِ...

تدخلت الجدة في الكلام وقالت:

- خذي كيلوتاتك وستيانِك وقمصان نومك واتركي المحفظة مع الزنجي...

- هو يركض وأنا أركض.

- ألم يساعدك أي من عباد الله؟

- هناك في لندن، كل واحد له همّه.

- تعثرت قدمي عدة مرات وتدحرجت، انقطع نَفَسي أخيراً وانبطحت على الأرض، أما الرجل فقد لف الزاوية واختفى عن الأنظار.

- نعم، طيب، ماذا حلّ بكيلوتاتك، هل بقيت مع الزنجي؟

- أمان يا جدتي، إنك تقولين كيلوت، ولا تقولين شيئاً آخر، أنا أقول لك أنه كان يوجد في تلك المحفظة، شهادتي وجواز سفري ووثيقة قبولي في الجامعة أيضاً... كلها كانت في تلك المحفظة

- الكيلوت شيء، وهذه الأغراض شيء آخر ياابنتي، ماذكرتيه كله عبارة عن قطع ورق، هل الكيلوت مثلها؟

- الكيلوتات عبارة عن قطع قماش أيضاً...

- عندما يجد كيلوتاتك في المحفظة...

لم تجد الجدة أن إكمال عبارتها هو شيء غير مناسب بحضور صهرها.

قالت أيسل:

- يا جدتي، إن ذلك الرجل لا يعرفني ولا أعرفه، ثم أنني لست داخل الكيلوت...

قالت الجدة التي انزعجت كثيراً:

- إنك لا تفهمين، لا تفهمين، صحيح أن الرجل لا يعرفك ولكنه يتخيلكِ وكأنك داخل الكيلوت...

ولأن الجدة لم تستطع أن تشرح قصدها فقد كانت منزعجة وعابسة نعم: الزمن كان متغيراً، ولكن هل يُعقل أن يكون قد تغّير إلى درجة أنهم لا يجدون عيباً في وقوع كيلوت بنت صبية في يد رجل غريب، وزنجي أيضاً... لم تكن البنت الصبية هي الوحيدة التي لا تفهم، ولكن أمها وأباها لا يفهمان أيضاً.

قالت الجدة بعصبية:

- أمان، أفعلو ما شئتم.

واضح أنها زعلتْ، وكما تفعل أيسل دائماً فقد ضمت جدتها وقبّلتها.

شرحت أيسل لأمها وأبيها وهم على طاولة الفطور، ماذا فعلت فيما بعد، لما فقدت الأمل من المحفظة، عادت إلى المكان الذي كانت تتناول فيه السندويش، وشربت كأس عصير باردة، ثم بدأت تفكر كيف ستدفع ثمن ما أكلته وشربته، هل ترهن ساعة اليد الثمينة أم ترهن قلم الحبر المذهّب الذي

أهداها إياه والدها، فجأةً خطر ببالها ما قالته لها جدتها لحظة توديعها في المطار: "أمان، خبيئها في مكان جيد مناسب، قد يحتاج الأمر"، وتذكرت الجنيهات الاسترلينية التي أخذتها منها وخبأتها في جيب بنطالها الخلفي، فاض الفرح بها، بعد أن أدّت دينها، بقي لديها نقود أيضاً، اتصلت بوالدها، ولكن لم تخبرهم أن محفظة كتفها قد سُرقت حتى لا ينشغلون فهذا ستقوله لهم لاحقاً. من حسن الحظ أنهم لم يسرقواحقيبتها التي تركتها عندما ركضت وراء السارق. ثم ذهبت إلى العائلة الانكليزية التي أعطاها أبوها عنوانهم وقال لها، راجعيهم عندما يضطر الأمر، كان بإمكانها أن تستدين من تلك العائلة، لكنها ذهبت إلى السفارة التركية في اليوم التالي وقصت عليهم ما جرى لها وطلبت منهم المساعدة، أرسلت البرقية ثم اتصلت مع أبيها لتقول أن محفظتها سُرقت وهي راجعة.

طبعاً ستعود إلى لندن من جديد وسوف تسجل في الجامعة. عندما كانت تشرح ذلك، كان أبوها وأمها يوجهان إليها النصائح حتى تكون أكثر حذراً، أما الجدة التي كانت تحب الكلام كثيراً وخاصة مع حفيدتها، فحتى السكين لم تستطع أن تفتح لها فمها، وكأن كيلوتها قد وقع في يد رجل، وبالأخص في يد واحد زنجي، فقد كانت خجولة وحزينة جداً. ولكن حفيدتها.. لماذا لم تكن خجلة من هذا الأمر؟ بعد ذلك، لم تتكلم كلمة واحدة حتى انتهوا من الفطور.

بعد عدة أيام، وعندما كانت العائلة في صالون الانتظار في المطار من أجل توديع أيسل، سحبت الجدة حفيدتها إلى جهة أيضاً وهمست لها في أذنها:

– لقد حوَّلتُ ٥٠٠٠ ليرة إلى نقود انكليزية، خذيها حتى تبقى معك، خبئيها معك في مكان جيد، ربما يحتاج الأمر. /ال٥٠٠٠ليرة كانت الراتب الشهري للمرحوم/. وضعت أيسل النقود في جيب البنطال الخلفي.

عند الوداع، تعانقت الجدة والحفيدة بحماس وقبّلت كل واحدة منها الأخرى وعندما كانت الجدة تمسح دموعها بمنديلها الحريري بلون الكريم، وذو الإطار المطرز بالدانتيل، همست في أذن حفيدتها:

- أمان ا ابنتي، يا ولدي، ابقي صاحبة كيلوتكك.

- ٢٤ -

قبضة الحقيبة

كنت أعمل مراسلاً في ألمانيا لجريدة كبيرة، وأصبحت صديقاً لرجل ألماني من حرس الحدود، بين ألمانيا والنمسا. قلت له في أحد الأيام: يجب أن يكون لديك وقتاً فائضاً، لأن العمل على هذه الحدود يجب أن يكون قليلاً، قال لي:

- جماعتكم هم الذين يسببون الأعمال الزائدة والكثيرة.

كان قصده بـ"جماعتكم"، أنهم جماعتنا، يعني العمال الأتراك. سألته:

- لم أفهم، ولماذا يتسبب الاتراك بالعمل الزائد، وعلى حدود ألمانيا والنمسا تحديداً؟ أم أن هناك تهريب؟

قال: نعم، إنه تهريب البشر.

يجب أن يكون هناك خطأ ما في الموضوع، فجماعتنا يمارسون شتى أنواع التهريب، ولكن لا يوجد لدينا تهريب البشر. باستثناء تهريب الفتيات من أجل الزواج، أو تهريب الفتيات إلى الجبل من أجل تشغيلهن كراقصات.

حسب رأي صديقي -حارس الحدود الألماني- امتلأت ألمانيا بالأتراك القادمين ليصبحوا عمالاً في ألمانيا، فوجدت الحكومة أن الاقتصاد سوف ينهار، ولذلك أصبح دخولهم إلى ألمانيا يتم بواسطة تأشيرة دخول. في ذلك الوقت لم تكن النمسا متيقظة ولذلك لم تشترط تأشيرة الدخول للأتراك.

ومنظمات الأتراك المنفتحة، كانت تجلب الأتراك إلى النمسا، مقابل كمية كبيرة من النقود، إنهم يدخلون خلسة إلى ألمانيا، من خلال الحدود النمساوية الألمانية.

رجوت صديقي الألماني الموظف في حماية الحدود، أن يتصل بي إذا

حدثت مشكلة غريبة تخص الأتراك.

قال لي:

- كل يوم تحدث عدة مشاكل غريبة، تعال متى شئت...

كنت سأتحدث مع شخص تركي مقبوض عليه لدخوله ألمانيا بطريقة غير نظامية وكنت سأعرف منه كيفية الدخول بطريقة التهريب، وكنت سأنشر ذلك في الجريدة.

بعد بضعة أيام اتصل بي صديقي الألماني الموظف في حماية الحدود، وأخبرني أنه ألقي القبض على تركي عاري من جميع ملابسه. ركبت سيارتي فوراً وذهبت إلى المخفر الكائن في المنطقة التي جرت فيها الحادثة. كان العامل التركي غير النظامي المقبوض عليه، يجلس في إحدى غرف العمل في الدائرة الرسمية، عندما دخلت إلى الغرفة، كان يشرب القهوة التي أعدها الموظفون له، كان يبدو بمنظر مضحك مثير للدهشة. كان قصيراً نحيفاً عبارة عن جلد وعظم فقط. وبسبب نحافته كان من الصعب تقدير عمره، بامكاننا أن نقول أن عمره يتراوح بين ال/ ٢٥ وال/ ٥٠ سنة، ولأن ثيابه فضفاضة جداً، بدا ضائعاً فيها، وكأنه يختبئ ضمن الجاكيت الكبيرة، الجاكيت والبنطال يمكنهما أن يتسعا لشخصين أو ثلاثة مثله. لم تكن يداه ظاهرتين من أطراف أكمام الجاكيت الطويلة، عدا يده الصغيرة التي أخرجها من كم الجاكيت ليمسك فنجان القهوة. كانت يده تشبه يد طفل، ولأنه يطوي أطراف البنطال الطويلة جداً، كانت الثنيات متكومة طبقات طبقات فوق حذائه. اختفت رقبته نهائياً، وكان رأسه يخرج من ياقة الجاكيت وكأنه رأس قزم، أما حذاؤه، فحتى لو وضع قدميه الاثنتين في فردة واحدة، لبقيت كبيرة عليهما. كان يبدو كالفقراء الذين يعطيهم الأغنياء ملابسهم القديمة في العيد حتى يفرحوهم.

لما دخلنا الغرفة التي يوجد فيها، حوّل نحونـا عينيـه الفـاحمتين والمفتوحتـين بخوف، وانكمش داخل ثيابه الواسعة، نظرته وتهربه حدثا بآن معـاً، ثـم نظر إلى الأرض بخجل، كان خائفاً كأرنب محاصر.

قلت له:

- مرحباً.

لما سمع الحديث بلغته، انفتحت شفتاه الناعمتين في وجهـه النحيـف، فـرح كثيراً، بعد صمت طويل، وعيناه السوداوان اللامعتان، ازدادتا لمعاناً. هو أيضاً ألقى التحية، صافحته وسألته عن اسمه. وقبل ان يعطي اسمه سألني:

- هل أنت تركي؟

وعندما عرف أنني تركي ظهرت أسنانه اللؤلؤية من بين شفتيه النـاعمتين، كان مرتاحاً، اخبرني باسمه، ثم جلست على الكرسي بجانبه، شغلت المسـجلة وطلبت منه أن يخبرني ما جرى له، وبدأ يشرح لي بلهجتـه عـن مشـاكله. في البداية كان متردداً، ولكنه بدأ ينفتح مع تدرجـه في الحديـث، كـان يتحـدث بانفعال عند بعض المواضع، لقد امتلأت ثلاثة أشرطة من حديثه.

عندما عزمت على المغادرة سألت صديقي عن الأجراءات التي ستتخذ مـن أجـل هـذا الـتركي، فقـال لي بالتـأكيد أنهـم سـوف يعيدونـه إلى بـلاده، وسيرسلونه بعد أن يأخذوا له وثيقة من القنصلية التركية لأنـه لا يملـك جـواز سفر.

هذا التركي القادم بطريقة غير نظاميـة، كـان متفـائلاً لأنـه لا يعلـم أنهـم سيعيدونه كان يأمل من هـؤلاء النـاس الذيـن قدَّمـوا لـه الطعـام واللبـاس، أن يقدموا له عمـلاً أيضـاً، فلذلـك كـان يحـاول قـدر استطاعته أن يبـدو لطيفـاً وعاقلاً، ولكن حتى لا أعكر له مزاجه، لم أخبره أنهم سيعيدونه إلى البلاد.

عندما كان يشرح لي ما جرى له، كان يعبث بشيء معدني بقي في يـده.

لقد أثار فضولي ذلك الشيء الذي يعبث به وكأنه مسبحة.

عندما عدت إلى مكتبي استمعت إلى الأشرطة، ونقلتُ إلى الورق، الحديث الذي قاله لي ذلك التركي الهارب بدون تبديل على كلامه، ولكني اختصرته في بعض الأماكن، وأرسلته إلى الجريدة التي كنت أعمل مراسلاً فيها في تلك الأيام، ولكن لا أعلم لماذا لم ينشروها.

مضت سنوات، ثم بدأت النمسا ودول أخرى بتطبيق نظام تأشيرة الدخول، للتخلص من احتلال الأتراك تحت اسم "عمال" وبهذا، كما نعلم جميعاً، وصلنا شيئاً فشيئاً إلى مرحلة لا نستطيع فيها التحرك من مكاننا بدون إذن الدول الأجنبية.

قبل بضعة أيام، وبينما كنت أفتش في كتاباتي في الإضبارات القديمة، وجدت الأوراق التي كتبتها منذ بضع سنوات عن عاملنا غير النظامي. لما قرأتها مجدداً، صار بإمكاني تخمين سبب عدم نشرها في الجريدة،.

أظن أنهم نظروا إلى كلام العامل التركي القروي الأصل، على أنه يُنقص من اعتبار تركيا ولذلك لم ينشروها..

وأنا أنقل إليكم ما جرى مع ذلك العامل غير النظامي، نقول عنه في مجرى الكلام أنه غير نظامي، ولكنه قروي من بلدنا، وهو فقير ولا يملك ذرة تراب، وربما تجدون أيضاً أنه من غير اللائق نشر ما قاله ذلك القروي الفقير المهاجر بطريقة غير نظامية، من يعلم..

يا أخي، فلتعمى عيون الفقر، كل ما حصل لنا بسبب الفقر يا أخي...

لولا الفقر، من يترك بيته، ويذهب للغربة يا أخي...

يا أخي، من أين أبدأ لك الحديث؟ لا أعلم... أنا أعرف القراءة والكتابة، ما كان يجب أن أقع في فخ ذلك النصاب، ولكنه حدث يا أخي..

بالرغم من أني تخرجت من مدرسة قريتنا، التي تخرّج الطلاب حتى الصف

الثالث، فقط، تفوه عليّ كيف صدقته وأنا في هذا الوضع...

المدرسة عبارة عن ثلاثة صفوف، ولكن لا يوجد فيها إلا أستاذاً واحداً وغرفة واحدة. رغم ذلك تعلمت القراءة والكتابة و لله الشكر، تعلمتها ولكن منذ زمن طويل، فكأنني نسيتها.. ولكنني إذا حاولت قليلاً من جديد، فربما لا أستطيع الكتابة ولكن قد أستطيع القراءة. في القرية يقولون لنا "تشولصوز*" لأنني منذ خلقت، وأبي وجدي وجدتي وسلالتي جميعهم فقراء جداً، تعال يا تشولصوز محمد واذهب يا تشولصوز محمد.... نحن "تشولصوز" أما غيرنا فمن هم؟

إنهم يملكون زيادة عنا قطعتين أو ثلاثة من "تشول"، رغم ذلك كنت وقتها بخير لا يوجد لدينا حفنة تراب ولا يوجد لدينا شجرة مزروعة. ولكن منذ أن كنت صغيراً وأنا أعمل راعياً في الضيعة، ثم أتى وقت الخدمة العسكرية، ا لله يحفظ الدولة والشعب والوطن وكبارنا، أديت واجبي الوطني ونفّذت التعليمات أكلت وشربت حتى أنني جمعت بعض المال الذي كانوا يُعطوني إياه وأنا في الجيش. لما عدت إلى القرية بعد أن سمنت قليلاً وجمعت بعض المال، أصر كبار القرية أن يزوّجوني. وبالرغم من أني أتمنى الزواج مسبقاً، ولكن إذا لم تكن العروس هي العروس المطلوبة فما الفائدة، أنا أعرف ماذا سيفعل كبار الضيعة، هناك في الضيعة بنت مجنونة، ولأنني من عائلة"تشولصوز" سوف يزوجوني إياها، كان مديحهم لتلك البنت لا ينقطع، يصفها البقال فيقول:كم هي "بيتوتية" سألني: "أنتَ بكم لقمة تأكل حبة الزيتون؟ ثلاث لقم؟ أربع لقم؟ لنقل خمس لقمات... ولكن هذه الفتاة تجعل حبة الزيتون عشر لقمات، إنها بيتوتية إلى هذه الدرجة، ثم إنه ليس لها

* تشولصوز: الذي لا يملك "شول" أو السرج الذي يوضع على ظهر الدبة.

أحد".

ثم ألم يقولوا إنها "طنجرة ولاقت غطاها"؟!.

حتى لا نطيل في الكلام، يا أخي زوجونا... قبل أن نكمل السنة رزقنا بطفل وأصبحنا ثلاثة نفوس في البيت، كنت أحاول أن أُشبع ثلاثة أفواه جائعة ولكن في السنة التالية ولدت زوجتي طفلاً آخر، ليس هناك توقف عند زوجتي أبداً...

أصبحوا خمسة أولاد.. وكلما قلت لها: "اقطعي... كفى... يكفينا".

كانت تقول لي: "وماذا لديّ لينقطع، أساساً الشيء الذي يجب أن ينقطع هو عندك. الله يخرب بيتها... وقعنا في مشكلة عويصة ياأخي".

بدأت المرأة تجمع الحشائش وتقتلع الجذور من الجبل، حتى تشبع بطون الأولاد. كل سنة في أيام العيد كان يأتي عمالنا في العطلة من ألمانيا، وكل واحد منهم يمتطي سيارة مرسيدس، وداخلها مملوء بالهدايا. والبعض منهم يصطحب حمولة كبيرة عندما كانوا يحضرون بالميكروباص، وكان يخرج من كل ميكروباص بضاعة تملأ دكاناً في البلدة حتى تعتقد أن هؤلاء العمال من شعب آخر. فهم لم يستطيعوا أن يصبحوا ألماناً وأن يبقوا مثلنا... كانوا يسيرون منتصبي القامة، ولديهم الحق في ذلك، لو كنت مكانهم لمشيت بشكل منتصب أكثر منهم. إذا رغب اثنان من هؤلاء العمال شراء قريتنا فهم قادرون على ذلك. عندما يعود عمالنا الألمان للقرية، كان أهلها ينفجرون من غيرتهم وحسدهم، ويثرثرون وينشرون الأشاعات ضدهم، وبنفس الوقت كان هؤلاء يقيمون أعراساً لهم، لأنهم سيأخذون هدايا منهم.

في السنة الماضية، كان أخي في الـدم* موجـوداً بـين العمـال القـادمين مـن ألمانيا، هو أخي في الدم ولكن بعد أن صار ألمانياً نسيني. التقينا عند الحـورات الخمس الموجودة عند رأس النبع، فاضطر أن يسلّم علي، ربطة العنق في رقبته، والقبعة على رأسه... لقد صار "بيك". لما كنا نتكلم من هنـا وهنـاك، سـألني لماذا لا أذهب إلى ألمانيا. ولكنهم يقولون أن الألمان لا يقبلون الأتراك الآن، لو أنهم يقبلونهم، لفرغت القرية بالكامل وذهبت إلى ألمانيا، وحسب كلام أخي في الدم، فهناك أشخاص يرسلون العمال إلى ألمانيا عن طريق التهريب، ولكـن ليسـوا جميعـاً اهـلاً للثقـة. والبعـض منهـم يـأخذون النقـود مـن النـاس، ثـم يحشرونهم في الباصات ويأخذونهم إلى مكـان خـارج الحـدود ويقولـون لهـم "هذه هي المانيا"، ثم يرمون الناس من الباصـات... هنـاك لا تعـرف لغـة ولا تعرف مدينة، من اين لك أن تعرف أنها ألمانيـا أو أمريكـا. قـال لي: أن أحـد أقربائه يعمل ذلك فإذا ذهبتُ إليه، فلن يخدعني، سيأخذني إلى ألمانيا بالتـأكيد وهو يقول أنني إذا ذهبت إليه وأوصلـت لـه سـلاماً مـن أخـي في الـدم فهـذا يكفي، وأنني بمجرد ذهابي إلى المانيا فمن السهل جـداً ملاقـاة أخـي في الـدم، كان أخي في الدم يقول: "لا تتدخل بالباقي..." إنه أمر جميل، ولكن الرجـل الذي سيأخذني إلى ألمانيا لن يأخذني عن روح ابيه إنه سيأخذ النقود، ولكـن من اين ستجد المال؟ كان يقول أخي في الدم: "إلى هذا الحد تصل مساعدتي، أما النقود فأنت تدبرها".

كلمة التدبير سهلة، ولكن كيف أدبّر، إنني اموت مـن أجـل الذهـاب إلى المانيا، لدي خمسة أولاد وزوجة مجنونة، لقد كرهت حياتي، كان عندي بقرة

* أخي في الدم: ليس المقصود الأخ الحقيقي، يقصد بها المؤاخاة عبر جَرح يد كل واحد ومزج الدماء مع بعض.

"حايبة" وخمسة خرفان، بعتهم، وكان لدى زوجتي المجنونة بعض الأساور، أخذتها وبعتها أيضاً وبعد ذلك، توجهت إلى استانبول... ذهبت إلى العنوان الذي أعطاني إياه أخي ووجدت ذلك الشخص الذي يأخذ عمالاً، أخذ كل ما أملكه من النقود، ولم يبقَ معي ثمن سيجارة، ورغم ذلك قال لي أن النقود التي أعطيتها له، لن تكفي. إنه نصّاب العمال الشريف، رجوته: "أمان يا آغا، لا تفعلها... أعطيتك كل ما أملك" ولكن قلبه قُدَّ من حجر، قال لي: "سينطلق الباص في المساء، فإذا أتيت بالنقود حتى ذلك الوقت كان به، وإلا فلن نأخذك"

أمان؟؟؟ ركضت هنا وهناك، ولكن استانبول مكان لا أعرفه، وبواسطة أبناء بلدي، وجدنا شخصاً من ضيعتنا، لديه نقود جمعها من التسول في استانبول... أقرضني نقوداً، وقلت له سأكسب في ألمانيا وسأدفع لك نقودك مع الفائدة.

كان بيدي الحقيبة التي بقيت معي من ايام العسكرية، انحشرنا في الباص. الله حاضر، صحيح ان الرجل نصاب ولكنه صاحب ناموس، قطعنا الحدود بشكل سريع وسهل، استغرقت الطريق اربعة أيام، ولأنه لم يبقَ معي نقود لأشتري خبز، كنت أنقض إلى مائدة أي واحد يدعوني بشكل رفع عتب، في وقت من الليل وصلنا إلى مكان مجهول، هناك قال لنا أحد الرجال النصابين: "هنا وسط ألمانيا، إذا نزلتم جميعاً مع بعض، سيلقون القبض عليكم، انزلوا جماعات متفرقة من اثنين إلى ثلاثة أشخاص" ثم أصبحوا ينزلون كل ثلاثة أو خمسة مع بعض بفارق ١٥ دقيقة بين المجموعة والأخرى من كان يحمل حقيبته وأغراضه كان ينزل، أشار لي بأن أتوقف. كنت أنظر من النافذة إلى النازلين من الباص، وكل واحد منهم يلتصق بيد رفيقه.

المهم يا أخي بلا إطالة، لم يبق احد غيري في الباص، قاد السائق الباص،

قاده وقاده ثم دخلنا عبر غابة، وأوقف الباص بجانب نهر واسع، لم يبق في هذا الباص الكبير إلا السائق وأنا... كنت أحمل بين ساقيّ الحقيبة الخشبية المربوطة بخيطٍ، لأن قفلها معطل، من يعلم ماذا يحدث؟ وضع السائق يده على كتفي وقال لي أنه لا يستطيع أن يفعل بي كما فعل بالآخرين، لأن ذلك النصّاب أوصاه كثيراً أن يهتم بي، لماذا ذلك؟ لأن ذاك الواطي -أخي في الدم- يجد الزبائن لذلك النصاب ويأخذ منه نسبة مئوية، فالمكان الذي نزل فيه القرويون لم يكن ألمانيا، بل النمسا، لقد تركوا المساكين هناك، أخي في الدم -الواطي- لأنه صاحب وجدان أيضاً قال له، أمان لا ترموا -أخي في الدم- في البلاد الغريبة، أدخلوه إلى المانيا بالتأكيد. ثم يا أخي... في وقت من الليل، أشار السائق بيده إلى الجهة المقابلة وقال ها هي الضفة المقابلة، هذه ألمانيا، انتظر حتى الصباح، مع بزوغ الشمس، اقطع الماء فتصل بسلام إلى المانيا. أمان، كيف سأقطع الماء، فقال لي "لا تخف إنها ليست عميقة، إنها لن تصل حتى ركبتك، بمجرد ان تمشي ٤٠-٥٠ خطوة، فالضفة المقابلة آمنة"، قلت "أمان يا صديقي، كيف سأقطعها، لا أجيد السباحة.." قال لي "ذلك سهل، اخلع جميع ملابسك، كما ولدتك أمك، خبئ هويتك وجوازك جيداً في جيب الجاكيت حتى لا تسقط في الماء، ثم احمل ثيابك وأغراضك بيديك الاثنتين وارفعها فوق رأسك، ثم تقطع للجهة المقابلة، بعدها ترتدي ثيابك في الجهة المقابلة، وتمشي، ومعك العنوان أظهره لأي شخص، ففي ألمانيا يوجد تركي من بين كل أربعة أشخاص، فإذا لم يكونوا قد تعلموا الألمانية، فقد علموا التركية للألمان لا تخف أبداً، هذه مقدار مساعدتي لك. هيا، مع السلامة... الله يسهّل أمرك".

مع نهاية كلامه، كان قد ركبَ الباص وأقلع... قبل أن أقول له "أمان توقف قليلاً". كان الباص قد شخرَ وانطلق.

تمددت على المرج وصنعت من حقيبتي الخشبية وسادة وضعتها تحت رأسي وانتظرت الصباح، مع بزوغ الفجر، نزلت إلى حافة النهر، وخلعت ملابسي. كما ولدتني أمي، كان سيغمى علي من الجوع فقد قال السائق لي "احذر، لا تأخذ الحقيبة معك،... أمان، إنها ثقيلة، وأنت لا تستطيع أخذها، فقد تغرق في الماء"، قلت له "نعم، فليكن"، قلت له ذلك ولكن هل معقول أن أترك الحقيبة... بداخلها كل شيء لي.

فكرت أن أضع الثياب التي خلعتها عن ظهري والأغراض التي في يدي في الحقيبة، ولكن إذا فتحت الحقيبة فلن أستطيع إغلاقها، لقد كنا اربعة رجال حتى استطعنا إغلاق هذه الحقيبة التي تحوي أغراض منزل بالكامل، فإذا فتحتها لن أستطيع إغلاقها وخاصة انني خائر القوى بسبب الجوع...

وضعت ملابسي وأغراضي وحذائي فوق الحقيبة، وضعت الحقيبة فوق رأسي وقلت يا الله، بسم الله، ودخلت في الماء، بعد دخولي في الماء ومشي خطوتين سقطت على مؤخرتي، لأن المكان الذي خضته كان رخواً.

ذهبت الحقيبة الخشبية في جهة، وحذائي في جهة، والجاكيت والبنطال في جهة أخرى، غرقت الحقيبة إلى القاع لأنها ثقيلة، ولكن كِيلوتي والثياب الأخرى انتفخت وبدأت تسبح على وجه الماء مثل رف البط، فقفزت هنا وهناك، شربت كثيراً من الماء، التقطتها كلها ماعدا الحذاء، لم أشاهده أبداً... قسمتي أن أدخل إلى ألمانيا حافياً، سحبت الحقيبة من القاع. ولكن القبضة المعدنية كانت مقلوعة من جهة واحدة، وتعذّر علي الإمساك بها أو حملها بسبب ثقلها الزائد من جراء دخول الماء إليها، فكيف أرفعها فوق رأسي إذا كنت لا أستطيع إمساكها أو حملها... على كل حال،لقد ترطّب مابداخلها، وهكذا كنت أجرها جراً في طريقي خطوة خطوة، ألم يقل لي ذلك السائق الحقير أن المياه ضحلة... لقد وصلتُ أولاً إلى خصري ثم تجاوزت صدري.

أمان انها تتجاوز رقبتي... كنت ألعن السائق وأشتمه من جهة، ومن جهة أخرى كنت أقرأ كل الدعاء الذي أعرفه وأتوسل إلى ربي حتى أصل سالماً.

وصل الماء إلى رقبتي، خطوة أخرى، وصل إلى ذقني.... عندما تعثرت قدمي تدحرجتُ، وذهبت الحقيبة التي قُلِعت قبضتها، ولكني كنت أمسك قبضتها بشدة و لم أتركها، فليحدث ما يحدث للمال، ولكني حيّ... المهم مازالت الجاكيت والبنطال في يدي على الأقل، وبعد ذلك وعندما سحبني التيار، كنت أفتش عن شيء لأتمسك به، ولكن الجاكيت والبنطال أفلتا في يدي دون أن أشعر....

ولك يا ألمانيا... لقد تركتك من زمان يا ألمانيا، ولكن أريد أن أنقذ نفسي فقط... إذا قلت ارجع، لا أستطيع، والتيار يأخذني ويسحبني معه، امتلأ فمي بالماء اختنقت أو أوشكت أن أختنق، بقينا نقول ألمانيا وألمانيا إلى وقت كانت جيفتنا ستبقى في البلاد الغريبة يا أخي...

كنت أصرخ بكل قوتي "النجدة، إنني أغرق... مامن أحد ينقذني؟" كان هناك جواب يأتي من بعيد، ولكنه كان صوتي أنا أيضاً. "النجدة، إنني أغرق، لا أحد يجيب، كنت أغطس وأطفو، وأسقط وأنهض، بدأت المياه تصبح ضحلة، وصلت زحفاً حتى الضفة المقابلة، رميت نفسي على الأرض...، وكم من الوقت بقيت هناك؟ لا أعرف يا أخي، كانت النجوم تظهر من بين الأشجار، معناها أتى الصباح ومضى اليوم وأتى المساء يضاً وأنا نائم هناك... نظرت وإذ بي أمسك بشدة قبضة الحقيبة في يدي... أنا ضمن الغابة، ياليت لو أن عبداً من عباد الله يظهر ويعطيني لقمة خبز...

لقد نفدت من الغرق في الماء، والآن سأموت من الجوع، أما الطقس فهو رديء جداً كنت أرتجف من البرد كقصبة يابسة، استجمعت كامل قواي. وبدأت المسير في الغابة حتى وجدت طريقاً، أخذت تلك الطريق وذهبت فيها

ومشيت ووصلت إلى مكان الأبنية. تابعت المسير حتى وصلت إلى ساحة، مضاءة بالمصابيح. شاهدني بعض الأشخاص، وضعت يداً في الأمام ويداً في الخلف، ومشيت عارياً باتجاههم، وقبل أن أقول السلام عليكم شرعوا بالصراخ ثم الهرب وكأنهم شاهدوا وحشاً، أدرت ظهري لهم، حتى لا يخافون.

كان هناك نساء ورجال، من ٥-١٠ أشخاص... وجميعهم صرخوا وزعقوا وهربوا أيضاً، وكلما بدّلت اتجاه سيري كنت أصادف الناس الهاربين، مع أنني أقول لهم "لا تخافوا، لست إنساً ولا جناً أنا ابن آدم مثلكم" ولكنهم لا يفهمون لغتي... بقيت مدة أدور في هذه الساحة. ولا أعرف بعد أي مدة، بدأت تنطلق صافرات الوحش الكاسر، من الجهات الأربعة وبدأت تقترب نحوي سيارات الانقاذ، وجهت السيارات أنوارها نحوي، اعتباراً من بداية الأزقة الخمسة المفتوحة على الساحة، فانبهرت عيناي و لم أستطع أن أرى شيئاً، حاولت أن أغطي بيدي المنطقة الأمامية وباليد الأخرى غطيت مؤخرتي وتسمّرت في مكاني على هذه الحالة.... ياربي، ياليتني غرقت في ماء النهر ومت قبل أن تجري لي هذه البهدلة.

المهم، بلا إطالة يا أخي، أشهر رجال الشرطة الذين نزلوا من السيارة سلاحهم في وجهي وأمسكوا بي، لم يكن لدي القوة على الهرب، كنت أقول: أمان، ليتهم يمسكون بي. بدون إطالة يا أخي، أخذوني إلى مكان ما، برأيك ماذا فعلوا بي أولاً؟ لقد أشبعوا بطني جيداً، ثم أعطوني هذه الثياب التي أرتديها، وهذا الحذاء، لم يجدوا لي ثياباً على مقاسي، لأنهم جميعاً ضخام الأجسام، مرّ يومان على هذه الحال بعدها، أتى شخص ألماني يعرف التركية، سألوني "ماذا في يدك؟".

قلت "إنها قبضة حقيبتي، لقد جرف التيار الحقيبة وبقيت القبضة في

يدي".

قبضة الحقيبة تلك سببت لي مشاكل كثيرة، فقد قالوا لي، إذا ذهبت الحقيبة في الماء، فلماذا تمسك القبضة في يدك. كيف تشرح للألماني الغريب يا أخي، أنه قد يأتي يوم وتنفع هذه القبضة لشيء ما ولذلك لم أرمها. شرحت لهم حسب معرفتي، ولكن لم أستطع إفهامهم.

"من أنت؟ ومن أين أنت؟ ماذا تكون؟ من أين جئت؟ إلى أين تذهب؟"

إذا قلت الحقيقة، فقد يعيدوني من حيث أتيت، لذلك قلت لهم أنني قادم من تركيا ، جواز سفر وتأشيرة دخول، في جيب الجاكيت وقد ذهبت الجاكيت في الماء. فسألوني: إذاً لماذا دخلت ليلاً وعبرت الماء؟ ولكني ألّفت لهم كذبة فوراً.. قلت لهم، كنت وأصدقائي الأتراك قادمين إلى ضفة النهر في رحلة ترفيهية، مزحنا بالأيدي فسقطت في الماء.

رغم أنني قلت لهم ذلك ولكن لم أستطع أن أقنعهم بهذه القصة. سألوني لماذا إذاً أنت عارٍ هكذا كما ولدتك أمك؟

قلت لهم: كنّا ندفع بعضنا إلى الماء... ولكنهم قالوا لي: في هذا البرد، تلعبون في الماء؟

يا ربي ماذا أقول لهم حتى يصدّقوني، ألهمني يا رب.

قلت لهم: في بلادنا، نحن نسبح في وقت البرد، فقالوا لي: هذا جيد ولكن هل تلعبون والحقيبة في يدك؟

يا هو، يا أخي، السهم لا يصيب هدفه... فإذا قلت لهم كنا نلعب في الماء والحقيبة في يدنا فهذا غير مقبول.

هكذا يا أخي... أنت تعرف هؤلاء وتعرف لسانهم، لو أنك تطلب منهم أن يؤمنوا لي عملاً هنا، حتى أعيش وأرزق بفضلهم، مهما كان نوع العمل فأنا أعمل يا أخي... أجمع لهم قمامتهم، أنقل أغراضهم، أحصد الحشائش،

أركض إلى الأعمال من قبيل: تعالَ واذهب... يعني أي نوع من العمل كـان يا أخي...

*   *   *

لما كان يسرد لي ذلك، لم يكن يـترك قبضـة الحقيبـة الخشـبية ذات اللـون البني، كان ينقلها في يده وكأنه يسـبّح بمسـبحة، ربمـا لم يكـن يريـد أن يـترك قبضة الحقيبة لأنها قد تلزم لشيء ما في يوم من الأيام...

- ٢٥ -

- الذين لا يملكون رخصة للعقاب -

هل تعرفون متى بدأت تسمية الإنسان بأسماء الحيوانات. وخاصة الذي يريد أن يُنجب إنساناً آخر.. أن يضع عليه اسماً. بمعنى أن يحقر ذاته أو فصيلته: هل تعرفون التاريخ متى وأين وكيف بدأ الإنسان بخصوصية هذا التحقير لذاته وإنسانيته؟ أنا أعرف!! ولكن فوق ذلك أملك رغبة بزيادة المعرفة. مثلاً: من هو أول إنسان قال لإنسان آخر /حيوان/ "أو حيوان ابن حيوان". في أكثر الأحيان لا نقف عند حدود التحقير أو التنزيل من قيمة الانسان بتسميته حيواناً.. نقول حيواناً.. ! ولكن أي حيوان؟ هناك حيوانات كثيرة جداً بحيث لا نستطيع إحصاء عددها. هل يعرف الإنسان المُحتقَر والذي سمي حيواناً من قبل آخر ، أي نوعٍ من الحيوانات هو؟ هل يسأل نفسه هذا السؤال!؟

وهل هناك إنسان واحد عاش في وطننا و لم يُقال له حيوان ولو مرة واحدة؟. ولكن أي حيوان؟ مثلاً: الفراشة المسكينة هي الأخرى من أنواع الحيوانات. ولكن إذا غضب إنسان من آخر وقال له/حيوان ابن حيوان/لا يقصد القول/ فراشة ابنة فراشة/. إذا كنا نريد أن نحقر إنساناً أو أنَّ إنساناً يريد أن يحقرنا. أول ما يخطر على بالنا، ليست الفراشة ولا النملة ولا الحمامة. الحمار يأتي في المقدمة-الدب-الثور-الخنزير-الجمل-البقر. هذه الحيوانات أو أسماؤها نحقر بها الآخرين بإعطاء أسمائها لهم.

بما أن الحديث قادنا إلى هنا، فإن بعض الحيوانات التي ذكرناها تتمتع في بعض الدول بنوع من القدسية والاعتبار. فالدب مثلاً محترم في بعض الدول

وله نوع من الاعتبار. وبما أنه رمز للقوة، فإن اسمه يعطى للبشر. مثله "السيد النمر" في بلادنا. ففي روسيا وأميركا يطلقون على الدب/السيد الدب/. والأمر هكذا.. عندما يسمى جنرال أميركي بـ"دب الصحراء" فإن نائباً في البرلمان عندنا يصيبه الاحباط والزعل إذا أطلقوا عليه "دب الفندق".

مثال آخر: في روسيا إذا قال إنسان لآخر/دب ابن دب/ فيعني ذلك أن هذا الإنسان قد جاء من سلالة قوية. أما في بلادنا فإذا قلنا لإنسان ما /دب أناضولي/ فإنه يشعر بالخزي والعار والنكسة.

إن الدب الألماني رمز برلين، كما أن الدب الروسي رمز لمدينة موسكو.

عندما نحقّر بعضنا عن طريق الحيوانات. لم نحسب حساباً للنساء. وكأن النسوة لا ينطبق عليهن فصيلة الحيوانات.

ولكي نزيد من إحتقارنا للآخرين. نُدخل الآباء في معمعة الإحتقار. كقولنا. /جحش ابن جحش/ /كلب ابن كلب/ /دب ابن دب/ و/حيوان ابن حيوان/ ولكن إذا غضبنا من فتاة أو امرأة فلا نقول /بنت الجحش/ /بنت الدب/ /بنت الكلب/! لماذا؟ السبب في ذلك هو الاحترام الزائد للنساء عندنا؟ أو أن النسوة لا يستحققنَّ منا هذا التحقير البسيط؟ أو لأننا لا نضعهن في مقام البشر العاديين. أو لأننا نضعهن كبشر مثل الآخرين. هذا موضوع يجب أن يهتم به المختصون بالنساء.

لي صديق حميم. يعرف كل شيء ولأنه يعرف كل شيء لا تتركه المصائب أبداً. إن صديقي هذا يوضح لنا سبب عدم اقدامنا على تحقير الانثى.

/بحيوان بنت حيوان/ يقول: كما ما جاء في الديانات السماوية أن الله خلق آدم عليه السلام يعني أصبحت القدرة والأولوية بيد آدم، وعليه السلام يعني أنه ذكر لأجل هذا كلما ذُكر آدم يعني رجل. وليست والدتنا حواء: ولهذا في اللغة العثمانية نقول بني البشر وفي اللغة التركية نقول الانسان أو من

فصيلة الانسان.

الطرافة الغريبة أن النساء لا يمانعن من أن يقال لهن /رجل علمٍ/ أو /رجل فن/ ولا يقبلن أن يُقال لهن امرأة علم أو امرأة فنٍ.

سألت صاحبي الذي يعرف كل شيء، والذيٍ لا تتركه المصائب والبلايا أبداً لمعرفته كل شيء. سألته: ما هو الصحيح في تسمية رجال العلم من النساء. أو ما يجب تسميتهن غير هذا الاسم. فقال: امرأة أو رجل لا يهم ذلك في شيء فكل من يتعاطى العلم من الطرفين يسمى /رجل علم/ وكل من يتعاطى الفن يسمى رجل فن. وهذا صحيحٍ من الناحية العلمية واللغوية.

هناك حادثة شاهدتها بأم عيني وكانت سبباً في طرحي لهذا الموضوع. أي تحقير بعضنا لبعض بأسماء الحيوانات /كحيوان ابن حيوان/. ثمة انسان أعرفه كان قد اشترى منزلنا الجديد.ومن أجل هذا أحضر نجاراً ليصنع له دواليب المطبخ والأبواب والنوافذ، ويبدِّل الديكور، والحقيقة أن النجار كان معلماً صنع كل شيء على أكمل وجه .وكان صاحبي هذا مسروراً جداً من النجار ومن عمله وفنه./سلم ا لله يديك يااسطه ويامعلمي/وأعطاه ما طلب . بعد فترة قليلة انتقل إلى بيته الجديد. وبعد انتقاله بعشرة أو خمسة عشر يوماً وعلى أبعد تقدير شهراً من انتقاله. بدأ البيت يتغير وينقلب رأساً على عقب. ودون انتظار أو توقع، في أول الأمر انكسرت /مسكة/ دولاب الثياب: غضب الرجل من النجار لأنه وضع مقبضاً قديماً مستعملاً ومهترئاً. وبعد عدة ساعات من اليوم نفسه. ظهرت بقع على خشب باب المطبخ: مانوعية هذا العمل !! الباب المطل على الشرفة تحجّر /لا يفتح/ وباب الشرفة الخلفي لا ينغلق.

- وأي جحش ابن جحش وأي أي ... !؟

كان صاحبي هذا إنساناً لطيفاً حساساً مترбياً على أكمل وجه.

والحقيقة أني تعجبت؟ كيف تصدر عن إنسان كهذا ألفاظاً وشتائم. شيء يحير العقل.

بعد عدة أيام بدأت مقابض الدروج المختلفة تهتز. وبعد ساعات قُلعت المقابض من أماكنها وعند نزع كل مقبض كان صاحب البيت يبعث للنجار بصواريخ من السباب والشتائم وأي جحش ابن جحش.

الباب لا يغلق: وأي جحش ابن جحش. دولاب الدرج لا يفتح "هاي جحش ابن جحش هاي".

لقد أخذت سباب هذا الإنسان للنجار حادثة اجتماعية وليست حادثة فردية. كان النجار قد صنع عمله كما يعمل ديكوراً في المسرح .أي جميل المنظر من الخارج ."عملُ معلم جيد".وبعد فترة كان هذا العمل الذي بدا جميلاً يتساقط قطعة بعد أخرى. ولهذا كان الإنسان الأديب والمهذّب والحساس واللطيف لا يتمالك نفسه ويبدأ بالسباب للنجار.إن هذا التصرف أشبه بحادثة طنجرة البخار التي لا تتحمل الغليان الشديد فينفلت البخار من الثقب الأعلى أو تتفجر الطنجرة كاملة.

وكان صاحبي يشعر بالراحة في كل مرة يقول فيها للنجار /جحش ابن جحش/.أي يتخلص من بخاره الداخلي.

قال لي صاحبي الذي يعرف كل شيء والذي لم تتركه المصائب والمشاكل طيلة حياته.

- الظاهر من الأمر يا صاحبي أن استعمالنا للحيوانات في الهجوم وكيل السباب لبعضنا ليس أمراً فردياً وانما في واقع الحال "علم اجتماعي"؟!

وحقيقة الأمر أنا، لا أفهم ما يقصده، وكيف يكون سبابي للآخرين باستعمالي أسماء بعض الحيوانات /علم اجتماعي/!

قال صاحبي وهو يرى الشك في نظراتي:

- هل تريد أن نلعب في منزل صديقك، لعبة النجار في منزله من خلال عمله في منزلي.

لم أفهم مرة ثانية.

سألته: كيف يعني؟

- بما أنك كاتب. أقترح تأليف قصة على حادثة /جحش ابن جحش/

- لنؤلّف!.

- إذن لنرى ما جرى مع النجار. ذهب الرجل إلى الخياط وطلب منه بزَّة لونها كحلي. وبعد مدة حضر إلى الخياط من أجل أن يجرِّب /بروفة/ الطقم أمامه ومقابل المرآة الكبيرة، بدت البزة جميلة، والنجار مسرور . لقد صارت البزة كما طلبها لوناً وشكلاً ورونقاً.

من يكون هذا النجار، ماهي حاله وشكله وعمره. وكيف يعيش؟ لنقل أنه في العقد الرابع أو الخامس من عمره: لقد طلّق زوجته. وهو على وشك الزواج ثانية. وسيزور عروسته الجديدة للمرة الأولى مع الخطابين الذين وجدوها له. سيتعرف على زوجته المقبلة وعائلتها. وقد أخاط هذه البزة الكحلية خصيصاً لهذه (الزيارة). اطمأن النجارللبزة الكحلية الجديدة وهو يرتديها أمام المرآة الطولية كما شعر الخياط بالثقة والإطمئنان لعمله.

- سلّم الله يديك يا معلمي. حقاً إنها بزة جميلة جداً.

قال ذلك ودفع للخياط ثمن البزة والابتسامةلا تفارق شفتيه. ذهب النجار إلى منزله، وبما أن يوم غد هو يوم عطلة فيجب عليه النهوض باكراً ليستحم ويحلق ذقنه ويلبس طقمه الجديد (ثيابه الجديدة)، ثم يقف أمام المرآة ويضع في جيبه قليلاً من البزر، وينطلق إلى بيت عروسته الجديدة وفي الطريق يقابله صديق قريب ويبادره بالقول:

- لقد حلقت ذقنك بحيث تتزحلق الذبابة عليه ولبست كالعريس فهل

هذا الطقم طقم عريس.
أجابه النجار وهو يتبختر:
- إنه ثوب عرس إذا شاء ا لله.
- خيراً إن شاء ا لله.

ركب النجار حافلة.. والناس فوق بعضهم. لكن صاحبنا ندم لركوبه الحافلة خوفاً من زوال كوي الطقم الجديد. وبينما يهم بالنزول من الحافلة يُقتلع زران من الجاكيت ويسقطان على الأرض فيصرخ فجأة.

- جحش ابن جحش !!...

كلام موجه إلى الخياط... يتمتم بينه وبين ذاته وهو يمشي:

- ولك.. يلعن الذي عمل منك خياطاً... ولك جحش ابن جحش، من ركوب واحد للباص ينقطع الزر ويقع على الأرض؟.

كان الفرق الوحيد بين سباب النجار للخياط وشتائم الشخص السابق للنجارهو أن الشخص السابق كان يقول للنجار جحش ابن جحش، النجار يقول للخياط جحش ابن جحش.

ماذا سيفعل صاحبنا النجار ..... عليه أن يتواجد في منزل زوجته المقبلة في الموعد المحدد وا لله أعلم أين سقط الزر ؟

في هذه الحالة كان العريس مضطراً للذهاب إلى بيت عروسته بجاكيت ناقصة الأزرار إن شاء أم أبى.

دخل البيت وقد زيَّن مكان الزر بوردة اشتراها من بائع الأزهار. وبعد أن ناول عروسه باقة الورد وقف صامتا دون أن يرفع يداه من فوق صرته (إشارة للإحترام والتقدير الكبيرين عندهم) ولكن صاحبنا كان يخفي علة من وقفته هذه. لفت احترام العريس لعروسه انتباه العجائز الموجودين في المنزل فتهامسوا مع بعضهم وقالوا: إنه رجل محترم. بعد سؤاله عن أحواله المادية

وطبقا للعادة المتبعة أحضرت العروس القهوة .سقط الزر الثاني من الجاكيت وهو ينطنط على الأرض والعريس المرشح يشرب قهوته ولكن لطف ا لله كان كبيراً، عندما همَّ العريس المرشح بالتقاط الزر والتأكد أن أحداً لم يشاهده وبينما كان ينظر إلى أطرافه، سمع أولاد المنزل يضحكون فاحمر وجهه خجلاً.

- ولك جحش ابن جحش؟ أمن المعقول أن لا يبقى الزر في مكانه من الوقت مقدار شرب القهوة. لم يسمعه أحد من الموجودين مع أن صراخه كان كبيراً في أعماقه.

انتهى تحضير مائدة طعام الغداء. نُودي على الحاضرين ولكن أحداً لم يسمعه وهو يقول: أنه غير جائع. ولكن العروس كانت قد جهزت أنواعاً من الأكل وأصنافاً من الحلوى كي تثبت له أنها ربة بيت ممتازة وطباخة ماهرة. جلس على المائدة وهو يمسك طرفي جاكيته بإحدى يديه ليستر عيبه (غياب الأزرار). بدأ الحاضرون بتناول حساء العرس وكان العريس يحب هذا الحساء كثيراً. وليته لا يحب هذا الحساء..! وياليته لم يأكل كثيراً بحيث أن أحد أزرار قميصه سقط من مكانه، وانطلق كالصاروخ نحو الطبق الرئيسي المصنوع على شكل قارب بحري صغي،ر وممتلئ بمحشي البط، والأوز، والهندي. ياليته لم يأكل وياليت الزر لم يقع؟! صرخ الأولاد

- زرك يا عمي زرك.

والتقطوا الزر من طبق المحشي وبدأوا اللعب به.

كانت أم العروس قد أخذت الزر من الأولاد بعد أن وبَّختهم وأعطته لابنتها كي تخيطه في مكانه بعد الانتهاء من الغداء. أما النجار فقد خفض رأسه من شدة خجله الى أسفل السافلين، كانت الشتائم تتطاير في أعماقه على الخياط /هاي جحش ابن جحش هاي/ و لم يكن له علم بما سيصيبه، بعد قليل، انقطع زرٌ آخر من قميصه وهو يلتهم محشي /اليبرق/ المطبوخ بزيت

الزيتون: بعد برهة سقط زر آخر وآخر وآخر. لم يبق في القميص زر واحد: وبدأ الأولاد يتسابقون على التقاط الأزرار بين بعضهم.

بعد سقوط الزر الرابع من القميص أحس النجار بشيء من الراحة لأنه لم يبق لديه أزرار للسقوط. ولكنه نسي أزرار البنطال. بعد الانتهاء من الغداء أحضرت العروس القهوة والشاي. مدَّ العريس يده إلى إبريق الشاي. بعد أن التهم كميات كبيرةمن الأطعمة اللذيذة والرائعة. كان بطنه قد انتفخ، بعد أن تناول كأساً من الشاي. لم تتحمل أزرار بنطاله ضغط بطنه ومعدته. فسقط أحد أزرار البنطال. وبما أن الزر انقطع بصمت و لم يشعر الآخرون بسقوطه حتى النجار نفسه، لذلك لم يجد حرجاً في تناول الكأس الثانية ودون أن يشعر بسقوط زر آخر من بنطاله. بعد الشاي قدم للنجار كأساً كبيرة من عصير البرتقال فشربها مجبراً. لم يكن في الإمكان أن تتحمل الأزرار هذا الضغط الكبير من (المعدة والبطن). ودون أن يشعر النجار كان آخر زر قد انقطع من البنطال بحيث أصبح سرواله الداخلي مكشوفاً على كل من يمر أمامه. كانت العروس في المقابل تراقب وتشاهد هذا المنظر. فأحس النجار في حركاتها بنوع من الحيرة والدهشة والتعجب. لم يعلم النجار بحاله إلا بعد أن وقف ليستأذن عائداً إلى بيته ولأنه لا يستطيع الذهاب هكذا فقد كان من الضروري أن يخلع البنطال كي تقوم العروس المرشحة على خياطته.

وعندما هم بذلك بدأ الأطفال يصرخون وهم يصفقون بأيديهم ويصرخون:.

- اخلع يا عمي اخلع..

مع هذا الصراخ والعويل شعر النجار بالخجل الأليم فخرج من البيت وهو يمسك بنطاله وجاكيته وقميصه بيديه، يسب ويشتم الخياط جحش ابن جحش... في هذه الحالة يجب أن نتساءل عن وضع العروس المرشحة هل

تزوجت من النجار أو من غيره؟. ولكونها أي العروس خارج نطاق موضوعنا الأساسي.. فإن الذين يحبون المعرفة -أقول لهم إن النجار أعجبها وتزوجته. كم كنت في حالة اندماج كامل لحديث صديقي. بعد برهة قلت له:

- هذا جميل. ولكن قصة الجحش ابن الجحش هذه لا تؤكد على حادثة العلم الإجتماعي بحيث...

قال صديقي: لا تتعجل.. القصة لم تنته بعد... فالخياط الذي أخاط طقم العرس الكحلي للنجار قد انفجرت مواسير المياه وخزانتها والصنابير في منزله من البرد القارس.

فاهتدى الخياط إلى /معلم تمديدات صحية/ ليصلح له الصنابير والمواسير والخزانات، وخلال اسبوعين أنهى عمله بالتمام والكمال وبعد أن أنهى معلم الصحية عمله طلب من الخياط أن يجرب فتح الصنابير ويلقي نظرة فاحصة على المواسير والبواري والخزانات. لقد جرَّب الخياط الصنابير كلها. ليس هناك تسريب للمياه في الصنابير فقال لمعلم الصحية: سلَّم الله يديك يامعلمي لقد أنجزت عملاً رائعاً. وأعطاه أجرته. بعد مرور أقل من شهر وبينما كان الخياط يقيم مأدبة عشاء لعدد من ذوي المراكز الهامة في الدولة، من أجل أن يؤمن لإبنه الذي أنهى دراسته الجامعية في هذا العام عملاً في مؤسسة محترمة.

لقد حضر المأدبة ثلاثة أشخاص مع زوجاتهم إلى منزل الخياط في تلك الأمسية.

طلبت زوجات أحد الضيوف من أهل البيت الذهاب إلى الحمام لتغسل يديها قبل تناول طعام العشاء وربما لسبب آخر؟! بعد برهة من الوقت صدر من الحمام أو التواليت صراخ وعويل ينم عن أسى ومرارة. أسرع الجميع نحو باب التواليت، كان صراخ المرأة يعلو باستمرار. وتقول: الصنبور لا ينغلق (لا

استطيع أن أغلق الصنبور).

قال زوجها وهو يكلمها: لقد بُللت كلياً، كيف سأترك الصنبور؟

قال أحد الرجال الحساسين: السكر -السكر، أغلقي السكر.

حاول الخياط أن يدلهم مكان السكر داخل التواليت. لكن المرأة لم تجده.

فقالت المرأة لزوجها: سأفتح الباب ولكن لا تسمح لأحد غيرك بالدخول.

دخل الرجل الحمام ووجد السكر ويا ليته لم يجده. كان السكر مشدوداً حاول الرجل إغلاقه وبينما كان يحاول إغلاقه خرج السكر مع المواسير والبواري وانفجر الماء من جميع الصنابير وامتلأ البيت بالماء. كانوا في الطابق الرابع، وبدأ الصراخ يعلو من الطوابق الأرضية الثلاث وبدأ ضرب السقف ومناداة الجيران.

اتصلوا هاتفياً.. حضروا أمام البيت.. غرقت البناية بالماء... بعد ساعات جاءت الاطفائية لم تستطع أن تقطع الماء حتى الصباح، لكنها أوصلتها بواسطة خرطوم إلى الشارع. لا شك أن الضيوف خرجوا من البيت مبللين على أكمل وجه ودون أن يتناولوا طعام العشاء وهم يتمتمون. بينما كان الخياط يشتم معلم الصحية ليس كشتائم الآخرين ولكن بشتائم خاصة به:

- ولك لم يمر إلا شهر واحد للتصليح يا .... لاحظ الفرق...

كل واحد كان جحش ابن جحش يختلف عن جحش ابن جحش الآخر.

أما معلم الصحية فقد اشترك في جمعية سكنية.

عند هذه النقطة من القصة قلت:

- فهمت.. فهمت.. لقد مر عشرون عاماً على اشتراكه في الجمعية ولا يزال ابن الجحش هذا متعهداً.

قال صديقي: إذا كان الأمر كما ذكرت أفضل من الذي سأذكره.

الجمعية السكنية أتمت بناء المنازل خلال ثمانية أعوام، في العـام التاسـع لم يبـق بناء واحد على سطح الأرض لأن الجحش...

- هل فتحوا دعوى؟

- لا لم يفتحوا.. لأن موظفاً في العدلية أحرق أوراق الدعوى.

- وأي حمير أبناء الحمير.

- بعد ذلك مرض.. الطبيب لم يشخص مرضه.

قلت لصديقي: فهمت الآن.. إن هذه القصة ستظل على هذا المنوال.

- لا القصة لن تبقى هكذا.. الحقيقة إن القصة تسـتمر وتسـتمر.. ولكـن إلى نقطة محددة. لأنه عندما تتحرك من نقطة أو من مكان إلى آخر لا تستطيع أن تقول جحش ابن جحش.

- ولماذا لا تستطيع أن تقول؟.

- لأنـه وصلنـا إلى مرحلـة لا يملـك الرجـل فيهـا إجـازة لمعاقبـة رجـال الأعمال.. التاجر، صاحب البنـك، السياسـي، الطبيـب، المهنـدس، الموظـف، جميعنا نقول لبعضنا جحش ابن جحش ولكننا لا نستطيع أن نقولها لمن ارتقى إلى منصب لا يملك فيه إجازة للعقاب.

- لقد فهمت الآن لماذا نشتم بعضنا عن طريق الحمـار المسـكين إنـه واقـع علم الأعمال الاجتماعي...

- ٢٦ -

- حب الضيافة القومية (الوطنية) -

كان يملك مكتبة في إحدى الولايات البعيدة، ومراسلاتنا مستمرة.

فهمت من رسائله أنه شاب تقدمي. مع بداية كل صيف، كان يكتب إلي ويدعوني إلى تلك الولاية التي يعمل بها كصاحب مكتبة. وفي كل مرة كنت أكتب له أنني لا أستطيع الحضور لكثرة أعمالي وأشغالي. لم يملَّ من دعوتي، كان يكتب إليَّ موضحاً، بأن القراء سوف يسرون كثيراً بالتعرف عليَّ. وأنهم ينتظرونني. وحقيقة الأمر كنت أحبذ الذهاب إلى تلك الولاية (المحافظة) التي لم أزورها أبداً، وأقيم فيها يوماً أو يومين. ولكني لم أجد الوقت والفراغ الكافيين. في بداية الصيف جاء صاحب المكتبة إلى استنبول، واتصل معي هاتفياً يسأل عن حالي وأحوالي ويستفسر عما إذا كان بإمكانه أن يلتقي بي في منزلي. وقعت في حيرة، فقد كنت مستغرقاً في تأليف كتاب واقعي وهام. ولم يكن لدي فراغ من الوقت. إلا أنه يصعب على الكاتب أن يوضح لقرائه قلة فراغه ووقته.

سألته في أي وقت سيرجع إلى ولايته، قال: إنه جاء قبل يومين وأنه سيعود بالطائرة هذه الليلة. إذن هو الآخر لم يكن لديه وقت. قلت له: أنتظرك في منزلي احضر حالاً.

الشاب التقدمي، يعمل في مكتبة وقد راسلته منذ ثلاث أو أربع سنوات. لم يحضر إلى منزلي وهو فارغ اليدين، لقد أحضر معه ضمن علبة نوعاً من الفاكهة المشهورة في ولايته ومن إنتاجه الشخصي.

قال بأنه لن يأخذ الكثير من وقتي. ومرت ساعة من الزمن ونحن نشرب

الشاي ونتحادث /نتناقش/ كان يتكلم بلهجة محلية فريدة وحلوة.

كان زائري مثقفاً درس خارج الوطن، وصف نفسه بأنه إنسان عصامي أوجد نفسه بنفسه، أحب هؤلاء الناس، ولكن من بعيد!! إذا كنت سأفرغ نفسي لكل محب ساعة أو ساعتين، كان علي أن أودع الكتابة والكتاب. وهكذا أصبحت الحال في السنوات الأخيرة، كان يدعوني إلى ولايته البعيدة كي أوقع كتبي للقراء الذين سيشترونها. وأبقى يومين أو ثلاثة أيام هناك ضيفاً عليه وعلى محافظته البعيدة. وكان يُلحُ على ذلك. ويؤكد أني سأرتاح هناك. الاستجمام هي الكلمة التي خدعتني، حددنا موعد ذهابي إلى تلك المحافظة البعيدة، ورحل الشاب مسروراً بعد أن أخذ مني موعداً للذهاب.

وصلت إلى مطار تلك المحافظة البعيدة في التاريخ المحدد، استقبلني الشاب مع أحد أصدقائه. وانطلقت السيارة بنا تأكل الطريق، وصلت إلى المحافظة البعيدة ليلاً. حسبت أني سأنزل في أحد الفنادق في هذه الساعة المتأخرة من الليل. حتى أنني لم أفكر بتناول العشاء. ولكن التخلص صعب من الأفراح الشرابية /الكحولية/ وخاصة إذا كنت مدعواً. ورغم توسلاتي لهم بأني لا أرغب بالعشاء، فأنا بحاجة إلى النوم والراحة.. فكان جوابهم:.. أوووو هل يستطيع الإنسان أن ينام وبطنه فارغ؟.

تذكرت حكمة الأولين القائلة: /الضيف حمار صاحب البيت/ فأنا الذي قبلت أن أكون ضيفاً. ولهذا كان علي الاستجابة مضطراً لتوسلات الترجي المشفوعة بالرقة لصاحب البيت. تفضلوا! كنت أظن أننا سننزل في أحد الفنادق، حيث أضع محفظتي وأغسل يدي ووجهي، وربما نأكل طعام العشاء في مطعم ذلك الفندق. لكن الأمر اختلف كلياً، فسيارتنا بعدما احتازت الأماكن الخالية من السكان.. دخلنا الأماكن المضيئة.. رأيت المخازن والأنوار.. مررنا أمام البنايات الكبيرة. ومن ثم دخلنا مستنقع الظلام. ثمة

أضواء خافتـة كـانت تتسرب مـن خلـف الستائر. الشـيء الـذي فهمتـه أن مضيفي سيصحبني إلى فندق غير نظامي وفي حي أهملته البلدية.

توقفت السيارة أمام كومة من السواد بعدما نَزَلت وصعدت بحفر في الطريق. هذا السواد الكبير يجب أن يكون الفندق الذي سأنزل فيه. نزلنا من السيارة، لم تكن ثمة أضواء أمام الباب، رنَّ مضيفي جرس الباب، فانفتح. في الداخل مصباح كهربائي ينير الغرفة. استقبلتنا في الباب امرأة تلبس لباساً قروياً وعدة أطفال، كانت المرأة حاملاً وإلى جانبها أربعة أطفال، الطفل الذي في بطنها كان ينتظر الخروج إلى الحياة في كل لحظة. أحد الأطفال في حضنها، وأمسكت بيد الثاني، أما أكبر الأطفال فقد كان واقفاً متشبثاً بطرف ثوبها.

- تفضلوا..

فهمت أن المكان الذي جئنا إليه ليس فندقاً.. وإنما منزل ذلك الشاب المثقف والذي ألحَ عليَّ للمجيء إلى هنا... هذا ما فهمته بعد ذلك.

قلت وأنا أدخل من الباب: أرجو أن لا أزعجكم في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- ما هو الإزعاج.. استغفر الله... تفضلوا.. تفضلوا...!

هذا المكان قبو من عمارة على وشك أن تتهدم.

سأل الشاب المثقف زوجته الحامل: هل السفرة جاهزة يا هانم؟

أجابت المرأة: بعد أن رحبت بي وشدت على يدي، السفرة جاهزة من المغرب.

كانت المائدة جاهزة حقيقة في الغرفة التي دخلنا إليها. وربما بطحةً من العرق تحت المنضدة، وتوزعت عدة مناشف بيضاء على المائدة. كما استقبلنا صديق الشاب وزوجته وأطفاله الثلاثة، وعلمت بعد أن دخلنا البيت أنه

شقيق الشاب الذي دعاني. كان عدم الجلوس إلى المائدة بعد أن تم تجهيزها من قبل هاتين المرأتين النشيطتين، ضرباً من الجنون.. وفي كل الأحوال.. بعد العشاء بالتأكيد كنت سأذهب إلى الفندق.. ولهذا السبب كان يجب البقاء هنا ساعة أو ساعتين.

الأكلات الشعبية المحلية /والمازوات/ كلها كانت رائعة. تعجبت من الأمر كيف لامرأة لها ثلاثة أولاد عدا الذي في بطنها.. كيف جهزت هذا الكم من الطعام.. مرت فترة العشاء بسلام.. لا حرارة إنسانية زائدة ولا باردة مع أن الأطفال الموجودين معنا والذين حبسوا في الغرفة الثانية، كان لهم دور كبير في برودة الجو وعدم صفائه.. من كثرة الصراخ والعويل والطلب والرد. ولكي أخطو بالخطوة الأولى نحو الفندق قلت:

عن إذنكم.. ايه.. يجب أن أذهب..

سألني صاحب البيت وفي عينيه حالة من الحيرة الشديدة:

- إلى أين؟

قلت: إلى الفندق.. ألن تأخذني إلى الفندق؟

كان حديثهما بلهجة محلية قحة:

- لو قتلتني أفضل من أن تقول هذا الشيء يا سيدي. إذا كنت تريد أن تجعل مني أضحوكة أمام الناس.. وتريد أن تجعل مني لا أساوي عشرة قروش.. ماذا سيقول الناس.. انظروا، جاء ضيف من استنبول و لم يستقبله في بيته.. اجعلني قرباناً لك يا سيدي. لا تجعل من الناس تقول عني.. انظروا دعا ضيفاً من استانبول و لم يحترمه في بيته... بل أخذه إلى غرف الفندق ليتخلص منه.. هذا لا يمكن يا سيدي ستبهدلني أمام الناس بحيث إذا وقعنا في ألسنة البلد، لا نستطيع أن نتخلص من هذه البهدلة أطفالاً ورجالاً حتى البطن السابع. إذا ذهبت إلى الفندق، فما عليَّ إلا أن أقتل نفسي أو أرحل بعيداً إلى

ديار الغربة.. لا تفعل ذلك يا سيدي لا تخجلني يا سيدي.

في أول الأمر لم أكن أفهم ما يقوله.. بعد ذلك فهمت أنه يطلب مني أن أنام في بيته وليس في الفندق وبعبارة أخرى.. وعلى حساب ما يقصده أنه لا يريد أن يرميني في زوايا الفندق.

ماذا أقول وأنا في هذه الحالة من الدهشة والحيرة:

- أنا لا أريد أن أزعجكم ببقائي هنا ليس إلا. بقائي في الفندق يكون مناسباً أكثر على ما أعتقد.

- استغفر الله.. ما هذا الإزعاج.. وأي إزعاج.. هل أنت غريب حتى ننزعج منك.

شكرته.. ولكن لن أبق في البيت.

- أنا أعرف أنكم لن تحسوا بالإزعاج لبقائي.. ولكني شخصياً أشعر بعدم الرضا عن نفسي. وخوفاً من أن أسبب لكم شيئاً من ذلك /أي الانزعاج/

كل ما سأقوله لا نفع له... في هذه المرة.. قلت أنه لكل واحد منا عادة ما، فمثلاً /عيب واحد يحكي/..من عادتي أني لا أستطيع النوم /بالبيجاما/ ولأجل هذا السبب يجب علي أن أذهب إلى الفندق..

كان جوابه حاضراً:

- إذا كنت تريد النوم بالسروال.. أو بدونه.. أنت حر في كل تصرفاتك.

كان التخلص صعباً من صاحب البيت.. في النهاية.. رضيت أن أبقى تلك الليلة في المنزل ولو مكرهاً. والصباح رباح ومع كل صباح خير جديد.

كنت أقول في نفسي في صباح اليوم التالي لا بد أن أجد طريقة للتخلص، وأتوجه إلى الفندق.

بعد أن اطمأن صاحب البيت، وأعطيته الأمان والوعد بالبقاء عنده. بدأ يشرح لي بأنه لا يريد سوى راحتي. والحقيقة لم يكن عندي شك بسيط في ذلك وكنت أعرف أنني لن أرتاح في بيته أكثر من الفندق.

قلت لهم بأنني تعبٌ جداً من السفر وأنني سأنام باكراً... كان الوقت بعد منتصف الليل إذا لم يكن أقل ومن الممكن أن نظل حتى الصباح نتناقش بكلام غير مفيد.

كنت أعتقد بأنني سأذهب إلى غرفة النوم، وأين مكانها، ولكن الشيء الذي ظهر للتو بأن غرفة النوم هو المكان الذي تناولنا فيه طعام العشاء.

أفرغوا مائدة الطعام إلى المطبخ، وسحبوا المائدة إلى زاوية من الغرفة، وجمعت المرأة مناشف الطعام البيضاء، أما الرجلان فأحضرا فرشتين ووضعوهما فوق بعضهما، ثم أحضروا الوسائد والشرشف والبطانية.. واللحاف.. فأصبح مكان النوم جاهزاً.

انسحبوا من الغرفة وهم يقولون: أراحك الله...

أصغيت بعض الوقت لخلو المنزل، انتظرت خلاء التواليت، وعندما عم السكون داخل البيت، خرجت أمشي على رؤوس أصابعي كي لا أحدث ضجة. كان الممشى مظلماً. وجدت صعوبة في إيجاد زر المصباح الكهربائي، وفجأة التف على رجلي شيء ما.

حاولت التخلص من هذا الشيء وكنت على وشك السقوط رأساً على عقب، لقد صدمت القطة التي كانت تمشي بين قدمي. فأطلقت مواءً من شدة الألم الذي سببته لها.. وربما أحس الجميع واستيقظوا من نومهم. دخلتُ بيت الخلاء أو بالأحرى دخلت إلى المكان الذي ظننته بيت الخلاء. نظراً لرائحة المكان، كان من المفروض أن يكون /بيت الخلاء/ لكن منظره كان على شكل عنبر صغير، إنه مكان كالمستودع، فيه صندوق للنفايات. وهناك سلة

كبيرة، وجلود دراجة عادية، وكتب متناثرة هنا وهناك، أطباق كبيرة وصغيرة، عدة أزواج من الأحذية، وزجاجات فارغة وأمتعة كثيرة لا تحصى. ووسط هذه الأكوام كان بيت الخلاء مختبئاً في مكان. بحيث لم أستطع إيجاده. كنت على وشك أن أعود ثانية دون أن أتغوط، ولكن ذلك مستحيل - العفو- كنت في ضيق شديد. ركزتُ حاسة شمي على الجهة التي تزداد منها الرائحة ومشيت داهساً العلب وأكوام الجرائد والثياب الوسخة وأخيراً نجحت في إيجاده. كان الجلاس مكسوراً، لكن من ضيقي الشديد لم أكن أرى لا الكسر ولا المكسور.

ربطوا حبلاً بالشلال (السيفون) بدل السلسلة الحديدية، وعندما سحبته أصدر السيفون قرقعة كبيرة، وتمايل من أساسه، إنه زلزال حقيقي. لم أعرف أين سأذهب وماذا سأفعل؟ والحمد لله لم يدم الاهتزاز طويلاً، استقر كل شيء بعد قليل. ومع كل هذه الضجة والهزة والقرقعة لم تنزل نقطة ماء واحدة من خزان الماء. عندما فتحت باب بيت الخلاء وأنا في حيرة من أمري، وإذ بشخصين اثنين واقفان أمامي بسراويلهما الطويلة استيقظا مذعورين من نومهما. قال صاحب المكتبة:

- آه، لقد نسينا أن نقول لك أن خزان بيت الخلاء فارغ ومعطل. وعند سحب السيفون يصدر صوتاً كالذي سمعته.

- ليس صوتاً فقط.. بل اهتزازاً أيضاً.. فاعتقدت أنه زلزال حقيقي..

أوضح الشخصان لي طريقة تنظيف بيت الخلاء. فإلى جانب الكرسي صفيحة فارغة.. في داخلها علبة.. ستأخذ العلبة وتملؤها بالماء من الصنبور وتفرغها في الخلاء.

قلت لصاحب البيت المضياف:

- أنت محقّ جداً.. لكل بيت طريقته الخاصة لتنظيف الخلاء. الحق عليَّ

كان يجب أن أسألكم وأتعلم طريقة التنظيف.

بينما الرجلان عائدان إلى غرفة نومهمـا، توصلـت إلى قناعـة بـأن الاثنـين ينامان في غرفة واحدة والزوجتين والأولاد في غرفة ثانية.

عادا إلى غرفتهما وبدأت أنا بالبحث عن المغسلة لأغسل يـدي. والمغسـلة هي الأخرى لم تكن في مكان يسهل علي إيجادهـا.. والحمـد لله وبعـد بحـث طويل وقعت يدي على صنبور المغسلة -الشكر لله- أخيراً وجـدت الصنبـور لأغسـل يـدي ووجهـي. المضحـك في الأمـر، أنـي وجـدت مقبـض الصنبـور مربوطاً ربطاً محكماً بحبلٍ. فكرت لحظة بطريقة أستدل فيها إلى فتح الصنبور، لكني لم أجد حلاً لذلكً. مع أن قبضة الصنبور مربوطة، لكن الماء لا يتسـاقط من فتحة الصنبور.

أدرت المقبض بروية، فانسكب الماء فجأة من الصنبور /شـيريل... شـيريل (صوت انسكاب الماء)/ وكلما حاولت إغلاقه زاد تدفق المـاء أكثر. احـترت فيما سأفعل، فكرت أن أترك الأمر هكذا وأنام. ولكن المياه المتدفقة كانت قد ملأت المغسلة وبدأت تسقط على الأرض وتملأ زوايا الغرفة. ربما يغرق البيت خلال ساعات قليلة بالمياه. كنت ألعن نفسي وبعنف، لماذا وكيف وقعـت في تأثير الرجل وبقيت هنا في هذا البيـت. ولمـاذا لم أعمـل المسـتحيل للنزول في أحد الفنادق. ورغم صراعي مع الصنبور لبعض الوقت فقد فشلت في إغلاقه. تبللت ثيابي بكاملها. ولم أجـد حـلاً غـير إيقـاظ صـاحب البيـت لحـل هـذه المشكلة. طرقت الباب مصدر شخير النائمين فكان الجـواب شـخيران آخـران من شخصين. فكرت بالهرب من المنزل لكـن كيـف؟ أنـا إنسـان غريـب وفي محافظـة نائيـة.. والصبـاح قريـب.. لا أسـتطيع التحـرك قيـد أنملـة في هـذا الظلام... فأين وكيف سأجد فندقاً...مستحيل. طرقت البـاب ثانيـة وبقـوة، كان الجواب ثانية شخيران أحدهما ناعمٌ ، والآخر كصوت ارتطام سلاسـل

باخرة بقـوة علـى الأرض. مـا مـن حـل إلا أن أفتـح البـاب وأدخـل الغرفـة. وفعلت ذلك، رجلان في فراشٍ واحد يشخران كالأغنام. أيقظتهما بعد نصف ساعة على أقل تقدير، بـالهمز وبـالضرب والصـراخ، سـألني صـاحب المكتبـة بلهفة ودهشة: ماذا هناك؟ قلت له: خـير لا شـيء سـوى أنـي لم أستطع أن أغلق صنبور الماء، والمياه على وشك أن تغرق البيت بما فيه. انتظرت عشـر أو خمسة عشر دقيقـة والرجـل لا يعرفـني ولا يفهـم مـا أقولـه. في النهايـة مشـى الاثنان أمامي نحو المغسلة وقد ارتفع منسوب الماء داخل بيت الخلاء إلى مرفـق القدمين.

هجم الرجلان دفعة واحدة على الصنبور، وكأن معركة حامية بدأت مـع الصنبور والحبل والماء. في نهاية هذه المعركة نجـح الرجـلان بإزالـة الحبـل مـن مقبض الصنبور وربطه بحبل جديد آخر وقطعوا تدفق الماء. في هـذه المـرة بـدأ الصنبور يصدر صوتاً كصوت كلب الحارس. كان الرجلان يحـاولان تنظيـف الأرض من المياه ومن جهة أخرى يحاولان إرشادي إلى غرفة نومي.

- اذهبوا وناموا... تمددوا.

كانا يعتـذران ويحـاولان التوضيـح لي بـأن لكـل بيـت خصوصيتـه. كـان صوت الصنبور يهدر بقـوة. مسـتحيل أن أنـام أو أغفـو لفـترة قصـيرة. كـان الصنبور يصدر من وقت إلى آخر أصواتاً كانفجـارات محـرك سيارة. أضيـف إلى حلقة الأصوات المزعجة صوت جديـد قـادم مـن السـقف، هـذا الصـوت الجديد أخبرني عنه صاحب المكتبة التـالي: هـذا الشـيء غـير مهـم، القـاطنون فوقنا يضربون الأرض بـالعصي والأرجـل كـي نقطـع هديـر الصنبـور عنهـم. الخلاف بين الجيران في هذه الأمور أمر عادي جداً.

أنا الآخر تحملت أصواتاً أقوى من هذا الصوت كثيراً.

في هذه الفترة خرج صوت زوجة صاحب المكتبة وهي تصرخ:

- أغلقوا السِكر.. أغلقوا السكر.

كان من المفروض دون أي شك، بأن أول عمل يجب القيام به هو إغلاق السكر ولكن قبل ذلك كان علي أن أجد مكان السِكْرِ. وعندما أغلقت السكر بعد بحثٍ طويل عنه انقطعت الأصوات والمياه.

في تلك الليلة وللمرة الثالثة كان صاحب البيت يقودني إلى فراشي طالباً من الله أن أنام مرتاحاً. كنت أشعر بنعاس شديد، لكن تعب تلك الليلة المسعورة وتوتر أعصابي حالا دون أن يغمض لي جفن. وبينما كنت على وشك النوم وإذ بصوت جديد، صوت قرقعة فريدة من نوعها لم أسمع مثلها أبداً.. وفي كل واحدة تتنبه أعصابي.. فأفتح عينيَّ... فكرت طويلاً في مصدر هذا الصوت الخانق -كصوت حيوان كبير. هل هي أصوات الدواليب، أم أصوات عصاً غليظة وهي تضرب على أوتار الفيولا؟ وكلما حاولت أن أغمض عيني وأنام، أقفزُ من فراشي وتشتد ضربات قلبي هلعاً من هذا الصوت. وفي النهاية فهمت أن مصدره كان باب غرفتي عند كل حركة فتح وإغلاق صغيرة. من تشابك أصوات الأبواب في المنزل يتكون صوت فريد من نوعه، أشبه بفحيح الأفاعي، وشخير حيوان يُذبح.

والشيء المهم أن الحركة إلى بيت الخلاء قد هدأت قبل بزوغ الفجر. وبينما كنت على وشك النوم سمعت مواء قطةٍ بجانبي جعلتني أقفز من مكاني صارخاً. قطة كانت تخربش على باب غرفتي وتموء باستمرار. هذه القطة نفسها التي التفت بين قدمي وأنا ذاهب إلى بيت الخلاء، كانت على ما أعتقد، قد اعتادت النوم في هذه الغرفة، ولهذا كانت تحاول الدخول إليها بالخربشة والمواء دون توقف. انتظرت طويلاً لعل القطة تتراجع عن عنادها، فتحتُ لها الباب،فاندفعت كالبرق إلى الفراش. ربما اعتادت النوم في هذا الفراش، أما أنا فلم أكن معتاداً النوم مع قطة وجهاً لوجه. تركت لها الفراش

وجلست بعض الوقت فوق الأريكة إلا أنني لم أتمالك نفسي ونعاسي فعدت إلى الفراش واضطررت إلى النوم في حضن القطة. كانت القطة معتادة على الفراش بحيث، سمحت لنفسها أن تأخذ مكاناً في حضني وغطت في نوم عميق. وبعد خمس أو عشر دقائق من نومها بدأت براغيث القطة تدخل جسمي وشرعت بالحكاك. أشعلت المصباح وبدأت اصطاد البراغيث من ثيابي الداخلية. في النهاية رفعت رايتي البيضاء وتركت الفراش للقطة وتمددت فوق الكرسي عارياً. رفعت رأسي ، فتحت الستارة، ونظرت إلى الخارج، كانت السماء قد بدأت بالضياء رويداً رويداً. عندها وضعت يدي فوق ركبتي محاولاً النوم ولو قليلاً وإذا بأصوات الأطفال تخرج من الغرفة الثانية، استيقظت من جديد، فرأيت طفلان يدخلان إلى غرفتي، عُمرُ أحدهما أربعة أعوام والآخر ثلاثة، أما الثالث فأعتقد أنه كان يخلد إلى النوم في حضن أمه، سألني أحدهم: لماذا لا تنام في الفرشة، ولماذا أنت جالس هكذا بالسروال الداخلي على الكرسي، فقلت له إن القطة قد استولت على الفراش، سألني الطفل الثاني وهو الأصغر على ما أعتقد. هل الفراش لا يتسع لك مع القطة وهو يضحك بصوت عال. ودخل الفراش وأراني كيف يتم تقاسمه مع القطة:

- انظر هكذا.

كانت أعصابي قد توترت كثيراً، شتمت الأطفال ناسياً أنهم أطفال صارخاً:

- انقلعوا إلى غرفتكم!!

قالوا إن هذه الغرفة غرفتهم وأنهم في كل صباح يستيقظون ويأتون إلى هنا حيث والدهم ينام مع القطة.

بدأت أفهم كل كبيرة وصغيرة تجري في هذا البيت، ولكن الشيء الذي لم أفهمه، هو لماذا لا تهاجم الفئران الموجودة في الغرفة وبأعداد كثيرة؟ ولا

تخرج صوتها أبداً، والذي لم أفهمه، عرفته من الأطفال بعد ذلك،. وهو أن القطة والفئران ترعرعوا وعاشوا معاً، واعتادوا على بعضهم. حتى أنه في العام الماضي، عندما وضعت القطة صغارها، صادف أن فأراً صغيراً رضع حليب القطة. أي أن القطة أرضعت فئران صغاراً. وقالا: لقد وضعنا صغار القطط أمام اللحام في السوق.

عندها فهمت أنني غير قادر على إخراج الأطفال من الغرفة، لبست ثيابي كاملة وبدأت أمشي جيئة وذهاباً داخلها ومن خلال تجربة الليلة الماضية لم أقترب من بيت الخلاء لقضاء الحاجة ومن المغسلة لغسل يدي ووجهي، خوفاً من تكرار الحادثة. حتى مجرد التفكير من الاقتراب منهم. ثم تعرفت على صوت صفير الباخرة، وصوت صفارة بدء دوام العمل في المعمل. صفير قطار... وصوت انفتاح الصنبور لمرات. وهو يحدث صوتاً يشبه صوت كلب متوحش. وصوت سلسلة الشلال في الخلاء. بدأ الضوء ينتشر في قبة السماء .. أما أنا فكم تمنيت البقاء في الظلام، وفي ذلك البيت، لأنه مع انتشار الضوء، ظهر الذباب الأسود فجأة، بأعداد كبيرة جداً و لم أستطيع الدفاع عن نفسي لكثرتهم. كان الذباب يحط على أنفي وفمي وعيناي وخاصة فوق شفتي.

وبينما كنت أدافع عن نفسي من الذباب أطلق الشقيقان الممدان في الفراش ضحكة عالية هذه الضحكة قد أوصلت التوتر إلى أعصابي لأبعد نقطة. صرخت في وجههم:

- ما الأمر الذي يضحك؟.

أدى صراخي إلى تزايد ضحك الأطفال. وبينما كانا يلعبان داخل الفرشة، بدأا يتشاجران بعنف، ويضربان بعضهما. حاولت أن أفرقهم عن بعضهم والحمد لله طُرِقَ الباب، قلت: تفضلوا.

دخل أب الأطفال وهو يقول: صباح الخير، طرد الأطفال من الغرفة وهــو يشتمهم.

كنت عاقداً العزم بالتوجه إلى أول طائرة تقلني إلى استانبول ومـع الأسـف الشديد، الطائرة الأولى كانت ستنطلق بعد ثلاثة أيام. بعـد قليـل جـاء قريـب الشاب وجمع الرجلان الفرشة واللحاف وأخرجاهما من الغرفة.

جاءت المرأة مع أطفالها الثلاثة هي الأخرى، سألني الشـاب إذا كنـت قـد نمت مرتاحاً ولكوني ضيفاً كان يجب علي أن أقول: قضيت ليلة ممتازة.

قال صاحب البيت: طبيعي جداً يـا روحـي البيـت شـيء والفنـدق شـيء آخر.

وقال الآخر: هل يستوي المنزل والفندق.

قال صاحب المكتبة: الأمر عندنا يختلف عن المدن الكبيرة عندكم.

سألته: كيف يعني؟

هنا من العيب الكبير أن ينزل الضيوف الأعزاء في الفنادق.

سحبت المرأة الطاولة إلى وسط الغرفة وأتت بطعام الإفطار.

الحالة لم تتغير معي في الليلة الثانية والثالثة، ولكن في الليلة الثالثة كنت قـد تكومت كقربة ماء ورحت في سبات عميق. ولم أدر هل هـو السبب في قلـة النوم أم اعتيادي على حياة هذا المنزل.

في اليوم الثالث كنـت أغـادر تلـك المحافظـة.. وبينمـا كنـا في الطريـق إلى المطار قال الشاب وقريبه وهما يودعاني:

- هذه الزيارة غير محسـوبة، لا تتـأخروا علينـا، تعـالوا تفضلـوا.. نحـن في انتظاركم.

كم كانوا أناساً طيبـين كرمـاء وعلـى نيـاتهم، شـكرتهم علـى ضيـافتهم، وشعرت أنني قضيت بينهم أياماً جميلة لا تنسى.

- ٢٧ -

- كيف ضربنا السيد مديرنا العام -

ما من أحد كان يعرف عمل مديرنا قبل أن يصبح مديراً عاماً.

بأي الأعمال كان يعمل وأين وكيف، شخصيته مجهولة عندنا. ومع كل هذا كان كل واحد منا يعطي انطباعاً عنه وعن نوعية أعماله قبل أن يصبح مديراً عاماً. وبما أن شخصيته غير محبوبة فقد كانت الآراء والانطباعات كثيرة ومتنوعة عن أعماله قبل أن يكون مديراً عاماً. وأعتقد في هذا المجال أن كل واحد كان يؤلف حكاية من نسج خياله. فمثلاً هناك موظف ادعى بأن المدير العام كان يعمل رقيباً في الجندرمة. وموظف آخر يدَّعي بأن المدير العام كان يعمل قبل سنين طويلة قاطع تذاكر في /الترومـاي/، وآخر يدَّعي بأن المدير العام كان عاملاً سابقاً لبيع السندويش والمرطبات في الجامعة (بوفيه الجامعة).

ومع أن هذه الأقاويل والادعاءات أخرجها صاحبها لتحقير السيد المدير العام، إلا أنه في الحقيقة كان يُظهر عصاميته واتزانه وخبرته في الحياة.

الشيء الوحيد الذي نعرفه عنه أنه من أقرباء السيد الوزير. وذلك بعد الانتخابات الأخيرة التي أحدثت تغييراً في الحكومة... وكان أول عمل للوزير بعد تعيينه أنه وضع هذا الرجل كمدير عام لمؤسستنا، ولا نعرف أيضاً صلة القرابة بين السيد الوزير والسيد المدير العام. البعض يدعي أن السيد المدير العام هو عديل السيد الوزير، وآخر يقول أن المدير العام يكون خال زوجة الوزير من غير أب، وآخر يدعي بأن المدير العام هو ابن حما الوزير وآخر وآخر... والإشاعات تقول: ليس من قرابة بينهم لكن أم الوزير وأم مديرنا العام كانتا صديقتين في مرحلة شبابهما الأولى أي جارتين قريبتين في حي

واحد. الإشاعات مختلفة ولكنها تجتمع في نقطة واحدة، وهي أن السيد المدير العام يكون قريب الوزير عن طريق زوجته. ويجب أن يكون هذا الأمر قطعياً، ولماذا؟ بوجود أقارب لزوجته فلا مكان لأقاربه. ومع ذلك فهذا لا يهمنا، إن كان رقيباً في الجندرمة أو بائعاً للسندويش أو أي شيء، وفي كل الأحوال سيكون أحدهم مديراً عاماً. والأمر الأفضل في أن يكون المدير غريباً عن الوزير وعنا، وأن لا يكون المدير العام من أقربائه أو أقرباء زوجته.

لأن قريب زوجة الوزير سيعد مباشرة أو بشكل غير مباشر قريب زوجاتنا.

لأن وزيرنا في أول يوم من تعيينه أصدر تعميماً قال فيه: أن جميع العاملين ضمن صلاحيات الوزارة يشكلون عائلة واحدة. وبما أننا عائلة واحدة فعائلة الوزير هي عائلتنا، بنت الوزير ستكون بنتنا، وعديل الوزير سيكون عديلنا، وزوجة الوزير ستكون زوجة أخينا.

بعد عدة أيام من تعيين مديرنا العام من قبل الوزير، فهمنا أن الرجل شرٌّ وبلاء، ولم يدخل الوزارة رجل مثله. وكما يقول أحد المتقاعدين الذين يعاندون الموت بضراوة: إن مديرنا العام هذا لم يأتِ مثله كعدو للرشوة والفساد حتى في السنوات الأولى لبناء جمهوريتنا الموقرة. وأول حديث سمعناه منه مباشرة قوله: لن أطلب الرشوة قطعياً. أيها الأخوة في مديريتنا هذه لن يستطيع أحدٌ أن يأخذ من المواطنين رشوة أو هدايا تحت اسم /بخشيش/ الرشوة ممنوعة بعد الآن.

إذا كان الأمر كذلك، ولم نأخذ رشوة.. كيف سنعيش إذن؟

الحظر الذي فُرض على مديريتنا من قبل المدير كان له ردود أفعال مختلفة: "عيون الجميع تحملق لهذه القروش التي نأخذها.. الرشوة.. كما يسمونها".

"فالسلطان عبد الحميد قال في حديث له: الرشوة موجودة حتى في الجنة. قرأت هذا منذ أيام في التاريخ، فكيف اليوم والتضخم قد ارتفع أضعافاً مضاعفة".

"هذا الشيء الذي يتحدثون عنه. لا نأخذه قسراً، نحن نخدم المواطن، والمواطن يعطينا البخشيش بكل طيبة خاطر".

"ما نأخذه لا نضعه في جيبنا مباشرة بل نتقاسمه تحت عدالة احتماعية كل يأخذ حقه".

"هذا جميل يا أخي ولكن ليس الجميع من رأس النبع، هناك فقط الموظفين المساكين الذين ينتظرون آخر كل شهر، الجميع يأخذون حقهم. خذ هذه لك، وهذه لك، ماذا بقي لحسن؟" (مَثَلٌ شعبي نادر).

"ولك يا أخي هذا مدير عام، طبعاً لن يقول لنا خليكم كما كنتم سابقاً، خذوا الرشوة، بطبيعة الحال الرشوة ممنوعة. اقرأ الشيء الذي تعرفه يا أخي".

"هذا جميل... لماذا التحدث عن الرشوة فجأة؟".

أجمل رد فعل جاء من النائب الثاني للمدير العام، سمعنا حديثه بعد وقت طويل. هذا البيروقراطي الخبير الذي يقترب من الإحالة على التقاعد كان رد فعله واضحاً إذ قال:"في الوقت الذي انكمشت فيه الأيدي، وحملقت العيون. يتحدث المدير العام بعد تعيينه بيوم واحد عن الرشوة عن الرشوة؟ ها.. لماذا؟ الأمر يدعو للتساؤل: أنا موظف قديم وقدير ومسكين إذا لم أفهم ما يعني، فمن يفهم ذلك غيري؟ إن الرجل يريد أن يقول إن الرشوة إلى غيري ممنوعة. لا يحق لموظف أن يأخذ رشوة والمدير العام موجود. إذا أخذ المرء شيئاً يجب أن يكون ذا أهمية يستحق الأخذ".

في البداية لم نصدق كلام هذا الموظف القديم، ولكن عندما بدأت معيشتنا تتراجع يوماً بعد يوم أعطيناه الحق. نحن لم نكن نأخذ الرشوة خوفاً

من المدير العام.. لا أبداً، كان هناك سبباً آخر لعدم أخذنا الرشوة. فالسيد المدير العام كان قد فتح شعبة في مديريتنا أسماها (مديرية العلاقات الشعبية) بهذه العملية شرع ببناء سد يقطع المياه المتدفقة نحونا. المواطنون الذين لهم أشغال في المديرية العامة، كانوا يمرون إلى مديرية العلاقات الشعبية، يدفعون ديونهم عداً ونقداً على قدر الأهمية، ثم ينتشرون في غرف المديرية العامة والمكاتب، ويتمون أعمالهم دون أن يدفعوا عشرة قروش. وأي إشارة من الموظف حينما يقول تعال يوم الاثنين.. أو بالأكثر الخميس.. أو في نهاية الشهر.. إلى ما هنالك من الإشارات، كان المواطن يصرخ.. "لقد دفعنا سلفاً يا أخي" فإذا لم يتوصل المواطن إلى هدفه ، يذهب إلى مديرية العلاقات الشعبية حيث تُحل جميع مشاكله.

يبعث مدير العلاقات الشعبية خلف الموظف ويوبخه على الشكل التالي: "ألم ترَ خاتم مديرية العلاقات الشعبية على الأوراق.. ما معنى هذا الخاتم؟".

هذا الخاتم يعني أن الرشوة أخذت سلفاً.

إذا كانت الرشوة مثل الكوميسيون في التعهدات والأعمال الكبيرة، في هذه الحالة تخرج مديرية العلاقات الشعبية من العمل. فالمدير العام هنا يأخذ الكوميسيون شخصياً.

إذا كانت الأموال التي تجمع كل يوم من قبل مديرية العلاقات الشعبية توزع على الموظفين كل حسب درجته، لا يحق لأحد أن يفتح فمه، ولكن لا أحد يعرف أين تذهب تلك الأموال. الجميع يظنون أن الأموال التي ستجمعها العلاقات الشعبية ستوزع في نهاية كل أسبوع على الموظفين بعدل. لكن انتظارهم باء بالفشل.. وربما سيتم التوزيع في نهاية كل شهر.. مر شهر وشهور.. لم يأخذ أحد قرشاً واحداً.

كان وضع الموظفين حرجاً، جلهم مستأجرون، يدفعون ثلثي رواتبهم

كأجور لمنازلهم، وكثيرون منهم يدفعون كل رواتبهم أجوراً.. خارج الأجور.. الحياة المعيشية اليومية، مصاريف أولادهم المدرسية، استهلاكات الطبخ، ومصروف /الهاتم/ للعب /الكونكان/ شراب الرجل المسائي، ومصاريف أخرى كثيرة. كلها كانت تصرف عن طريق الرشوة، خاصة بعد دخول البلاد إلى الاقتصاد الحر الرأسمالي. /انتظار كل شيء من الدولة غير وارد/. طالما نقدِّم لبناء الجوامع من جيوبنا فيجب أن لا يكون الموظف محتاجاً فقط إلى ما تعطيه الدولة من الرواتب.

يجب أن يدبروا أمرهم ويأخذوا نصيبهم من الاقتصاد الحر.

حتى أن بعض الموظفين واعتماداً على الرشوة كانوا قد انتسبوا إلى جمعيات سكنية، يبعدهم عن التسكع والإيجار. عندما منعت الرشوة أصبح الموظفون لا يستطيعون دفع أقساطهم الشهرية على هذه الجمعيات.

دين.. دين... دين.. ماذا سيحصل في النهاية؟ كانت السكين قد وصلت إلى العظم. إذا كنت تريد الشكوى، فإلى من ستشكي؟ الرجل الذي تريد أن تشتكي عليه، هو وزيرنا الذي يحميه من كل الجهات، ثم إنك لا تستطيع أن تشتكي لأن الرشوة ممنوعة بقرار من المدير العام. بقي شيء واحد: بما أن الرشوة قد وجد لها شكل ما في جميع الأزمنة والأمكنة. فإن أحداً لم يستطيع إثباتها على أنها رشوة.

صديق لي ليس من الضروري أن أذكر اسمه، كان من الموظفين الذين أصابهم الكساد والجوع والقهر والدين من قلة الأموال. أحدث ضجة كبيرة بسبب حادثة هامة في المديرية. حادثة سيسجلها التاريخ. بينما كان الموظفون جالسين خلف طاولاتهم يقطعون أوقاتهم في حساب رواتبهم وديونهم على أوراق نظامية تابعة للمديرية، فإذا بصوت يعلو: النجدة... النجدة..! بدأ الصراخ يعلو.. أليس من إسعاف؟ النجدة!.

هب الجميع مسرعين إلى جهة الصوت، كانت جميع غرف المديرية في كل الطوابق قد فرغت، صاحب الصراخ كان أحش الصوت، يصيح كديك هندي: "الحقوني أيها المسلمون من يحب ا لله يخلصني، النجدة.." هذا الصوت مألوف عندنا.. إنه صوت مديرنا العام.. هجم الجميع على الباب لنجدة مديرنا العام.. لكن الباب ذو الطاقين كان مغلقاً من الداخل.. تجمهر الموظفون والمواطنون وكل من في المديرية أمام الباب.

قال أحد الموظفين وهو يضحك: إن أحدهم يفعل شيئاً ما لمديرنا العام، ولكن لم أفهم ذلك.

من صراخ المدير العام عرفنا أن أحدهم كان يمطره بالضرب واللكم.

موظف آخر قال: السيد المدير يستحق هذا الضرب والقتل منذ وقت طويل.

وقال أحدهم: أوه أوه: كنت أفكر منذ مدة طويلة أن أقتله بعصاً غليظة. وليحصل ما يحصل، وأما أخينا فقد سبقني إليه.

كان المدير يصيح ... ولم يكن في نية أحد كسر الباب.. ليظل المدير يأكل الضرب حتى يموت، والواضح أن الشخص الذي يقتل المدير لا يريد أن ينهيه مباشرة. بل يريد روحه رويداً رويداً.. حتى يشفي غليله منه. أما أنا كنت أفكر في شيء آخر، فالسيد المدير كانت له قامة كبيرة، ومن يقتله لا شك يجب أن يكون دباً أو من سلالة الدببة، ربما هذا ليس بإنسان، بل غوريلا على هيئة إنسان.

كانت أصوات اللكمات تخرج من الداخل وكذلك أصوات الكفوف واللبابيط وصوت المدير الذي يحزُ في القلب وهو يصرخ. أما من أحد في الخارج ينقذني؟.. كان الموظفون يهتفون وبصوت واحد: اضرب.. اضرب.. اضرب. وفجأة فتح الباب، وإذا بصديقي الحميم الذي أحبه كثيراً يخرج من

الغرفة، والمدير العام مسجىً على الأرض كالجاموس رافعاً أرجله الأربعة نحو الأعلى وهو يئن. والشيء المحير أن صديقي الذي قتلٍ المدير العام.. كان قصير القامة، ضعيف البنية. كيف استطاع إلى ذلك سبيلاً؟ المدير يزنه مرتين.. ماذا سيفعل المسكين؟ عندما منعت الرشوة وعندما وصلت الديون إلى الرقبة، دخلت إلى جسمه قوة سبعة أولياء.. استقبلتُه قبل الآخرين.. وباركتُ له غزوته.

– هاي.. سلمَّ ا لله يديك.. وا لله يقوي يديك، وقبلته من وجهه ورأسه وكل مكان في جسمه وباركت قتله للمدير العام.

كانت مكاتبنا في غرفة واحدة، وصاحبي المسكين ضمن بحر من الدم والعرق، ومرهق جداً. أوصيت له بفنجان قهوة وفنجاناً من الشاي لي.

قلت له: ماذا سيحصل الآن؟!.

قال: ليحصل ما يحصل.. لا يهمني شيء. /وليقطعون رقبتي/

والحقيقة كما قال صاحبنا انقطع الحبل من أرفع نقطته، وبسرعة مثيرة لم نشعر بها من قبل، وبعد قتل المدير بثلاث ساعات ونصف وردت برقية وبإمضاء الوزير تشير إلى نقل موظفين اثنين خارج ملاك الوزارة. الضرب والقتل والنقل كانوا في يوم واحد. كان أحد المنقولين وكما تتوقعون صديقي الذي قتل المدير العام حتى عودة الحمار من الماء أما الآخر فأعتقد أنكم لن تعرفونه: فهو أنا شخصياً.

إذا قلتم أن صديقي قتل المدير العام.. أما أنا.. ماذا فعلت له. سبب نقلي لم يكن مسجلاً في سجلات النقل في الملف. ولكني علمت فيما بعد من أصدقائي : ألا تتذكرون عندما استقبلت صديقي وقلت له سلم ا لله يداك وباركته، لأجل هذا تم نقلي.

إذا كانت الأوراق الرسمية لا تستطيع أن تتحول من مكتب إلى مكتب إلا

بعد ثلاث ساعات ونصف فإذا بأمر نقلنا كان جاهزاً، السبب كـان معروفـاً. لأن مديرنا العام كان قريب زوجة وزيرنا الخام. و لم يتم التحقيق معنـا لمـاذا؟ لأن هناك أسباباً عديدة: السبب الأول: موظف صغير سيقر ويعترف بأنه قتـل المدير العام. وهذه إهانة كبيرة للسيد المدير، أما السبب الآخـر أثنـاء التحقيـق فهي الرشوة التي ستنزل في الملفات والتي بسببها انفجرت الحادثة.

ومهما يكن الأمر فقد أخذنا تقريراً طبياً من الطبيب لمدة أسبوعين، بعدهـا ذهبنا نحن الصديقان إلى عملنا الجديد. مقر العمل الجديد كان خـارج المدينـة تصلها خدمة المواصلات. أقول عملنا الجديد؟!.. وليـس مـن عمـلٍ في عملنـا الجديد. بعد مدة فهمنا، أن عملنـا الجديـد هـو مقـر للنفـي أو مقـبرة لعنـاصر الوزارات غير النظامية. لا عمل لنا. نشرب الشـاي ونلقلـق مـن الصبـاح إلى المساء.

إلى هنا سيخرج كثيرون وسيقولون إنه أمر عادي جداً ما كتبته وفسَّـرته. ومن حقه أن يقول أيـن الإشـارة في أحـاديثك؟. وسـيخرج أنـاس ويقولـون: ستبقى هذه الأعمال في بلادنا وتكون عادية جداً في كل الأزمنـة. ولكـن مـا سأقوله وأتحدث عنه الآن لن نجد واحداً يقول هذا طبيعي جداً.

في نهاية الشهر الأول من عملنا الجديد، ونحن في المحاسبة لنقبـض رواتبنـا، أعطي لي ولصديقي مبلغ تسعة ملايين وأربعمائة ألف ليرة.. بينما كان راتبنـا نحن الاثنين لا يتجاوز أربعة ملايين وثلاثمائة ألف ليرة. الواضح أن هناك خطأً ما.

أعدتُ المال لصديقي المحاسب وقلت له:

- لا بدَّ أن يكون هناك خطأ ما في الحساب.

قال لي الموظف المحاسب: لا أبداً ليس من خطأ.

في هذه المرة تحدث صديقي قائلاً:

- نحن راتبنا أربعة مليون وثلاثمائة وكسور ألف ليرة.

قال المحاسب: ألم تنتقلوا إلى هنا؟ أليس لكم علم بالترفيع؟ لقد رُفعتم.

قال صديقي: يجب أن أكون الموظف الأول في العالم، رفع درجتين لأنه قتل مديره.

قلت: أنت على الأقل قتلت. أصبح لك جهد. أما أنا؟!!..

صار لنا علم فيما بعد، لماذا رفعوا من رواتبنا؟ السيد المدير العام بعد أن أكل نصيبه من الضرب والقتل.. أراد أن ينقلنا إلى مكان جديد.. يجب أن ننتقل ومهما كانت الأسباب.. وبحثوا عن الشواغر فلم يجدوا.. إلا مكان عملنا الجديد والذي لا يعمل فيه إلا الدرجات التي أخذناها.

نحن بعد الآن موظفان كبيران تم ترفيعهما درجتان ونأخذ من الراتب تسع مليون وأربعمائة ألف من الرنان. وبما أنه لا عمل لدينا ولم نكن نشعر بالضجر والملل فقد أصبح ميلنا للرشوة ضعيفاً. لأن الدولة كانت تعطينا الرشوة بالإحسان. ذاع صيتنا بين كل الناس وأصبح على كل لسان، لأننا نأخذ المال دون عمل ودون شاهد عيان. حتى وصل خبرنا إلى مقر عملنا القديم والمدير العام.

مرَّ وقت طويل.. وبينما كنا في يوم عطلة، أي يوم الأحد. خرجنا مع العائلة والأولاد خارج المدينة للاستجمام. التقيت هناك بأحد أصدقائي القدماء تحادثنا طويلاً وتساءلنا.. شوفي شومافي.. الصحة على ما يرام.

سألته: ماذا حصل هناك بعد أن انتقلنا من عندكم؟.

أفهمني صديقي.. عندما سمع بما حصل لنا، كيف نقبض دون عمل وكيف تم ترفيعنا درجتان.. وزاد راتبنا.. دقق صاحبنا في الأمر وقرر أنه في كل فرصة تأتيه سيقتل المدير العام. وقد سمعت أنه بدأ بالقتل والضرب.

قلت له: هل تمزح يا صديقي؟ هل تفعلون ذلك؟

قال: لا يا روحي هل يكون هذا صحيحاً؟ هل يستطيع المرء أن يكون هكذا؟ نحن نفعل ذلك عن جد، ولكن نشخص المدير بشيء ما ونظل نضربه حتى نرتاح نفسياً.

قلت: هذا ليس بشيء جديد.. كل موظف يقتل من هو أعلى مرتبة منه ولكن في خياله.

الفهرس

ذَنَبُ الكلب

لا يخدعنّك مظهري يا سيدي، فأنا لم أطالب أحدهم إذا باع قصة حياتي لصحيفة، ولم أرغم الفلاحين على قتل الخنازير التي أتلفت المحاصيل في بلدتي، ولم أستغرب أن دجاجة تبيض خمس بيضات في اليوم، وأن حماراً أنجب خروفاً يغرد كالبلبل، وأن رجلاً في السبعين من عمره أصبح امرأة أنجبت خمسة توائم دفعة واحدة.

تناولت السم عدّة مرات وبقيت حياً، وعندما أكلت قطعة جبن اشتريتها من دكان جاري كانت نهايتي. لم تمنع الأوسمة والثناءات التي حصلت عليها يوم كنت جندياً جابي الضرائب من مصادرة منزلي، ومازالت جدتي تمتنع عن نشر ثيابها الداخلية على حبل الغسيل بعيداً عن الفضوليين.

قالوا عني بأني صحفي أهتم بالأخبار داخل بلدتي، ورغم أني لا أحمل شهادة صحفي، ولا أنتسب لعائلة الصحافة، فإن الجندرمة تسألني دائماً عن حوادث جرت في عموم البلاد فأجيبهم بقصة تضحكهم ليعودوا أدراجهم.

تلك قصص عزيز نيسين الممتعة، في هذا الكتاب «ذَنَبُ الكلب».

الناشر

السعر ٢٠٠ ل.س

دار المنارة